المركز القومى للترجمة

هـ.ج.ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(4)

ترجمة: رؤوف وصفى

1819
سلسلة الإبداع القصصى

هـ . ج . ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(٤)

ترجمة : رؤوف وصفى

2011

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة: خيري دومة

- العدد: 1819
- القصص القصيرة الكاملة(٤)
- هـ . ج. ويلز
- رؤوف وصفي
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة:

The Complete Short Stories of H.G. Wells

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ويلز، هربرت جورج، ١٨٦٦ ـ ١٩٤٩ .
القصص القصيرة الكاملة/ تأليف: هـ. ج. ويلز؛
ترجمة: رؤوف وصفى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب،٢٠١١ .
مج ٤ ؛ ٢٠سم. ـ (سلسلة المركز القومى للترجمة)
تدمك ٦ ٩٧٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
٢ ـ القصص القصيرة.
أ ـ وصفى، رؤوف. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٩٠/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -973 - 6
ديوى٨٢٣

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـويات

آلــة الزمــن

- ١ -

كان مسافر الزمن (وسيكون من الملائم أن نتكلم عنه على هذا النحو وليس باسمه) يشرح لنا أمرًا بالغ الغموض. كانت عيناه الرماديتان تتألقان وتومضان بومضات خفيفة، وكان وجهه الشاحب عادة، متوردًا من فرط الانفعال، ومفعمًا بالحيوية. تأججت النيران فى المدفأة، وكان الضوء الرقيق المنبعث من نباتات الزنق الفضية. ينعكس على الفقاعات التى تتصاعد باستمرار من الشراب الذى فى كئوسنا. وكانت مقاعدنا تحتضننا وتحتوينا، أكثر من استسلامها لنا، لنجلس عليها. وكانت هذه المقاعد الفريدة من تصميم مسافر الزمن. وبعد العشاء، سرى ذلك الجو المترف، حيث تكون الأفكار حرة خالية من الدقة التى قد تقيدها.

وقد أخذ مسافر الزمن يعرض علينا الأمر بهذه الطريقة. ويعدد النقاط بإصبع سبابته النحيل، بينما كنا نجلس مسترخين، ومعجبين بتحمسه لهذه الفكرة الجديدة المظهرة لسمات متناقضة ومتعذر تفسيرها (كما تصورناها)، وبمدى خصب أفكاره.

قال مسافر الزمن: "يجب أن تتابعوا أقوالى بدقة وتأن. إن علىّ أن أناقض فكرة أو اثنتين، تكادان أن تكونا مقبولتين على مستوى العالم كله. فالهندسة - على سبيل المثال - التى يعلمونها لكم فى المدرسة، مبنية على سوء فهم".

فقال (فيلبى) وهو شخص ذو شعر أحمر مولع بالجدل: "أليس هذا موضوعًا كبيرًا متسعًا، من العسير علينا أن نبدأ به كأساس للمناقشة؟".

"إننى لا أطلب منكم أن تتقبلوا شيئًا بلا أساس منطقى له. وأعتقد أنكم سوف تقرون - عاجلاً - بصحة ما أريد منكم أن توافقوا عليه. إنكم تعرفون دون شك بأن الخط الرياضى، له طول ولكن عرضه صفر. أى ليس له وجود فى الحقيقة. ألم يعلموكم هذا فى المدرسة؟ وكذلك المستوى الرياضى[1]. هذه كلها أفكار تجريدية"[2].

قال أحدنا وهو عالم نفسى: "هذا صحيح".

"وبالمثل، فالمكعب الذى هو طول وعرض وارتفاع فحسب، ليس له وجود حقيقى".

صاح (فيلبى): "ها هنا أعترض على هذا الكلام إذ لا شك أن أى جسم مادى له طول وعرض وارتفاع يمكن أن يوجد فى الحقيقة. كل تلك الأشياء الحقيقية".

---

(١) التمثيل بأحد السطوح أو الأشكال المستوية المستعملة فى علم الهندسة (المترجم).
(٢) دراسة نظرية دون الرجوع إلى نموذج أو شىء محدد (المترجم).

"هذا ما يظنه معظم الناس. ولكن أمهلنى لحظة. وأجبنى عن هذا السؤال:

"هل يمكن للمكعب اللحظى(٢) أن يوجد فى الواقع؟".

قال (فيلبى): "إننى لا أفهمك".

"هل يمكن لمكعب لا يبقى لأى زمن على الإطلاق، أن يكون له وجود حقيقى؟".

أصبح (فيلبى) مستغرقًا فى التفكير والتأمل. وتابع مسافر الزمن شرحه: "من الواضح أن أى جسم له وجود حقيقى ينبغى أن تكون له امتدادات فى أربعة اتجاهات: لابد أن يكون له طول وعرض، وارتفاع و... فترة بقاء. لكن، بسبب العجز الطبيعى فينا، سوف أوضحه لكم بعد لحظة. إننا نميل إلى إغفال هذه الحقيقة. فى واقع الأمر هناك بالفعل أربعة أبعاد، ثلاثة منها نطلق عليها مستويات المكان الثلاثة وبعد رابع هو الزمن. ومع هذا، هناك نزعة لوضع تفريق غير واقعى بين الأبعاد الثلاثة السابقة والبعد الرابع، ويرجع هذا لأن وعينا البشرى يتحرك بعدم تواصل، فى اتجاه واحد، على طول البعد الرابع، منذ بداية حياتنا إلى نهايتها"

هتف شاب حديث السن للغاية وهو يبذل جهدًا تشنجيًا لإعادة إشعال سيجارة من لهب المصباح: "أصبح هذا الأمر.. جليًا جدًا حقًا".

استطرد مسافر الزمن، وقد ارتسم على وجهه بعض السرور والبهجة: "الآن، من اللافت للنظر، أن هذه الفكرة قد تم إغفالها

---

(٢) موجود فى لحظة معينة (المترجم).

على نطاق واسع. وهذا هو - فى حقيقة الأمر - ما نقصده بالبعد الرابع. إلا أن بعض الناس الذين يتحدثون عن البعد الرابع، لا يدركون أنهم يعنونه بالتحديد. إن ثمة طريقة أخرى للنظر إلى الزمن. ليس هناك تباين بين الزمن وأى من أبعاد المكان الثلاثة الأخرى، ما عدا أن وعينا البشرى يتحرك على طول هذا البعد. لكن بعض الناس الجهلاء، أمسكوا بالجانب الخاطئ من هذه الفكرة. لقد سمعتم جميعًا ما قالوه عن هذا البعد الرابع!".

قال أحدنا وكان رئيس البلدية الإقليمى: "أنا لم أسمع بأقوالهم".

"الأمر ببساطة. أنهم يتحدثون عن ذلك المكان - كما يراه علماء الرياضيات عندنا - أن له ثلاثة أبعاد، التى يمكن أن يطلق عليها الإنسان، الطول والعرض والارتفاع، ويتم تعريفها دائمًا بدلالة ثلاثة مستويات، كل منها يكوّن زاوية قائمة مع الآخرين. ولكن بعض الفلاسفة أخذوا يتساءلون: لماذا ثلاثة أبعاد بالتحديد؟ لماذا لا يكون هناك اتجاه آخر على زاوية قائمة مع الأبعاد الثلاثة الأخرى؟ وأنهم حاولوا البحث فى إقامة علم جديد للهندسة، هو الهندسة رباعية الأبعاد، وقد طرح البروفيسور (سيمون نيوكومب) نظريته عن هذه الهندسة على جمعية الرياضيات فى نيويورك، منذ نحو شهر. وأنتم تعرفون كيف يمكننا أن نمثل شكلاً من جسم مادى بثلاثة أبعاد، على سطح منبسط له بعدان فحسب، وبشكل متماثل، تصوروا بأنهم باستخدام نماذج من ثلاثة أبعاد، يمكنهم تمثيل شكل بأربعة أبعاد. إذ هم تمكنوا من التحكم فى منظور[٤] الشكل. هل هذا واضح؟".

---

(٤) تمثيل الأجسام ثلاثية الأبعاد على سطح ثنائى الأبعاد بطريقة تحدث فى النفس انطباعًا واقعيًا (المترجم).

غمغم رئيس البلدية الإقليمى قائلاً: "أعتقد هذا" وعقد حاجبيه، ثم استغرق فى حالة تأمل داخل نفسه وشفتاه تتحركان كأنه شخص يردد كلمات خاصة بالطقوس السرية الدينية، وقال بعد وقت قصير وقد أشرق وجهه وأوضح بأسلوب متباين تمامًا: "نعم، أظن أننى أدرك هذا الآن".

"حسنًا، لن أخفى عليكم أننى ظللت أعمل فى مجال هندسة الأبعاد الأربعة هذه لفترة من الوقت. وتوصلت إلى بعض النتائج الغريبة. فعلى سبيل المثال، هذه صورة رجل عندما كان فى العام الثامن من عمره، وصورة أخرى وهو فى الخامسة عشرة وأخرى وهو فى السابعة عشرة وأخرى وهو فى العام الثالث والعشرين وهكذا.. من الواضح أن كل هذه قطاعات طبق الأصل، تعبيرات ثلاثية الأبعاد لوجوده رباعى الأبعاد، وهو شىء ثابت وغير متغير".

تابع مسافر الزمن، بعد فترة الصمت المطلوبة لاستيعاب هذا القول استيعابًا سليمًا: "يعرف العلماء جيدًا بأن الزمن ما هو إلا نوع من المكان. ها هنا مخطط علمى مشهور، سجل لحالة الطقس. هذا الخط الذى أتتبعه بإصبعى يبين حركة مقياس الضغط الجوى كان أمس عاليًا للغاية، وهبط فى الليل، ثم ارتفع من جديد فى هذا الصباح ويبطء إلى الأعلى هنا، من المؤكد أن الزئبق لم يرسم هذا الخط فى أى من أبعاد المكان المعروفة بشكل عام؟ لكنه رسم خطًا كهذا يقينًا، ومن ثم فإن هذا الخط كان، كما يجب أن نستنتج، على طول بُعد الزمن".

تحدث أحد رجال الطب من بيننا، محدقًا بحدة فى جمرة فحم فى النار: "لكن، إن كان الزمان حقًا مجرد بُعد رابع من أبعاد المكان، لماذا يعتبر، ولماذا اعتُبر دائمًا، كشىء متباين؟ لماذا لا نستطيع أن نتحرك فى الزمان كما نتحرك فى أبعاد المكان الأخرى؟".

ابتسم مسافر الزمن وقال: "هل أنت متأكد من أننا نستطيع التحرك بحرية فى المكان؟ نستطيع أن ننتقل إلى اليمين وإلى اليسار، وإلى الخلف وإلى الأمام بحرية كافية، والناس يتحركون بهذا الشكل دائمًا. إننى أعترف بأننا نتحرك بحرية فى بُعدين اثنين. لكن، ماذا عن التحرك إلى البعدين أعلى وأسفل؟ الجاذبية الأرضية تحد من تحركنا فى هذين الاتجاهين".

قال رجل الطب: "ليس تمامًا. هناك البالونات".

"لكن، قبل البالونات، باستثناء القفز بشكل متقطع وعدم انتظام السطح، لم يكن للناس حرية فى الحركة العمودية".

قال رجل الطب: "لكنهم ما زالوا يتمكنون من التحرك قليلاً إلى أعلى وإلى أسفل".

"التحرك إلى أسفل، أسهل كثيرًا من التحرك إلى أعلى".

"ولكنك على كل حال، لا تتمكن من الحركة أبدًا فى الزمن، أنت لا تستطيع الابتعاد قيد أنملة عن اللحظة الحاضرة".

"يا سيدى العزيز، ها هنا موضع خطئك البيِّن. بل إلى ذلك الحد وصل العالم كله فى خطئه. فإننا نبتعد دائمًا عن اللحظة الحاضرة. وجودنا العقلى الذى هو غير مادى وليس له أى أبعاد، يتقدم على

طول بُعد الزمن بسرعة متسقة من المهد إلى اللحد. تمامًا كما يجب أن نتحرك هابطين إذا كنا قد بدأنا حياتنا على ارتفاع خمسين ميلاً عن سطح الأرض".

قاطعه عالم النفس قائلاً: "لكن الصعوبة الكبرى هى أنه يمكنك أن تتحرك فى جميع اتجاهات المكان، لكنك لا تستطيع أن تتحرك فى جميع اتجاهات الزمن".

"ذلك هو جوهر اكتشافى ذى الأهمية العظمى. لكنك مخطئ بقولك إننا لا نستطيع أن نتحرك فى جميع اتجاهات الزمن. فعلى سبيل المثال حين أتذكر حادثًا بكل تفاصيله فإننى بهذا أعود إلى لحظة وقوعه أصبح منشغل البال كما تقول. أعود إلى الماضى للحظة. من الطبيعى أنه ليس لدينا بالطبع أية وسيلة للبقاء هناك لأية مدة من الزمن أكثر مما لدى إنسان همجى أو حيوان من طريقة لكى يظل على ارتفاع ستة أقدام فوق سطح الأرض. لكن إنسانًا متحضرًا يتميز عن الإنسان الهمجى فى هذا المجال، يستطيع أن يرتفع فى بالون ضد الجاذبية، فلماذا لا يتمنى إذن أن يتمكن فى مآل الأمر أن يوقف انسياقه أو تسارعه على طول بُعد الزمن، أو حتى فى أن يستدير ويسافر فى الاتجاه المضاد".

بدأ (فيلبى) الحديث بقوله: "أوه، هذا كله".

قال مسافر الزمن: "ولم لا".

قال (فيلبى): "إن هذا ضد المنطق".

قال مسافر الزمن: "أى منطق؟".

قال (فيلبى): "يمكنك أن تحول الأسود إلى أبيض بالنقاش، لكنك لن تتمكن من إقناعى أبدًا".

قال مسافر الزمن: "ربما لا أقنعك. لكنك عاجلاً سوف تبدأ فى رؤية موضوع أبحاثى فى مجال هندسة الأبعاد الأربعة. منذ زمن طويل كانت لدىّ فكرة غامضة عن آلة..".

صاح الشاب الصغير السن: "تسافر بها عبر الزمن!".

"سوف تسافر تلك الآلة فى أى اتجاه من الاتجاهات فى المكان والزمان حسب رغبة السائق".

ضحك (فيلبى) ليرضى نفسه.

قال مسافر الزمن: "لكننى قمت بإثبات نظريتى عن طريق التجربة".

قال عالم النفس مقترحًا: "سيكون هذا مفيدًا تمامًا للمؤرخ. إذ قد يتمكن من أن يسافر إلى الماضى ويتأكد - على سبيل المثال - من الوقائع الحقيقية لمعركة (هاستينجز)"[٥].

قال رجل الطب: "ألا تعتقد بأنك سوف تثير الانتباه؟ فأجدادنا لا يتسامحون كثيرًا أمام المفارقات التاريخية"[٦].

فكر الشاب الصغير السن ثم قال: "قد يسمع الإنسان اللغة

---

(٥) دارت هذه المعركة عام ١٠٦٦، انتصر فيها النورمان (خليط من شعوب إسكندنافيا) فى حملتهم لغزو إنجلترا (المترجم).

(٦) تقديم وجود شخص او حدوث شىء فى غير ترتيبه الزمنى أو التاريخى الصحيح (المترجم).

اليونانية الصحيحة من شفاه الشاعر اليونانى (هوميروس) والفيلسوف اليونانى (أفلاطون) نفسيهما".

"فى هذه الحالة، سوف تفشل فى اجتياز امتحان نصف العام. لقد أدخل العلماء الألمان تحسينات كثيرة على اللغة اليونانية".

قال الشاب الصغير السن: "ثم هناك المستقبل. فكر فى هذا! قد يستثمر شخص كل ثروته ويتركها حتى تتراكم فوائدها ثم يسرع متقدمًا فى الزمن إلى الأمام!".

قلت: "ليجد مجتمعًا مستقبليًا قائمًا على أساس شيوعى صارم".

بدأ عالم النفس القول: "من بين كل النظريات المتطرفة!".

"نعم، هكذا ظننت، ومن ثم لم أتكلم عنه إلا حتى..".

صحت وأنا أكمل عبارته: ".. أثبت تجريتى!، هل سوف تثبت ذلك؟".

صاح (فيلبى) الذى أخذ يحس بالإرهاق الذهنى: "التجربة!".

قال عالم النفس: "عليك بالبرهان اليقينى، مع أن هذا كله يبدو لى هراء، كما تعرف".

ابتسم مسافر الزمن ودار بنظره بيننا جميعًا. وما زالت على شفتيه ابتسامة باهتة ويداه تندسان عميقًا فى جيبى بنطلونه، ثم أدار لنا ظهره وسار ببطء وخرج من الغرفة، سمعناه يجر خفيه على الأرض ويمشى بعيدًا فى الممر الطويل متجهًا صوب مختبره.

نظر عالم النفس إلينا وقال: "إننى أتعجب مما قد يكون فى جعبته".

قال رجل الطب: "ربما خدعة من خدع خفة اليد أو شيء على شاكلتها".

وحاول (فيلبى) أن يحكى لنا عن حاوٍ رآه فى (بير سليم) لكن مسافر الزمن عاد إلينا قبل أن يُنهى (فيلبى) رواية مقدمة قصته عن الحاوى، فانهارت حكايته التى تتضمن - بالتأكيد - حدثًا مثيرًا أو مضحكًا.

كان الشيء الذى يحمله مسافر الزمن فى يده عبارة عن إطار معدنى يلتمع فى الضوء، لا يكاد يزيد حجمه على ساعة جدار صغيرة، وكان دقيق الصنع للغاية يتميز بوجود عاج ومادة بللورية شفافة. والآن، لابد أن أكون صريحًا وواضحًا، لأن ما سوف يجرى سيكون أمرًا غير قابل للتعليل، إلا إذا كان تفسير مسافر الزمن له مقبولاً. أخذ مسافر الزمن إحدى المناضد ثمانية الأضلع المبعثرة فى أنحاء الغرفة ووضعها أمام نيران المدفأة، وقد استقرت رجلان من أرجلها على سجادة المدفأة. على هذه المنضدة وضع الآلة، ثم جر مقعدًا ,وجلس عليه. كان الجسم الوحيد الآخر على المنضدة مصباحًا مظللاً، سقط ضوئه الساطع على النموذج المعدنى بالكامل. وكانت نحو عشر شموع مضاءة أيضًا متناثرة فى المكان، اثنتان منها فى شمعدانين من النحاس الأصفر موضوعين على رف المدفأة، والعديد منها على أرفف جدارية، فكانت الغرفة إذن مضاءة إضاءة كافية. جلست على مقعد منخفض ذى ذراعين فى أقرب مكان من النيران، بعد أن جذبته إلى الأمام حتى أصبحت فى موضع بين مسافر الزمن والمدفأة على وجه التقريب. جلس (فيلبى)

خلفى، ناظرًا إلى المشهد من فوق كتفه. راقب رجل الطب ورئيس البلدية الإقليمى جانبيّة وجه مسافر الزمن من الجهة اليمنى، بينما راقبه عالم النفس من الجهة اليسرى. ووقف الشاب الصغير السن خلف عالم النفس. كنا كلنا فى حالة ترقب. إذ إنه من غير المعقول أن تخدعنا حيلة أيًا كان نوعها، ومهما كان الذكاء الذى سينفذها وأيًا كانت البراعة التى تتم بها.

نظر مسافر الزمن إلينا ثم إلى الآلة. قال عالم النفس: "وماذا بعد؟".

قال مسافر الزمن، متكئًا بمرفقه على المنضدة، وضامًا يديه معًا فوق النموذج: "هذا الجهاز الصغير مجرد نموذج فقط. إنه مخططى لآلة أسافر بها خلال الزمن. سوف تلاحظون أنها تنحرف انحرافًا غريبًا، وأن لهذا القضيب وميضًا غريبًا، كأنه غير حقيقى بطريقة ما. أشار إلى أحد الأجزاء بإصبعه: "أيضًا هنا ثمة رافعة بيضاء صغيرة، وها هنا أخرى".

نهض رجل الطب عن مقعده وحدق فى النموذج. وقال: "إنه مصنوع صناعة متقنة".

رد مسافر الزمن بسرعة وذكاء: "استغرقت صناعته سنتين". ثم حين قلدنا نحن كلنا ما فعله رجل الطب، بالتحديق فى النموذج قال: "الآن، أريدكم أن تفهموا بوضوح أن هذه الرافعة عند الضغط عليها سترسل الآلة تتحرك بسلاسة وسهولة إلى المستقبل وهذه الرافعة الأخرى تعكس الحركة. وهذا الذى يشبه السرج يمثل مقعد مسافر زمن. وشيكًا، سأضغط على الرافعة فتنطلق الآلة. ستختفى،

ستندفع إلى المستقبل، وتختفى. ألقوا نظرة فاحصة على الآلة. انظروا إلىّ بإمعان، وللمنضدة أيضًا، وتأكدوا من أنه ليس هناك أية خدعة، فأنا لا أريد أن أضيّع هذا النموذج ليقال لى بعد ذلك بأننى دجال".

ساد الصمت نحو دقيقة. وبدا أن عالم النفس على وشك أن يتحدث إلىّ، لكنه عدل عن رأيه. ثم مد مسافر الزمن إصبعه نحو الرافعة. إلا أنه قال على نحو مفاجىء: "لا، بل أعطنى يدك". ثم استدار إلى عالم النفس، فتناول يده، وطلب منه أن يمد سبابته. ومن ثم كان عالم النفس نفسه هو الذى أرسل نموذج مسافر الزمن لينطلق فى رحلته الطويلة جدًا التى لا نهاية لها. رأينا كلنا الرافعة تدور. إننى على يقين كامل من أنه لم يكن هناك أى خداع. هبت نسمة من الهواء، اختلج لهب المصباح. انطفأت إحدى الشموع الموجودة على رف المدفأة، ودارت الآلة الصغيرة حول نفسها بغتة وأصبحت ضبابية غير واضحة المعالم، بدت كشبح، ربما لثانية واحدة، كدوامة من نحاس أصفر وعاج متألقين إلى حد ما، ثم ذهبت ـ اختفت! وأصبحت المنضدة خالية، إلا من المصباح!

سكتنا جميعًا مذهولين لنحو دقيقة. ثم أطلق (فيلبى) اللعنات معبرًا عن دهشته البالغة.

أفاق عالم النفس من ذهوله بسبب الصدمة، ثم نظر فجأة تحت المنضدة. عندئذ ضحك مسافر الزمن من كل قلبه. قال، موجهًا كلامه إلى عالم النفس: "حسنًا؟" ثم نهض واقفًا واتجه إلى وعاء التبغ على رف المدفأة، وأولانا ظهره ثم أخذ يحشو غليونه.

حدق بعضنا فى بعض. قال رجل الطب: "انظر إلىّ هنا، هل أنت صادق بخصوص هذه المسألة؟ هل تعتقد على نحو جدى بأن هذا الجهاز سافر فى الزمن؟".

قال مسافر الزمن، وهو ينحنى ليشعل غليونه بلفافة ورق أوقدها من نار المدفأة، ثم استدار، مشعلاً غليونه، لينظر إلى وجه عالم النفس. (وحتى يظهر لنا عالم النفس بأنه لم يكن مرتبكًا أو مشوش الفكر، تناول سيجارًا وحاول أن يشعله وهو غير مقطوع):

"وعندى ما يفوق هذا، لدىّ آلة ضخمة، أكاد أن أنتهى من صنعها هناك..".

وأشار إلى المختبر - "حين تُجمع أجزاؤها فإننى أنوى أن أقوم برحلة على مسئوليتى الخاصة".

قال (فيلبى): "أنت تعنى أن تقول بأن ذلك الجهاز الصغير يجوب الآن المستقبل؟".

"المستقبل أو الماضى - لا أعرف بالضبط أيهما".

بعد وهلة، وكأنما هبط الإلهام على عالم النفس فقال: "لابد أنها ذهبت إلى الماضى، إن هى ذهبت إلى أى مكان".

سأل مسافر الزمن: "لماذا؟".

"لأننى أفترض أنها لم تغادر هذا المكان وإذا كانت قد سافرت فى المستقبل فإنها سوف تكون هنا طيلة هذا الوقت، طالما أنها سافرت خلال هذا الزمن".

قلت: "لكنها إن هى سافرت إلى الماضى، فلابد أن نكون قد

رأيناها حين دخلنا هذه الغرفة أول مرة، فى يوم الخميس الماضى حيث اجتمعنا هنا، والخميس الذى سبقه، وهكذا..".

علق رئيس البلدية الإقليمى، بحيادية تامة، وهو يلتفت إلى مسافر الزمن: "اعتراضات معقولة".

قال مسافر الزمن: "على الإطلاق". ثم تابع القول لعالم النفس: "هل تعتقد أن بإمكانك أن تفسر هذا؟ إنه عرض مخفى، كما تعرف عرض مبسط".

قال عالم النفس، وأعاد الطمأنينة إلى نفوسنا: "طبعًا. تلك نقطة يسيرة فى علم النفس. كان يجب أن أفكر فيها. إنها بالغة الوضوح، وتساعد على تفسير التناقض الظاهرى. نحن لا نستطيع أن نرى الجهاز، أكثر مما نستطيع رؤية أشعة عجلة تدور أو طلقة تطير فى الهواء. إن كان الجهاز يسافر فى الزمن بسرعة تبلغ خمسين ضعفًا أو مائة ضعف سرعتنا نحن، وإن كان الجهاز يقطع دقيقة كلما قطعنا ثانية واحدة، فالانطباع الذى سيثيره سيكون بالطبع واحدًا على خمسين أو واحدًا على مائة مما يحدثه إن هو لم يكن يسافر عبر الزمن. ذلك واضح جدًا". مرر يده فى المكان الذى كانت فيه الآلة وقال ضاحكًا: "هل تفهموننى؟".

جلسنا وحدقنا فى المنضدة الخالية حوالى دقيقة. ثم سألنا مسافر الزمن عن رأينا فى هذا كله.

قال رجل الطب: "يبدو أن الأمر معقول إلى حد كاف الليلة، لكن انتظروا حتى الغد. انتظروا منطق الصباح عندما تشرق الشمس!".

سأل مسافر الزمن: "أتودون أن تروا آلة الزمن نفسها؟"، وعلى الفور وبعد أن حمل المصباح بيده، سار فى مقدمتنا فى الممر الطويل الرطب إلى مختبره. أتذكر جيدًا الشموع التى تشتعل بارتجاج، ورأسه الغريب العريض الظاهر فى صورته الظلية على الجدار، وتراقص الظلال، وكيف تبعناه كلنا، والحيرة تعترينا والريبة تعصف بنا، وكيف رأينا فى المختبر هناك نسخة أكبر من الجهاز الصغير الذى رأيناه يختفى أمام أعيننا، كانت بعض أجزاء الآلة الكبيرة من النيكل، وأجزاء أخرى من العاج، ولا بد أن أجزاء بُردت أو نُشرت من الكوارتز الشفاف. كانت الآلة توشك أن تكون متكاملة، لكن قضبان الكوارتز الملتوية استقرت غير مكتملة على المقعد الخشبى إلى جانب بعض أوراق رسم، فرفعت أحدها لأدقق النظر فيه. بدا أنه من الكوارتز بالفعل.

قال رجل الطب: "اسمع، هل أنت صادق تمامًا؟ أم أن هذه خدعة مثل ذلك الشبح الذى أريتنا إياه فى عيد الميلاد الماضى؟".

قال مسافر الزمن، رافعًا المصباح عاليًا: "بهذه الآلة أنوى أن أستكشف الزمن. هل ذلك واضح؟ لم أكن فى حياتى أكثر جدية من الآن".

لم يعرف أى واحد منا كيف يقيّم قوله هذا.

التقت عيناى بعينى (فيلبى) فوق كتف رجل الطب، فغمزنى بوقار.

الحقيقة أننى لا أظن أن أحدًا قد آمن تمامًا بآلة الزمن فى تلك الليلة. والواقع أن مسافر الزمن كان أحد أولئك الرجال الذين لا يثق الناس بهم لفرط ذكائه. أنت تشعر بأنك لا ترى كل ما يحيط به، وترتاب دائمًا فى وجود شىء ما يخفيه بذكاء، ثمة عبقرية كامنة خلف صراحته التى تدل على رجاحة العقل. لو أرانا (فيلبى) نفسه النموذج وأوضح الموضوع بنفس كلمات مسافر الزمن، لأبدينا شكًا أقل كثيرًا. لكنا أدركنا دوافعه: فحتى جزار خنازير يمكنه أن يفهم (فيلبى). لكن لمسافر الزمن أكثر من فكرة اعتباطية بين ما يرويه من وقائع، فنحن لم نكن نثق به. إن أشياء سوف تضفى المزيد من الشهرة لرجل أقل ذكاء، تبدو خدعًا فى يديه. من الخطأ القيام بأمور بسهولة كبيرة. الناس الوقورون الذين يأخذونه على محمل الجد، لم يتأكدوا أبدًا من حسن تصرفه: إنهم يشعرون بشكل ما، بأنهم عندما يأتمنون سمعتهم لديه للحكم عليها، سيكون كتوريد أوعية صينية رقيقة مثل قشر البيض إلى دار حضانة. ومن ثم فإن أحدًا منا لم يقل الكثير عن السفر فى الزمان فى الفترة من يوم الخميس هذا إلى يوم الخميس التالى، وعلى الرغم من أن غرابة الموضوع طبعًا أخطرت فى ذهن أغلبنا مصداقيته، أى صحة إثباته عمليًا، التوقعات الغريبة للمفارقة الزمنية أو التاريخية، الحالة الذهنية المشوشة المطلقة التى أثارتها فينا. فمن جانبى، كنت مشغولاً على نحو خاص، بخدعة النموذج. وأذكر أننى ناقشت ذلك مع رجل الطب الذى قابلته فى يوم الجمعة فى (لينايان). قال إنه شاهد شيئًا من هذا القبيل فى مدينة (توبينجين)، ولفت نظرى إلى

واقعة انطفاء الشمعة. أما كيف تمت الخدعة، فإنه لم يستطع تفسير هذا الأمر.

فى يوم الخميس التالى، ذهبت إلى (ريتشموند) من جديد ـ وأظن أننى كنت أحد أكثر ضيوف مسافر الزمن حرصًا على زيارته ـ فوجدت، بعد وصولى متأخرًا، أربعة رجال أو خمسة تجمعوا فى غرفة الاستقبال. كان رجل الطب يقف أمام المدفأة وفى إحدى يديه ورقة وفى الأخرى ساعة يد. تلفت حولى فى الغرفة بحثًا عن مسافر الزمن.. قال رجل الطب: "الساعة السابعة والنصف الآن. أظن أنه يحسن بنا أن نتناول العشاء؟".

سألت: "أين..." ذاكرًا اسم مضيفنا.

"هل وصلت الآن فقط؟ إنه حقًا لأمر غريب إلى حد ما. من المحتم أن عائقًا منعه من الحضور. إنه يطلب منى فى هذه المذكرة أن نبدأ فى تناول العشاء فى الساعة السابعة إذا لم يعد. ويقول إنه سوف يوضح الأمر حين حضوره".

قال محرر صحيفة يومية مشهورة: "إنه مما يدعو للأسف أن نترك العشاء يبرد". عند ذلك، رن الطبيب الجرس.

كان عالم النفس الشخص الوحيد، إضافة إلى الطبيب وأنا نفسى، الذين حضروا العشاء السابق. كان الرجال الآخرون: (بلانك)، المحرر المذكور سابقًا، وصحفيًا، ورجلاً آخر ـ رجلاً هادئًا وخجولاً له لحية ـ لم أعرفه ولم يفتح فاه أبدًا طيلة المساء كما لاحظت. أبدينا بعض التخمينات ونحن حول المائدة حول سبب غياب مسافر الزمن، فأشرت إلى السفر فى الزمن بروح نصف

مازحة. أراد المحرر أن يفسر له الأمر، فتطوع عالم النفس بتقديم وصف تنقصه الحيوية عن "التناقض والخدعة المبدعين" اللذين شاهدناهما فى ذلك اليوم من الأسبوع الماضى. كان فى وسط حديثه حين فتح الباب من الممر ببطء وبلا ضجة. كنت أواجه الباب، فرأيته أولاً. قلت: "مرحبًا! أخيرًا!" وفُتح الباب أوسع، ووقف مسافر الزمن أمامنا. أطلقت صيحة دهشة. صاح رجل الطب الذى رآه بعدى: "يا إلهى! ما الأمر يا رجل؟" والتفت كل من يجلس إلى المائدة نحو الباب.

كان فى حالة سيئة تدعو للدهشة بالفعل. كان معطفه مغبرًا ملوثًا وملطخًا بلون أخضر من أسفل الكمين، وشعره فى حالة فوضى، ودب فيه الشيب، إما بسبب الغبار المتراكم والأوساخ أو لأن لونه كان قد بَهت فعلاً. كان وجهه شاحبًا شحوبًا مروعًا، وجرح ذقنه جرحًا بنيًا، جرحًا نصف مندمل، وسحنته نحيلة ومسحوبة، تتبىء عن المعاناة القاسية. للحظة، تردد فى فرجة الباب، كأنما أزاغ عينيه ضوء القاعة الباهر. ثم دخل الغرفة وهو يترنح ويعرج، كان أشبه بمشية المشردين الذين أدمت أقدامهم المسافات الطويلة التى قطعوها حفاة. حدقنا فيه صامتين منتظرين منه أن يتكلم.

لم ينطق بأية كلمة، بل دنا متألمًا من المائدة وتحرك متجهًا نحو النبيذ. ملأ المحرر كأس شمبانيا ودفعه نحوه فشربه دفعة واحدة، وبدا أن هذا أفاده: فقد أجال نظره حول المائدة، ولاح على شفتيه شبح ابتسامته المعهودة. قال الطبيب: "ما الذى فعلته بنفسك يا رجل؟" لم يبد أن مسافر الزمن سمعه. قال، وهو يتلعثم فى كلامه:

"لا تدعونى أزعجكم. أنا على ما يرام". توقف، ومد كأسه طلبًا للمزيد، ثم شربه جرعة واحدة. قال: "ذلك طيب". ازداد تألق عينيه، واصطبغت وجنتاه بلون أحمر طفيف. تألقت نظرته على وجوهنا باستحسان بليد، ثم جالت حول الغرفة الدافئة المريحة. عندئذ تكلم من جديد، كأنه لا يزال يختار الكلمات: "سأذهب لأغتسل وأرتدى ملابسى، ثم سأنزل إلى هنا وأفسر لكم الأمور... أبقوا لى بعض لحم الضأن إذ إننى أتضور جوعًا".

نظر إلى المحرر الذى كان زائرًا نادرًا، وتمنى له أن يكون على ما يرام. بدأ المحرر بسؤال. قال مسافر الزمن: "سأجيبك على الفور. أنا فى حالة —يرثى لها! سأكون على ما يرام خلال دقيقة".

وضع كأسه على المائدة، واتجه نحو باب الدرج. لاحظت من جديد عرجه وصوت وقع قدميه اللين، ورأيت وأنا أقف فى مكانى، قدميه وهو يخرج. لم يكن عليهما أى شىء سوى جورب رث ملطخ بالدم. ثم أغلق الباب خلفه. نازعتنى نفسى أن ألحق به، إلا أنى تذكرت كيف أنه يكره إثارة ضجة حول نفسه. وأعتقد أننى ذهلت عما حولى لنحو دقيقة. ثم سمعت المحرر يقول، وهو يفكر (كما هى عادته) بعناوين صحفية: "سلوك غريب لعالم بارز". وأعاد هذا انتباهى إلى مائدة العشاء البراقة.

قال الصحفى: "ما هذه اللعبة؟ هل كان يمثل دور متسول هاو؟ أنا لا أفهم شيئًا". التقت عيناى بعينى عالم النفس، وقرأت تفسيرى فى وجهه. فكرت بمسافر الزمن يعرج بألم وهو يصعد الدرج. لا أظن أن شخصًا آخر لاحظ هذا الأمر.

كان أول من استعاد انتباهه تمامًا من هذه الدهشة هو رجل الطب الذى رن الجرس طالبًا إحضار طبق ساخن، إذ إن مسافر الزمن يكره أن يقوم الخدم بالخدمة أثناء العشاء عندما يكون موجودًا. عند ذلك، التفت المحرر إلى سكينه وشوكته وهو يصدر صوتًا حلقيًا عميقًا، وفعل الرجل الصامت مثله. واستؤنف تناول العشاء. كان الحديث تعجبيًا لهنيهة من الزمن، مع فواصل من عبارات الدهشة، ثم تحمس المحرر فى فضوله. سأل: "هل يريد صاحبنا أن يرفع دخله المتواضع بالتسول؟ أم أنه يمر بمراحل (نبوخذ نصر)[٧]؟"

قلت: "أنا متأكد من أن ما حدث له علاقة بآلة الزمن"، وأشرت إلى وصف عالم النفس لاجتماعنا السابق. كان الضيوف الجدد غير مصدقين صراحة. قال المحرر معترضًا: "ما هو السفر فى الزمن هذا؟ لا يمكن لرجل أن يغطى نفسه بالغبار بالتمرغ فى تناقض فكرى ظاهرى. أليس كذلك؟". وعندئذ استخدم، حين استوعب الفكرة، أسلوب النقد الساخر. "أليست لديهم أية فرشاة ملابس فى المستقبل؟".

لم يكن الصحفى ليصدق هذا تحت أى ظروف، وانضم إلى المحرر فى عدم التصديق، بإلقاء المزيد من عبارات السخرية على الأمر كله. كان كلاهما من النوع الجديد من الصحفيين ـ شباب مرحون جدًا وغير مهتمين باحترام الآخرين ـ كان الصحفى يقول أو

---

(٧) ملك بابل (توفى عام ٥٦٢ قبل الميلاد) أخمد ثورة اليهود ثم ساقهم جميعًا أسرى إلى بابل (المترجم).

بالأحرى كان يصرخ: "مراسلنا الخاص فى تقارير ما بعد غد" وحين عاد مسافر الزمن، كان مرتديًا ملابس المساء العادية، ولم يتغير فيه ما كان قد أفزعنى سوى نظراته المرهقة.

قال المحرر بمرح: "أقول إن هؤلاء الشباب هنا يقولون بأنك كنت مسافرًا فى وسط نصف الأسبوع القادم! أخبرنا عن (روزبيرى) الصغير، هل ستفعل هذا؟ كم سوف تتقاضى عن الخبر كله؟".

تقدم مسافر الزمن من المكان المحجوز له دون أن ينطق بكلمة. ابتسم بهدوء بطريقته المعهودة وقال: "أين لحم الضأن؟ يا لها من متعة تلك التى يثيرها غرز شوكة فى لحم من جديد!".

صاح المحرر: "أين القصة؟!".

قال مسافر الزمن: "اللعنة على القصة! أريد شيئًا آكله. لن أنطق بكلمة إلا بعد أن تنتقل مادة الهضمون(٨) إلى شراييني. شكرًا. والآن الملح".

قلت: "كلمة واحدة، هل كنت مسافرًا فى الزمن؟".

قال مسافر الزمن وفمه ممتلىء، وهو يومىء برأسه: "نعم".

قال المحرر: "سأدفع شلنًا عن كل سطر من وصف يهتم بكل التفاصيل الدقيقة لما حدث". دفع مسافر الزمن كأسه نحو الرجل الصامت، ورنها بإظفر إصبعه علامة على أنه يريد المزيد ,عندها جفل الرجل الصامت، الذى كان يحدق فى وجهه وصب له نبيذًا.

---

(٨) مادة تنشأ عن البروتينات نتيجة للهضم (المترجم).

كان باقى العشاء غير شهى. أما من جانبى أنا، فراحت أسئلة فجائية تتدفق صاعدة إلى شفتى، وأنا متأكد من أن هذا نفس ما كان يشعر به الآخرون. حاول الصحفى تخفيف حدة التوتر برواية نوادر (هيتى بوتر). ركز مسافر الزمن انتباهه على وجبة عشائه، وأظهر شهية متشرد يتضور جوعًا.. دخن رجل الطب سيجارة، وراقب مسافر الزمن من خلال رموش عينيه. ظهر الرجل الصامت أخرق أكثر من السابق، وشرب الشمبانيا بانتظام وتصميم بسبب ما يعانيه من عصبية زائدة. أخيرًا أزاح مسافر الزمن طبق الطعام بعيدًا عنه، ونظر إلينا جميعًا. وقال: "أعتقد أننى يجب أن أعتذر. لقد كنت ببساطة أتضور جوعًا. لقد أمضيت وقتًا مروعًا. مد يده ليأخذ سيجارًا، وقطع طرفه: "لكن، هيا بنا إلى غرفة التدخين. إنها قصة أطول من أن تروى وأمامنا أطباق ملطخة بالدهن". وبعد أن قرع الجرس، مر بنا ثم سار فى المقدمة إلى الغرفة المجاورة.

قال لى، متكئًا إلى الخلف فى مقعده المريح، ذاكرًا أسماء الضيوف الثلاثة الجدد: "هل أخبرت (بلانك) و(داش) و(تشوز) عن آلة الزمن؟".

قال المحرر: "لكن الموضوع مجرد تناقض ظاهر"[٩].

واستطرد مسافر الزمن قائلاً: "لا يمكننى أن أناقش الأمر الليلة. لن أمانع فى رواية القصة، لكننى لا أستطيع أن أناقش. سأروى لكم قصة ما حدث لى، إن شئتم، لكنكم يجب أن تمتنعوا عن المقاطعات. أريد أن أقصها بالتفصيل. سوف تبدو فى معظمها كأكاذيب. ربما

---

(٩) المظهر لسمات متناقضة ومتعذر تفسيرها (المترجم).

كان رأيكم فيها هكذا! ولكنى أؤكد لكم أنها حقيقية كل كلمة منها، على حد سواء.كنت فى مختبرى فى الساعة الرابعة، ومنذ ذلك الحين.. عشت ثمانية أيام.. أيام لم يقضها أى مخلوق بشرى من قبل! إننى أكاد أكون منهك القوى، لكننى لن أخلد للنوم قبل أن أسرد على مسامعكم وقائع القصة كلها. ثم سآوى إلى الفراش. لكن، لا مقاطعات! هل تعدوننى بهذا؟".

قال المحرر: "نعدك". وردد الباقون: "نعدك". بتلك الكلمة، بدأ مسافر الزمن قصته كما عرضت وقائعها. جلس متكئًا إلى الخلف فى مقعده أولاً، ثم تكلم كرجل مرهق. بعد ذلك، زادت حماسته. وفى تدوينى للقصة أشعر بكثير من الاقتناع بعدم ملاءمة القلم والحبر - وفوق كل هذا، بعدم ملاءمتى أنا شخصيًا - للتعبير عن نوعيتها بالغة الغرابة. سوف تقرأونها، كما أرجو، بانتباه كاف، لكنكم لن تروا وجه المتكلم الأبيض الصادق فى نطاق المصباح الصغير شديد الإضاءة، كما لن تسمعوا لفظ الصوت بوتيرة معينة. لن تدركوا كيف تابعت تعبيرات وجهه أحداث قصته! كان معظمنا، نحن السامعين، نجلس فى الظل، فلم تكن الشموع فى غرفة التدخين مضاءة، وكان وجه الصحفى ورجلا الرجل الصامت من ركبتيه إلى الأسفل هى المضاءة فقط. فى البداية، بين فترة وأخرى كنا نتبادل النظرات فيما بيننا. لكننا، وبعد مرور بعض الوقت، كففنا عن ذلك، وركزنا نظرنا فقط على وجه مسافر الزمن.

- ٣ -

"أخبرت البعض منكم فى يوم الخميس الماضى المبادىء

الأساسية التى قام عليها مشروع آلة الزمن، وأطلعتكم على تلك الآلة ذاتها فى المختبر ولم تكن قد اكتملت بعد. ولا تزال الآلة هناك من جديد ولكنها تآكلت من السفر حقًا، وقد شُرخ أحد القضبان العاجية فيها والتوى عمود من نحاس أصفر، لكن بقية الآلة خالية من الأضرار وتوقعت أن أنتهى من العمل فى يوم الجمعة، لكن عندما انتهيت من تجميع الآلة تقريبًا يوم الجمعة، اكتشفت أن أحد القضبان المصنوعة من النيكل أقصر مما يجب بمقدار بوصة واحدة، وكان يجب إعادة صنع هذا القضيب، ومن ثم لم تكن الآلة جاهزة للعمل إلا فى صباح هذا اليوم. فى الساعة العاشرة من هذا اليوم، اكتملت أول آلة زمن فى العالم وأصبحت جاهزة لأداء عملها.

وأخذت أعيد فحص كل أجزائها بدقة بالغة، وجربت كل اللوالب ثانية، ووضعت قطرة زيت أخرى على قضيب الكوارتز ثم جلست على السرج. أتدركون مشاعر المنتحر الذى يصوب مسدسًا إلى رأسه ليقتل نفسه، أعتقد أنه سوف يستبد به نفس الشعور الذى انتابنى فى ذلك الوقت، كما سوف يحدث بعد ذلك. أمسكت رافعة الانطلاق بإحدى يدىّ وقضيب الفرملة باليد الأخرى، وضغطت باليد الأولى قليلاً ثم ضغطت باليد الأخرى لأوقف التشغيل، عندئذ انتابنى دوار شديد وأحسست بما يحس به من يتراءى له كابوس أنه يسقط من فوق جبل. لكن بعد أن نظرت حولى فرأيت المختبر على ما كان عليه فى السابق تمامًا، فهل يا ترى حدث أى شىء؟ للحظة شككت بأن ذهنى قد خدعنى. ثم حانت منى نظرة إلى الساعة المعلقة على الجدار. لقد بدا لى قبل لحظة أنها تشير إلى العاشرة

ودقيقة أو نحو ذلك، أما الآن فقد كان عقرباها يشيران إلى حوالى الثالثة والنصف!

أخذت شهيقًا عميقًا، أطبقت أسنانى، وقبضت على رافعة الانطلاق بيدىّ كلتيهما، ثم انطلقت الآلة مصدرة صوتًا مكتومًا. أصبح المختبر - فى نظرى - ضبابيًا ثم لفته الظلمة. دخلت السيدة (ووتشيت) مديرة المنزل وسارت فى اتجاه باب الحديقة، دون أن ترانى. أتصور أنها استغرقت دقيقة أو نحوها لتتحرك عبر المكان، لكنها بدت لى أنها اخترقت الغرفة كصاروخ. ثم أدرت الرافعة إلى أقصى وضع لها. أطبق الليل كأنه انطفاء مصباح، وبعد لحظة واحدة حل الغد. أصبح المختبر خافت الإضاءة وضبابيًا، ثم خفتت إضاءته أكثر فأكثر. جاء ليل الغد بظلامه، ثم انبلج النهار من جديد وهبط الليل ثانية، وطلع النهار ثانية، بسرعة فائقة. وملأت أذنى غمغمة مبهمة تدور كالدوامة، وهبط على ذهنى تشويش غريب أبكم.

أخشى ألا أتمكن من نقل الأحاسيس الغريبة للسفر عبر الزمن. إنها بغيضة إلى حد مروع. تشبه الشعور الذى يحس به الإنسان وهو على طريق جبلى متعرج، يندفع إلى الأمام منحدرًا، دون أن يتمكن من السيطرة على اندفاعه! وكنت أتوقع - فى رعب - اصطدامًا مفاجئًا. وعندما زادت سرعتى، توالى الليل فى أعقاب النهار كخفقات جناح أسود جبار. وتلاشى وجود المختبر المظلم مبتعدًا عنى فى تلك اللحظة، ورأيت أمامى الشمس تقطع السماء فى وثبات سريعة، كل دقيقة. وكل دقيقة تعنى يومًا واحدًا من عمر

الأرض. أظن أن المختبر كان قد تقوض وأننى خرجت إلى الهواء الطلق. تأثر ذهنى بقوة بشعور وجود معتم لسقالات مبانٍ، لكننى كنت أندفع بسرعة مروعة حتى إننى لم أعد أتمكن من الإحساس بأى أشياء تتحرك. كانت أبطأ حلزونة زاحفة تمر بى وكأنها تسابق الريح. وكان التتابع السريع للظلمة والنور الذى يشع بومضات خفيفة ومتقطعة، يسبب لعينى آلامًا مبرحة!. عندئذ تمكنت من أن ألمح فى فترات الظلام المتقطع شكل القمر يدور بسرعة ويتغير بالزيادة والنقصان، هلالاً ومحاقًا وبدرًا، كما لمحت النجوم كأنها دوائر من ضوء. وأخذت أكتسب تسارعًا جديدًا، اندمج الخفقان السريع لليل والنهار مكونين لونًا رماديًا مستمرًا، اكتسبت السماء لونًا أزرق عميقًا مدهشًا، لونًا لامعًا رائعًا كلون الشفق فى مرحلة مبكرة، وتحولت الشمس الوثابة إلى خط عريض من نار، يشبه قوسًا متألقًا فى الفضاء، وأصبح القمر شريطًا متموجًا باهتًا، ولم أتمكن من رؤية شىء من النجوم، إلا دائرة من الضوء المترنح على نحو أكثر سطوعًا من اللون الأزرق بين فترة وأخرى.

كان المشهد الأرضى ضبابيًا وغامضًا. كنت لا أزال على منحدر التل، حيث يقوم هذا البيت الآن، وقد ارتفع التل فوقى رماديًا ومعتمًا. شاهدت أشجارًا تنمو وتتغير رويدًا كنفخات من دخان، فى البداية كانت بنية، ثم خضراء.. إنها تنمو وتنتشر وترتج بفعل الريح ثم تختفى. رأيت مبانى هائلة ترتفع شاهقة وجميلة ثم تتلاشى كأضغاث أحلام. خيل إلى أن سطح الأرض كله متغير يذوب ويتدفق تحت عينى. تسارعت العقارب الصغيرة على الأقراص المدرجة التى تسجل سرعتى، وأخذت تدور بسرعة أكبر فأكبر.. وحينئذ لاحظت

أن شريط الشمس تأرجح إلى أعلى وإلى أسفل، من انقلاب شمسى[١٠] إلى انقلاب شمسى آخر فى دقيقة أو أقل، فأدركت أن سرعتى تزيد على سنة فى الدقيقة، والتمع الثلج دقيقة بعد أخرى عبر العالم كله، وتلاشى ثم أتت بعده خضرة الربيع الزاهى قصير الأمد.

أصبحت أحاسيس الانطلاق المزعجة أقل حدة الآن ثم تداخلت أخيرًا لتكوّن نوعًا من الإثارة الهستيرية. لاحظت ارتجافًا أخرق فى آلة الزمن لم أستطع أن أحدد طبيعته. بيد أن ذهنى كان مشوشًا للغاية إلى حد أننى لم أستطع الاهتمام به، لذلك، وبنوع من جنون متنامٍ داخلى ألقيت بنفسى فى غياهب المستقبل. فى أول الأمر، نادرًا ما كنت أفكر بالتوقف، بل لم آخذ أية فكرة بعين الاعتبار، سوى هذه المشاعر الجديدة. لكن لمعت فى ذهنى انطباعات جديدة فى تلك اللحظة - مشاعر يمتزج فيها الفضول بالخوف - إلى أن تملكتنى تمامًا فى نهاية الأمر.

فكرت فى نفسى: أى تطورات بشرية غريبة، وأى تطورات مذهلة على مدنيتنا فى مراحل نموها الأولى قد لا تظهر حين أصل وأمعن النظر فى العالم المراوغ المعتم الذى يتسارع ويتموج أمام عينى! رأيت مبانى عظيمة ورائعة ترتفع من حولى، أكثر شموخًا من أى مبان فى زماننا، لكن وكما ظهرت لى، مشيدة من وميض ضوء وضباب رقيق. ورأيت لونًا أخضر زاهيًا يرتقى سفح التل، ويبقى هناك دون أن يتأثر بأعاصير الشتاء. حتى من خلال الغلالة الضبابية - التى

---

(١٠) الذى تكون فيه الشمس فى أطول بعد من الدائرة الاستوائية السماوية (المترجم).

نشأت من السرعة الهائلة ـ بدت الأرض بالغة الجمال. وهكذا بدأ ذهنى يفكر فى إيقاف آلة الزمن.

كانت المجازفة الخطيرة تكمن فى إمكانية أن أجد مادة فى الفضاء تسبب لى الأذى وللآلة، إن ارتطمت بها. فما دمت سافرت بسرعة هائلة عبر الزمن، فلا يعنينى هذا الأمر كثيرًا.. فقد كنت فى حالة مادية وبكثافة أقل، إن صح هذا التعبير، كنت أنسل كالبخار خلال الفراغات الضيقة للمواد التى تعترضنى! لكن التوقف قد يؤدى إلى حشر جسمى، جزيئًا فجزيئًا، متخللاً كل ما يقابلنى فى طريقى، يعنى هذا دفع ذرات جسمى إلى تلامس وثيق مع ذرات المادة التى ارتطمت بها، حتى إن تفاعلاً كيميائيًا بالغًا ـ ربما يُحدث انفجارًا ينتشر إلى مسافات بعيدة ـ فيقذف بى وبآلتى خارج كل الأبعاد الممكنة إلى غياهب المجهول. وقد خطرت هذه الاحتمالية فى بالى كثيرًا، وأنا أقوم بصناعة الآلة، لكننى قبلتها بروح عالية آنذاك كمخاطرة محتومة لا مفر منها.. إحدى المخاطرات التى لابد أن يتصدى لها الإنسان! الآن، وبعد أن أصبحت هذه المخاطرة وشيكة الوقوع ولا مرد لها، لم أعد أراها بنفس البهجة والخفة. لكن الواقع الآن هو مدى غرابة كل شىء تلك الغرابة المطلقة غير المدركة بالحس أوالعقل، ارتجاج وترنح آلة الزمن، وفوق كل هذا الإحساس بالسقوط طويل المدى، الأمر الذى أزعج أعصابى تمامًا. قلت لنفسى بأننى لن أتمكن أبدًا من التوقف، لكننى اعتزمت بموجة من العناد، أن أتوقف على الفور. كأحمقٍ نافد الصبر، جذبت الرافعة، فأخذت الآلة تدور حول نفسها ثم انقلبت وقذفت بى ورأسى ـ فى المقدمة ـ إلى أجواز الفضاء.

سمعت قصفًا كصوت رعد فى أذنى. وقد أكون قد غبت عن الوعى. وأفقت على صوت صافر حاد لا يرحم من بَرَد[١١] حولى ثم أدركت أننى أجلس على كتلة من الأعشاب الكثيفة اللينة أمام الآلة المقلوبة. كان كل شىء لا يزال يظهر رمادى اللون، لكننى لاحظت الآن بأن التشوش فى أذنى كان قد تلاشى. أجلت النظر فيما حولى. كان على ما بدا لى أنه مرج صغير فى حديقة محاطة بشجيرات (الدفلى)[١٢]، ولاحظت أن أزهارها البنفسجية الزاهية والأرجوانية كانت تتساقط بكثرة تحت ضربات السيل المنهمر من البرد، كون البرد المرتد والمتراقص ما يشبه سحابة صغيرة فوق الآلة، وانسابت على الأرض كضباب. فى لحظة، تبللت ثيابى ونفذ الماء إلى جلدى.

قلت: "كرم ضيافة رائع، لرجل قطع عددًا لا يحصى من السنين ليراكم".

عندئذ، أدركت مدى بلاهتى لأننى تبللت بهذا الشكل. استويت على قدمى ونظرت حولى. لاح لى شكل هائل الحجم منحوت، على ما يبدو، من نوع من الحجر الأبيض ولكنه كان غير واضح المعالم من وراء شجيرات (الدفلى) ومن خلال الوابل الضبابى المتساقط. إلا أن أى شىء آخر من هذا العالم لم يكن مرئيًا على الإطلاق.

من الصعب أن أصف أحاسيسى فى ذلك الوقت. وبينما كانت أعمدة البرد تتساقط على نحو خفيف، رأيت الشكل الأبيض

---

(١١) كريات صلبة من الثلج (المترجم).

(١٢) شجيرات دائمة الخضرة ذات عناقيد زهرية متعددة الألوان (المترجم).

بوضوح أكثر. كان بالغ الضخامة. حتى إن شجرة (بتولا)[١٢] فضية طويلة لم تمس إلا كتفه. كان من رخام أبيض، شكله شبيه بأبى الهول المجنح، لكن جناحيه، بدلاً من أن يكونا متخذين وضعًا عموديًا على جانبيه، كانا مبسوطين على سعتهما إلى حد أن التمثال بدا أنه على وشك التحليق! ظهر لى أن قاعدة التمثال كانت مصنوعة من البرونز، ومكسوة بالصدأ الأخضر الكثيف. واتفق أن كان وجهه فى اتجاهى، فبدت عيناه الحجريتان فاقدتى البصر تحدقان فىّ، وراودنى إحساس بأن ثمة ظل ابتسامة شاحبة على شفتيه! كان متأثرًا بالعوامل الجوية كثيرًا، فنقل ذلك إلىّ إيحاء بغيضًا بأنه مصاب بمرض ما. وقفت أحدق فيه لبعض الوقت، ربما نصف دقيقة أو نصف ساعة. بدا لى أنه يتقدم تارة ويتراجع تارة أخرى بينما البرد ينهمر أمامه أحيانًا كثيفًا أو أحيانًا أخرى رقيقًا. أخيرًا أبعدت ناظرى عنه للحظة، فرأيت أن ستار البرد خف حتى أصبح كالثوب المهترئ، وأن السماء أخذت تسطع مبشرة بطلوع الشمس.

رفعت نظرى من جديد إلى التمثال الأبيض الضخم الجاثم، وتراءى لى - على نحو مفاجئ - التهور الكامل لرحلتى فى الزمن. ما الذى قد يظهر حين ينسحب ذلك الستار الضبابى كله؟ ما الذى لم يحدث للجنس البشرى؟ ماذا سوف يكون عليه الحال إن أصبحت القسوة سمة عامة؟ ماذا سيحدث إن كان الجنس البشرى فى هذه الفترة قد فقد مقوماته الإنسانية، وتطور ليصبح شيئًا غير بشرى، غير متعاطف، ويمتلك قوة ساحقة؟ قد أبدو لهم حيوانًا متوحشًا من

---

(١٢) شجرة لها أفرع متهدلة تعرف بلحائها الفضى اللامع (المترجم).

عالم قديم، أو مخلوقًا مرعبًا مثيرًا للاشمئزاز بسبب تشابهنا المشترك ,مخلوقًا كريهًا عاجزًا عن ضبط النفس، يجب أن يقتل بعنف على الفور!

لاحت لعينى الأشكال الضخمة الأخرى.. مبانى هائلة الحجم بأفاريز متشابكة، وأعمدة طويلة، وغابات تكسو سفوح التلال تبدو أشجارها معتمة وتبدو كأنها سوف تنقض علىّ أثناء العاصفة التى تخف حدتها. سيطر علىّ رعب مروع، التفت محمومًا إلى آلة الزمن، واجتهدت كى أعدلها. وبينما كنت أقوم بهذا، اخترقت أشعة الشمس العاصفة الرعدية.

انزاح وابل المطر الرمادى جانبًا واختفى كأردية شبح تسحب على الأرض فى غير اتساق. ومن فوقى، فى سماء الصيف بالغة الزرقة، تحركت بشكل دائرى وباتجاهات عشوائية نتف بنية باهتة من السحب ثم تلاشت فى العدم. قامت المبانى الضخمة حولى واضحة ومتمايزة، تلتمع من بلل العاصفة الرعدية، وبدت بلون أبيض من البرد الذى لم يذب والمكدس على جوانبها. شعرت بأننى عارى الجسم فى عالم غريب. أحسست كما قد يحس طائر فى الجو الصافى، شاعرًا بجناحى صقر فوقه وأنه سينقض عليه بحركة مفاجئة سريعة. ولم يدع لى الرعب أية فرصة للتفكير، التقطت أنفاسى بعمق، وضغطت نواجذى بفكىّ، ثم قبضت بقوة على آلة الزمن بمعصمى وركبتى. استسلمت لجهدى اليائس وتحركت ثم اعتدلت، وأثناء ذلك صدمت ذقنى بعنف.

وقفت لاهثًا بشدة وقد تقطعت أنفاسى وإحدى يدى على السرج، والأخرى على الرافعة، متخذًا وضع ركوب الآلة من جديد.

لكن، بعد هذا التراجع عن انسحاب مفاجئ، استعدت شجاعتى. نظرت إلى عالم المستقبل البعيد هذا، بفضول أعمق وبخوف أقل. ومن فتحة دائرية، ومرتفعة فى جدار أقرب مبنى، رأيت مجموعة أشباح كائنات مرتدية أردية ناعمة زاهية. وأدركت أنهم شاهدونى بلا شك، فوجوههم متجهة صوبى.

عندئذ، سمعت أصواتًا تدنو منى. كانت رءوس رجال وأكتافهم يركضون خلال الشجيرات المجاورة لأبى الهول الأبيض. ظهر للعيان أحد هذه المخلوقات فى ممر يؤدى مباشرة إلى المرج الصغير الذى كنت أقف فيه مع آلتى. كان مخلوقًا صغيرًا - ربما بطول أربعة أقدام(١٤) - يرتدى رداء طويلاً أرجوانيًا يمتد حتى الركبتين، يشده على وسطه بحزام جلدى. انتعل صندلاً أو حذاء برباط، لم أستطع تمييز أيهما، كانت ساقاه عاريتين إلى الركبتين، وكان رأسه بلا غطاء، عندئذ لاحظت لأول مرة مدى دفء الجو.

بدا لى مخلوقًا ذا جمال أخاذ رشيق الحركة، لكنه ضعيف بشكل لا يمكن وصفه. ذكرنى وجهه المحمر بالمرضى المصابين بالسل، ذلك الجمال المحموم الذى ألفنا أن نسمع عنه كثيرًا جدًا. عند رؤية هذا الشخص استعدت ثقتى بنفسى فجأة. وأبعدت يدى عن آلة الزمن.

---

(١٤) القدم نحو ٣٠ سنتيمترًا (المترجم).

وبعد دقيقة، كنا نقف وجهًا لوجه، أنا وفى مواجهتى ذلك المخلوق الهش الصغير ابن المستقبل. تقدم نحوى مباشرة وضحك فى وجهى. وأدهشنى على الفور أنه لم تبد على ملامحه أى علامة تدل على الخوف. ثم التفت إلى الشخصين الآخرين اللذين كانا يتبعانه وتحدث إليهما بلغة غريبة بالغة العذوبة والسلاسة، وأقبل آخرون، ولم تمض إلا مدة قصيرة حتى تجمعت حولى مجموعة صغيرة من ثمانية أو عشرة أشخاص من هذه المخلوقات الفاتنة. ووجه واحد منهم الحديث لى. أتى إلى ذهنى، على نحو غريب إلى حد ما، أن صوتى ـ إذا تكلمت ـ سوف يكون خشنًا وعميقًا للغاية بالنسبة إليهم. ومن ثم اكتفيت بهز رأسى مشيرًا إلى أذنى، ثم هززت رأسى من جديد. تقدم خطوة إلى الأمام وتردد، ثم لمس يدى. عندئذ أحسست بأصابع صغيرة وناعمة أخرى على ظهرى وكتفى. يبدو أنهم أرادوا التيقن من أننى شخص حقيقى. لم يكن فى هذا المسلك ما يثير الهلع. كان فى هؤلاء الناس الصغار الذين يتميزون بالرقة والجمال ما يوحى بالثقة بالفعل.. لطف وديع وطمأنينة وثقة شبه طفولية. إضافة إلى أنهم بدوا رقيقى الجانب إلى درجة أنه أمكننى أن أتخيل نفسى أرمى الاثنى عشر منهم الذين يلتفون حولى كأنهم عشر قنانى خشبية فى لعبة (البولينج)[١٥]. لكننى قمت بحركة فجائية لأحذرهم حين رأيت أيديهم الوردية الصغيرة تتحسس آلة الزمن. لحسن الحظ تذكرت آنذاك ـ وقبل أن يفوت

---

(١٥) لعبة تقوم على محاولة قلب عشرة أهداف صغيرة بدحرجة كرة كبيرة فى ممر خشبى (المترجم).

الأوان ـ خطرًا كنت قد نسيته حتى ذلك الوقت. فاندفعت إلى آلة الزمن وفككت الروافع الصغيرة التى تشغلها وتوقفها ووضعتها فى جيبى. ثم التفت نحو المخلوقات الصغيرة لأرى ما يمكننى فعله فيما يتعلق بطريقة التفاهم معهم.

وعندئذ تفحصت ملامح وجوههم بمزيد من الإمعان، بعض خصائص أخرى فى جمالهم الرقيق المتفرد الشبيه بالتماثيل الخزفية الصينية التى تصنع فى (درسدن). بلغ شعرهم، الذى كان متجعدًا بانتظام، نهاية حاسمة عند العنق، والخد، ولم يكن هناك أى أثر للشعر على الوجه، وكانت آذانهم دقيقة بشكل غريب. كانت أفواههم صغيرة، بشفاه حمراء زاهية ورقيقة إلى حد ما، بينما كانت ذقونهم الصغيرة مدببة. كانت أعينهم متسعة ولطيفة، وتصورت عندئذ بأنهم كانوا يفتقرون إلى الاهتمام بى كما كنت أتوقع، وقد يكون هذا نوعًا من الغرور من جانبى.

إذ لم يبذلوا أى جهد للاتصال بى، سوى الوقوف ببساطة ملتفين حولى مبتسمين ومتحادثين بأصوات كهديل الحمام، بدأت الحديث. أشرت إلى آلة الزمن وإلى نفسى. ثم إلى الشمس، بعد أن ترددت للحظة مفكرًا فى كيفية التعبير عن الزمن. على الفور، تابع مخلوق منهم صغير جميل على نحو غريب وفى رداء أرجوانى وأبيض عليه مربعات، إشارتى على الفور، ولدهشتى قام بتقليد صوت الرعد.

انتابنى الذهول للحظات وعلى الرغم من أن معنى إشارته كان واضحًا تمامًا. خطر السؤال فى ذهنى فجأة: هل هذه المخلوقات

حمقاء؟ لعلكم تفهمون بالكاد كيف أثّر هذا علىّ. إذ إننى توقعت أن يكون الناس فى سنة ٨٠٢٧٠١ متقدمين علينا فى المعرفة والفن وفى كل الأمور الأخرى وعلى نحو مفاجئ طرح أحدهم علىّ سؤالاً بيّن أنه - عقليًا - فى مستوى أحد أطفالنا الذين يبلغون الخامسة من عمرهم - سألنى إن كنت قد أتيت من الشمس فى عاصفة رعدية! ألغى السؤال الحكم الذى كنت قد أصدرته على ملابسهم وأعضائهم الضعيفة وملامحهم الرقيقة. شعرت بخيبة أمل فى ذهنى. فللحظة شعرت أننى شيدت آلة الزمن عبثًا.

أومأت برأسى بسرعة، وأشرت إلى الشمس، وأصدرت صوتًا مقلدًا هزيم الرعد، إلى درجة أفزعتهم. تراجعوا كلهم ما يقرب من خطوة أو يزيد إلى الخلف وانحنوا. ثم اقترب أحدهم منى ضاحكًا، حاملاً طوقًا من أزهار جميلة لم أشاهد مثلها من قبل، ووضعها حول عنقى. استقبلت الفكرة بتصفيق منغم لطيف، وفى الحال أخذوا يركضون كلهم هنا وهناك بحثًا عن الأزهار، ليقذفونى بها ضاحكين إلى أن كدت أختنق من عبيرها. ولن تستطيعوا أنتم، يا من لم تروا تلك الأزهار، أن تتصوروا مدى رقتها وجمالها الذى طورته سنوات حضارة لا تعد ولا تحصى. ثم اقترح أحدهم أن يعرض ما اكتشفوه فى أقرب مبنى، فساروا أمامى إلى ما وراء أبى الهول المقام من الرخام، والذى بدا أنه يراقبنى طيلة الوقت مبتسمًا فى سخرية من دهشتى، ثم قادونى نحو مبنى ضخم رمادى من الحجر المتآكل. وبينما كنت أسير معهم، طاف بذهنى بسخرية بالغة، ما سبق أن توقعته - واثقًا - عن أجيال قادمة تتميز بعمق الثقافة والعقلانية.

كان للمبنى مدخل عملاق، وكان المبنى كله ذا أبعاد ضخمة، وكان من الطبيعى أن أنشغل بجمهور الناس الصغار المتكاثرين، وبالأبواب الكبيرة المفتوحة التى كانت تبدو كفجوات هائلة أمامى والتى كان ما خلفها معتمًا وغامضًا. كان انطباعى العام عن العالم الذى رأيته من فوق رؤوسهم بأنه مساحة من شجيرات وأزهار متشابكة فى مساحات شاسعة، حديقة جبارة طال إهمالها وليس فيها أعشاب. رأيت عددًا من عناقيد أزهار بيضاء غريبة، قد يبلغ طولها مع امتداد بتلاتها الشمعية زهاء قدم. نمت متناثرة، كأنها أزهار برية، بين الشجيرات الملونة، لكننى لم أُعن بفحصها بدقة آنذاك، كما قلت لكم. وتركت آلة الزمن مهجورة فى المرج بين نباتات (الدفلى).

كانت فتحة الباب على شكل قوس حافل بالنقوش الوافرة، لكننى لم أتفحص طبعًا النقوش عن قرب، مع أننى تخيلت أننى رأيت دلائل تذكرنى بالزخارف (الفينيقية)[١٦] وأنا أمر من خلال الباب، وأدهشنى أن تلك الزخارف تعانى من التصدعات الشديدة العميقة، وأنها تأثرت كثيرًا بالعوامل الجوية. قابلنى المزيد من الناس يرتدون ملابس زاهية فى فتحة الباب، وهكذا دلفنا إلى المبنى وأنا ألبس رداء قذرًا يعود إلى القرن التاسع عشر، وقد بدوت غريبًا تمامًا بالأزهار المحيطة بعنقى ومحاطًا بموكب من ذوى الأردية زاهية الألوان والأجسام الرقيقة تبرز منها أعضاء بيضاء لامعة وهى تشدو بنغمات موسيقية شجية من الضحك والكلام المرح.

---

(١٦) الفينيقيون شعب قديم استقر فى شرق البحر المتوسط ذو حضارة عريقة (من عام ٢٠٠٠ إلى ١٢٠٠ قبل الميلاد) (المترجم).

كان المدخل الكبير يؤدى إلى قاعة ضخمة نسبيًا لها ستائر ذات لون بنى، وسقفها تحجبه الظلال، وسمحت النوافذ التى بعضها مغطى بالزجاج الملون، والبعض الآخر بلا زجاج، بدخول ضوء ملطف. كانت الأرضية مصنوعة من كتل ضخمة من معدن أبيض بالغ الصلابة، ليست ألواحًا أو بلاطًا، بل كتلاً، وكانت تعانى كثيرًا من التآكل، من تعدد الاستخدام غدوًا ورواحًا.. جيل فى إثر جيل مما أحدث فجوات عميقة حفرت على الطرق المطروقة ,وتناثرت فى القاعة موائد لا حصر لها مصنوعة من قطع ضخمة من الحجر المصقول ممتدة بالعرض على طول القاعة وترتفع نحو قدم واحد عن الأرضية، وعليها أكوام من الفاكهة. ميزت من بينها فاكهة كالتوت الشوكى والبرتقال حجمها كبير بطريقة غير طبيعية، لكن أغلبها كان غريبًا بالنسبة لى.

وكانت تتناثر بين هذه الموائد عدد هائل من الوسائد ، وجلس على هذه الوسائد الذين قادونى إلى هذا المكان وأخذوا يشيرون إلى أن أحذو حذوهم. وبدون مراعاة لأى تقاليد، أخذوا يأكلون الفاكهة بأيديهم، ملقين بالقشور والنوى وما شابهها فى الفتحات المستديرة التى على جوانب الموائد. ففعلت مثلهم دون تردد، فقد كنت أحس بالعطش والجوع، أثناء تناولى للفاكهة، أخذت أجول بنظرى فى القاعة على مهل.

لعل أهم ما لفت نظرى لأول وهلة مظهر المبنى المهدم. كانت النوافذ ذات الزجاج الملون التى تظهر نماذج هندسية متنوعة كالمثلثات والمربعات والدوائر، مكسورة فى أماكن عديدة، وكانت

الستائر المسدلة على الطرف السفلى كانت تتراكم عليها طبقة كثيفة من الغبار. وقد لاحظت أن زاوية طاولة الرخام من القاعة، القريبة منى كانت مكسورة. وعلى الرغم من هذا، كان الانطباع العام عن القاعة بأنها كانت فى غاية الفخامة والثراء. ربما كان هناك زهاء مائتى إنسان يتناولون الطعام فى هذه القاعة، وكان أغلبهم يجلسون فى أقرب مكان إلىّ استطاعوا الوصول إليه، وأخذوا يرمقوننى باهتمام وعيونهم الصغيرة تلمع فوق الفاكهة التى كانوا يلتهمونها وكانوا جميعهم مرتدين ملابس منسوجة من نفس نوع القماش الرقيق الحريرى والقوى.

وبالمناسبة، كانت الفاكهة هى كل ما يتناولونه كطعام. كان هؤلاء الناس من المستقبل البعيد نباتيين تمامًا، وكان يجب أن أصبح أنا أيضًا آكل فاكهة، طالما ظللت بينهم، رغم شغفى بأكل اللحوم. وجدت فيما بعد بأن الخيول والماشية والأغنام والكلاب كانت قد لحقت بالفعل بالديناصورات وانقرضت. لكن الفواكه كانت محببة للنفس إلى حد كبير، خصوصًا إحداها التى بدا أن موسمها كان فى نفس الوقت الذى قضيته هناك - فاكهة دقيقة لها قشرة خارجية بثلاثة أوجه - كانت طيبة المذاق على نحو خاص وقد جعلت منها عنصرًا غذائيًا رئيسيًا لى. وكنت فى البداية أتعجب إزاء هذه الفاكهة الغريبة والأزهار التى لم أر مثيلاً لها من قبل، ولكنى بمرور الوقت عرفت معناها فيما بعد.

وعلى كل حال، إننى أبلغكم الآن عن طعامى من الفاكهة الذى تناولته فى ذلك المستقبل القصى. بمجرد أن أشبعت شهيتى إلى

حد ما، عقدت العزم أن أقوم بمحاولة لتعلم لغة هؤلاء الناس الجدد حتى يمكننى التفاهم معهم. من الواضح أن هذا كان الأمر التالى الذى يجب أن يحظى باهتمامى. بدت الفاكهة موضوعًا مناسبًا لأبدأ به، فأخذت إحدى الثمار ورفعتها عاليًا، ورحت أطلق سلسلة من الأصوات والإيماءات التساؤلية ووجدت صعوبة كبيرة فى توصيل قصدى إلى أذهانهم. فى البداية، قوبلت جهودى بنظرات دهشة وضحك مستمر، لكن مخلوقًا أشقر الشعر صغيرًا بدا أنه أدرك مرادى على الفور، فردد اسمًا. كان عليهم أن يثرثر بعضهم ويثرثروا بتفاصيل طويلة، وقد أحدثت محاولاتى الأولى لتقليد أصوات لغتهم الدقيقة الجميلة تسلية شاملة وحقيقية وإن كانت غير مهذبة، إذ كان بها شىء من السخرية ,مع ذلك أحسست كما لو كنت مدرسًا بين أطفال، فكنت حازمًا معهم. وبعد وقت قصير عرفت نحو عشرين اسمًا على الأقل، ثم انتقلت إلى أسماء الإشارة ثم فعل "يأكل". لكن كان التقدم حثيثًا، وسرعان ما تعب القوم الصغار وأرادوا أن يتخلصوا من تساؤلاتى. فقررت أن أخضع لحكم الضرورة وأن أتركهم يلقون دروسهم علىّ فى مقادير ضئيلة عندما يشعرون بالرغبة فى ذلك. وجدت، قبل مرور وقت طويل، بأنها جرعات صغيرة للغاية، فأنا لم أقابل فى حياتى أناسًا أكثر كسلاً وتراخيًا من هؤلاء القوم ولا أسرع منهم إحساسًا بالتعب والإرهاق.

اكتشفت سريعًا صفة غريبة تتعلق بمضيفىّ الصغار، وهى مدى افتقارهم إلى الفضول. فقد كانوا يقبلون علىّ مصدرين صيحات دهشة متشوقة، كالأطفال، لكنهم سرعان ما يتوقفون عن فحصى ويذهبون بعيدًا وراء لعبة أخرى. وبعد العشاء وانتهاء الدروس

الأولى فى اللغة، لاحظت لأول مرة أن معظم أولئك الذين كانوا يحيطون بى فى البداية قد انصرفوا عنى. ومن الغريب أننى سرعان ما فقدت الاهتمام بهؤلاء الصغار. خرجت من باب القاعة إلى العالم المغمور بضوء الشمس من جديد بمجرد أن سددت رمقى. كنت أقابل باستمرار المزيد من رجال المستقبل الصغار هؤلاء، الذين كانوا يقتفون أثرى إلى مسافة قصيرة، فيثرثرون ويتضاحكون من حولى، ثم يتركوننى من جديد لشأنى بعد أن يكونوا قد ابتسموا لى وأشاروا إلىّ بطريقة حميمية.

شمل هدوء المساء العالم وعندما خرجت من القاعة الكبرى، كان المشهد مضاء بوهج دافىء للشمس الغاربة. فى البداية كانت الأمور محيرة إلى حد كبير. كان كل شىء متباينًا تمامًا عن العالم الذى عرفته ،حتى الأزهار ،كان المبنى الذى غادرته مشيدًا على منحدر وادى نهر عريض، لكن نهر (التايمز) كان قد اتخذ موقعًا جديدًا، على ما أظن، على مسافة ميل من موضعه الحالى. قررت أن أصعد إلى قمة تل على ارتفاع نحو ميل ونصف الميل، ومن ثم يمكننى أن أشاهد منها منظرًا أشمل من كوكبنا هذا فى سنة ٨٠٢ ، ٧٠١ بعد الميلاد. ولكى أوضح لكم كان هذا التاريخ هو الذى سجلته عقارب الأقراص المدرجة الصغيرة فى آلة الزمن.

وبينما كنت أسير، أخذت أرقب كل دليل يمكن أن يساعدنى على تفسير تلك الحالة المتقوضة التى تفسد فخامة هذا العالم، فعلى سبيل المثال بعد صعودى إلى أعلى التل، وجدت كومة كبيرة من الجرانيت، مربوطة معًا بأحزمة من الألومنيوم، ومتاهة واسعة من الجدران المتقوضة شديدة التحدر وكتلاً منهارة تنمو بينها نباتات

كثيفة رائعة الجمال، لها شكل شبيه بمعبد (باجودا)[١٧] ربما يكون نبات (القريص)[١٨]، لكن أوراقه مزركشة بلون بنى ولا يسبب الوخز. كان من الواضح أن هذه الأخرية هى البقايا المهجورة لبناء ضخم، ولم أستطع أن أتبين لأى غرض أقيم هذا المبنى. وبين هذه الأطلال بالتحديد، مررت بتجربة غريبة للغاية قادتنى لأول اكتشاف جوهرى أكثر غرابة، لكننى سأتحدث عن هذا الأمر فى وقته المناسب.

وتطلعت حولى من مصطبة استرحت فيها لبعض الوقت، أدركت فجأة أننى لم أجد أى أثر لبيوت صغيرة فى جميع الاتجاهات. من الواضح أن البيت المفرد، وربما حتى البيت العائلى، كان قد اختفى. وتناثرت هنا وهناك وبين النباتات الخضراء المبانى الشبيهة بالقصور، لكن البيت الصغير والكوخ، اللذين يكونان الصفات الفارقة لمشاهدنا الطبيعية الإنجليزية، كانا قد تلاشيا.

قلت لنفسى: "شيوعية".

فى أعقاب ذلك، خطرت لى فكرة أخرى. نظرت إلى الأشخاص الستة الصغار الذين كانوا يتبعون خطواتى آنذاك. ثم اتقدت فى ذهنى فكرة، إذ وجدتهم يرتدون نفس نوع الملابس، وأن لهم نفس الوجوه الناعمة الخالية من الشعر. ونفس استدارة الأطراف الأنثوية الرخوة. قد يبدو غريبًا أننى لم ألحظ ذلك من قبل. لكن كل شىء كان - فى هذه اللحظات - يثير الغرابة البالغة، ها أنا أدرك الحقيقة

---

(١٧) معبد فى الشرق الأقصى وخاصة معبدًا بوذيًا (المترجم).

(١٨) نبات ذو وبر خشن (المترجم).

بوضوح كاف. كان قوم المستقبل هؤلاء متشابهين ـ رجالاً ونساء ـ فى الزى وفى كل اختلافات السمات والمظهر والسلوك الذى يميز ما بين الجنسين. وبدا لعينى أن الأطفال كانوا مجرد نماذج مصغرة عن آبائهم. عندئذ، أدركت أن أطفال ذلك الزمان كانوا يتميزون بالنضوج المبكر غير الاعتيادى، جسمانيًا على الأقل، ووجدت فيما بعد أدلة متعددة تؤكد هذا.

شعرت، وأنا أرى الطمأنينة وخلو البال والأمان الذى يعيش فيه قوم المستقبل هؤلاء، وفى هذه الظروف كان التشابه الكبير بين الجنسين متوقعًا، فقوة الرجل وشدة بأسه ورقة ونعومة المرأة، وإقامة أسرة والتباين فى المهن بين الرجال والنساء، هى مجرد ضروريات نضالية لعصر القوة الجسمانية. حيث يكون عدد السكان متوازنًا ووفيرًا، فإن إنجاب الأطفال يصبح نقمة أكثر منه نعمة للدولة؛ حيث يندر العنف وتكون الذرية آمنة ويصبح وجود أسر أقل ضرورة ,بل حقًا لن تكون ثمة ضرورة لوجود أسرة مؤثرة وفعالة، ويختفى تخصص الجنسين لإشباع حاجات أطفالهما. نحن نرى بعض بدايات ذلك، حتى فى زمننا الراهن، ولكنه بلغ حد الكمال فى عصر المستقبل. كان هذا، كما ينبغى أن أذكركم، هو ما كان يجول بخاطرى فى ذلك الوقت. وتبينت فيما بعد، كم كانت أفكارى تلك بعيدة عن الواقع.

بينما كنت مستغرقًا فى التفكير والتأمل بهذه الأمور، استرعى انتباهى بناء جميل صغير، يشبه البئر المقامة تحت قبة. تعجبت فى نفسى لحظيًا من غرابة أن تكون الآبار لا تزال موجودة، ثم سرت فى طريقى أستكشف أمورًا أخرى. لم تكن ثمة مبان ضخمة فى

اتجاه قمة التل، ولأن خطواتى كانت واسعة للغاية، بالنسبة لناس المستقبل. فقد تركونى وحيدًا للمرة الأولى وأحسست بشعور غريب من التمتع بالحرية والرغبة فى المغامرة، فاندفعت صاعدًا إلى قمة التل.

عند قمة التل وجدت مقعدًا من معدن أصفر لم أتعرف على طبيعته، متآكلاً فى مواضع منه بنوع غريب من صدأ مائل إلى اللون الوردى، ونصفه مكسو بطحالب ناعمة، وقد صب وبُرد مسنداه فى قالب شبيه برءوس (الجريفين)[١٩]. جلست على المقعد، وأمعنت النظر فى المشهد الفسيح المكشوف لعالمنا القديم فى ضوء أشعة الشمس الغاربة فى ذلك اليوم الطويل. كان المشهد من أجمل وأروع ما رأيت فى حياتى. كانت الشمس قد هبطت إلى أسفل الأفق والغرب يتوهج بلون الذهب الشاحب، تمسه بعض الأشعة الأفقية باللونين الأرجوانى والقرمزى. فى الأسفل من تحت أقدامى يترامى وادى (التايمز) الذى يجرى فيه النهر كشريط فولاذ مصقول. كنت قد ذكرت لكم من قبل عن القصور الضخمة المتناثرة فى كل مكان بين النباتات متباينة الألوان، وكان بعض هذه القصور متقوضًا وبعضها الآخر لا يزال مأهولاً بالسكان. انتصب فى أماكن متفرقة شكل أبيض أو فضى فى حدائق الأرض القفر، وبرز هنا وهناك تركيب عمودى حاد لعله لقبة أو مسلة. لم تكن ثمة أسيجة نباتية من شجيرات، تحدد حقوق الملكية، ولا دلائل على قيام زراعة، لقد تحولت الأرض كلها إلى حديقة.

---

(١٩) حيوان خرافى برأس وجناحى نسر وجسد أسد (المترجم).

جلست على المقعد، أحاول أن أوجد تفسيرًا للأشياء التى شاهدتها، وكما ظهرت لى فى ذلك المساء، كان تفسيرى ينحصر فيما ذكرت)، وأدركت بعد ذلك أننى اهتديت إلى نصف الحقيقة فحسب أو إلى لمحة من أحد جوانب الحقيقة).

بدا لى أننى جئت بالمصادفة إلى الأرض، فى الزمن الذى أفلت واضمحلت فيه البشرية. حملنى غروب الشمس المحمر على التفكير فى غروب الجنس البشرى. فللمرة الأولى، بدأت أدرك نتيجة غريبة للجهد الاجتماعى الذى نبذله فى وقتنا هذا. إذ حين نفكر فى نتائج هذه الجهود، نرى أن ما حدث فى هذا المستقبل هو منطقى تمامًا!

القوة تتحقق بالحاجة إليها. والأمن يدفع إلى الضعف. لقد انطلقت عملية تحسين ظروف الحياة.. عملية التحضر الحقيقية التى تجعل الحياة أكثر يسرًا وسهولة، واستمر عملها حتى وصلت إلى الذروة. وتحقق نصر تلو الآخر للبشرية المتحدة على الطبيعة. الأمور التى كانت مجرد أضغاث أحلام أصبحت حقائق توضع فى متناول اليد وتنفذ بالمداد. وكان ما أراه الآن.. هو الحصاد!

بعد كل هذا، الصحة والزراعة فى هذه الأيام لا تزالان فى المرحلة الأولية. والعلم فى زماننا لم يهاجم حتى الآن سوى قسم صغير من مجال المرض البشرى، لكن وفضلاً عن ذلك، إنه ينشر عملياته بثبات ومثابرة كاملين. إننا ندمر فى مزارعنا وحدائقنا عشبًا هنا وعشبًا هناك وربما نزرع حوالى عشرين نبتة جديدة مفيدة، تاركين الجزء الأكبر يكافح ليعيش أو ليموت، ومن ثم نحقق توازنًا بقدر الإمكان. نحن نحسن نباتاتنا وحيواناتنا المفضلة ـ وكم

هى قليلة العدد - تدريجيًا بعملية "الانتخاب الطبيعى"[٢٠]، الآن خوخ متطور وأفضل وعنب بلا بذور، وزهرة أجمل وأكبر، ونسل ماشية أكثر مواءمة. نحن نقوم بتحسين هذه الأشياء تدريجيًا، لأن أهدافنا غامضة وتجريبية، ومعرفتنا ضئيلة، ولأن الطبيعة أيضًا لا تفصح عن مكنونها بين أيدينا الخرقاء غير الماهرة. ولكن ذات يوم سوف تنظم كل هذه الجهود وتتطور. ذلك هو انسياق التيار على الرغم مما يعترضه من دوامات. سيصبح العالم كله ذكيًا ومثقفًا، ومتعاونًا، ستتدفع الأمور أسرع فأسرع نحو النصر لقهر الطبيعة. فى النهاية، سنعيد تعديل توازن حياة النبات والحيوان بحكمة وعناية حتى تناسب ضرورياتنا البشرية.

لا بد أن يكون هذا التعديل قد تم على أفضل وجه، تحقق بالفعل خلال تلك السنوات العديدة الذى قفزت آلتى عبرها. كان الهواء نقيًا دون الحشرات الطائرة المؤذية، لم تعد تنمو الأعشاب الضارة أو الفطريات فى الأرض، وازدهرت الفواكه والأزهار - المحببة للنفس والتى تبعث على المسرة - فى كل مكان، وطارت الفراشات البراقة هنا وهناك. وتوصل الإنسان إلى ابتكار الدواء الوقائى المثالى. إن الأمراض التى نعرفها لم يعد لها وجود، فلم أر دليلاً على وجود أمراض معدية خلال مدة إقامتى. وعلىّ أن أذكر لكم فيما بعد أنه حتى عمليات الفساد والتحلل قد تأثرت بعمق بهذه التغييرات.

وقد تحققت انتصارات اجتماعية أيضًا. رأيت الجنس البشرى يقطن فى مبان رائعة، ويرتدى ملابس أنيقة، لكننى إلى الآن لم

---

(٢٠) أساس نظرية داروين فى عملية التطور العضوى (المترجم).

أجدهم يقومون بأى عمل شاق. لم يكن ثمة علامات على حدوث صراع، لا صراع اجتماعى ولا اقتصادى. المتاجر والدعاية وحركة البيع والشراء وكل أنواع التجارة التى تمثل إطارًا لعالمنا، اختفت. كان من الطبيعى فى ذلك المساء الذهبى أن يتبادر إلى ذهنى فكرة تحقيق الفردوس الاجتماعى. لقد تم التغلب على مشكلة تزايد السكان، على ما أظن، وتوقف عدد السكان عن النمو.

أدى التغير فى هذه الظروف إلى حدوث تلاؤمات لا مرد لها. ما هو سبب الذكاء والطاقة والنشاط البشرى الجسدى والعقلى إلا إذا كان علم البيولوجيا مجموعة من الأخطاء؟ المعاناة والحرية ,تلك الظروف التى يبقى فيها النشيط والقوى والذكى على قيد الحياة بينما يفنى الضعيف، وظروف تشجع على التحالف المخلص للبشر المؤهلين جسميًا وعقليًا على ضبط النفس والصبر والإصرار. وإقامة الأسرة والعواطف التى تنشأ فيها: الغيرة العنيفة والرقة نحو الذرية والتكريس الذاتى الأبوى، يجد كل هذا ما يبرره ويدعمه أمام أخطار وشيكة الحدوث تواجه الصغار، الآن، أين هذه الأخطار وشيكة الحدوث؟ ثمة عاطفة ظهرت للوجود، وهى التى سوف تنمو، ضد الغيرة الزوجية، ضد الأمومة العنيفة، ضد كل عاطفة قوية من أى نوع، وهى أمور غير ضرورية الآن ولكنها أمور تقلقنا وتزعجنا وبقايا همجية وعدم اتساق فى حياة بهيجة رائعة.

فكرت فى هؤلاء الناس بأجسامهم الضئيلة، وافتقارهم إلى الذكاء وتلك الآثار المتقوضة المتناثرة، فعزز هذا كله إيمانى بأن الإنسان حقق النصر على الطبيعة. فبعد المعركة يسود الهدوء. ظلت البشرية قوية وتمتلك طاقة هائلة، وذكية، وقد استخدمت كل هذه

الحيوية الوفيرة لتغيير ظروف الحياة التى نعيش فيها. وجاء الآن رد فعل الظروف التى تم تغييرها.

فى ظل هذه الظروف الجديدة من الراحة والأمان الكاملين، سوف تصبح تلك الطاقة التى لا تنقطع، التى هى قوة بداخلنا، ضعفًا. حتى فى زمننا هذا، أصبحت نزعات ورغبات، كانت ضرورية للحياة من قبل، مصدرًا دائمًا لفشلنا. إن الشجاعة الجسدية وحب خوض المعارك مثلاً، لا يساعد كثيرًا ـ بل وقد يكون سببًا فى إعاقة رجل متحضر ـ وفى حالة وجود توازن جسدى وأمان، ستكون القوة العقلية إضافة إلى القوة الجسدية فى غير موضعها. أعتقد أنه لسنين لا تحصى ولا تعد، لم تكن هناك أى خشية من حرب أو عنف فردى، لا خطر من وحوش برية مفترسة، ولا من مرض عضال يتطلب أن يكون الجسم قويًا ليقاومه، ولا حاجة إلى عمل شاق. ففى حياة كهذه، سيكون من ندعوهم بالضعفاء أشخاصًا مزودين بالمتطلبات المتعلقة بحسن الأداء مثل الأقوياء، ومن ثم فهم لم يعودوا ضعفاء بالفعل. بل إنهم حقًا محصنون تحصينًا أفضل من الأقوياء، فالأقوياء سيكونون مقيدين بطاقة متأججة ليس لها مخرج. ومما لا شك فيه أن جمال المبانى وروعة تصميمها الذى شاهدته كان نتاج الاندفاع الهائل الأخير لطاقة الجنس البشرى التى صارت بلا هدف، قبل أن يستقر هذا الجنس البشرى فى ألفة تامة مع الظروف التى سادت وعاش فى كنفها تعاظم هذا النصر الذى ميز بداية السلام العظيم الأخير. ظل هذا مصير الطاقة فى ظروف الأمن، فالتفت الجنس البشرى إلى الفن وممارسة الحب، ثم حل بعد ذلك تراخ وانحلال.

حتى هذا الزخم الفنى كان سيخمد فى النهاية، وكان قد خمد بالفعل فى الزمان الذى شاهدته. كان كل ما بقى من المشاعر الفنية لديهم هو زخرفة أنفسهم بالأزهار. والرقص والغناء فى ضوء الشمس، ولا شىء غير هذا، حتى ذلك سوف يخبو فى نهاية الأمر إلى خمول وسكينة. إن الألم والضرورة يبقيان الإنسان ذكيًا وقويًا، كما يسن حجر الشحذ السكين، ولكن ظهر أن حجر الشحذ البغيض تحطم هنا فى النهاية!

اعتقدت بينما كنت أقف هناك فى الظلام المتراكم، أننى بهذا التفسير البسيط كنت قد أدركت تمامًا مشكلة العالم.. فهمت فهمًا كاملاً سر هؤلاء الناس الودودين. من المحتمل أن توصلهم إلى تحديد النسل كان قد نجح أكثر من اللازم، فانخفضت أعدادهم بدلاً من أن تبقى ثابتة. وذلك يفسر وجود المبانى المتقوضة المهجورة. كان تفسيرى بسيطًا للغاية، ومعقولاً أيضًا كأغلب النظريات الخاطئة!

- ٥ -

بينما كنت أقف هناك مستغرقًا فى التفكير ومتأملاً نصر الإنسان الكامل، بزغ القمر المكتمل (البدر) أصفر اللون جزئى الإضاءة، خارجًا من فيض من النور الفضى فى الاتجاه الشمالى الشرقى.

وانقطع الناس الصغار الذين تنعكس عليهم أشعة القمر فيبدون لامعين عن الحركة ذهابًا وإيابًا من مكان إلى آخر، عند سفح التل،

وطارت بومة بسرعة وخفة دون أن تصدر عنها أية ضجة، وارتعدت أوصالى من برودة الليل. قررت أن أهبط التل وأبحث عن مكان لأنام فيه.

رحت أدقق النظر لأجد المبنى الذى رأيته من قبل. عندئذ اتجهت عيناى إلى الأمام نحو تمثال أبى الهول الأبيض المشيد على القاعدة البرونزية، وقد بدت معالمه أكثر وضوحًا وضوء القمر الصاعد يزداد سطوعًا. رأيت شجرة (البتولا) الفضية أمامه. كما بدت شجيرات (الدفلى) المتشابكة قائمة فى الضوء الشاحب، كان هناك أيضًا المرج الصغير. نظرت إليه من جديد. أصاب شعورى بالرضا الذاتى شك غريب. قلت بقوة لنفسى: "لا، لم يكن ذلك هو المرج الذى عرفته".

لكنه كان المرج نفسه. فوجه أبى الهول الأبيض المشوه بفعل تأثيرات العوامل الجوية كان متجهًا نحوه. هل يمكنكم أن تتخيلوا أثر هذا اليقين فى نفسى؟ لا لن تتمكنوا أن تتخيلوا هذا الأثر، لقد اختفت آلة الزمن!

روعت على الفور، وكضربة سوط على وجهى، لفكرة ضياع العودة إلى زمنى الذى أنتمى له. فى أن أترك بلا حول ولا قوة فى هذا العالم المستقبلى الغريب. كان التفكير المجرد بهذا إحساسًا ماديًا حقيقيًا. شعرت به يتجسد ويقبض علىّ من حنجرتى ويوقف تنفسى. عندئذ، سيطر علىّ شعور بالخوف، فركضت بخطوات واسعة سريعة قافزًا وهابطًا المنحدر. وسقطت على الأرض ورأسى إلى أمام، وجُرح وجهى، لم أنتظر كى أوقف نزيف الدم حتى

لا أضيع الوقت، بل وثبت قائمًا وركضت إلى الأمام وقطرات الدم تتساقط وتنساب دافئة على خدى وذقنى. أخذت أردد لنفسى طيلة الوقت الذى استغرقته وأنا أركض: "لقد حركوها قليلاً، دفعوها إلى تحت الشجيرات بعيدًا لإفساح الطريق". مع ذلك ركضت بكل قوتى. طيلة الوقت، تأتينى الحقيقة أحيانًا بخوف مروع، عرفت غريزيًا أن مثل هذا الاطمئنان كان جهالة.

عرفت غريزيًا أن الآلة أُبعدت عن متناول يدى. رحت أتنفس بصعوبة، مما سبب لى ألمًا. أظن أننى قطعت المسافة كلها من قمة التل إلى المرج الصغير، التى تبلغ نحو ميلين فى عشر دقائق. على الرغم من أننى لست شابًا. تلفظت بالشتائم والسباب بصوت عال، وأنا أركض، على الغلطة الفظيعة لتركى الآلة، مضيعًا أنفاسًا مفيدة بسبابى هذا. ناديت بصوت مرتفع، لكن أحدًا لم يجب. لم يظهر مخلوق واحد متحرك فى ذلك العالم الذى يغمره ضوء القمر.

حين وصلت إلى المرج، تحققت أسوأ مخاوفى. لم يكن هناك أى أثر لآلة الزمن. أحسست بالبرد وأننى خائر القوى حين واجهت الفضاء الخالى بين تشابك الشجيرات القاتمة. ركضت فى ذلك المكان بهياج، كأن الآلة قد تكون مخبأة فى أحد الأركان، ثم توقفت على نحو مفاجئ، ويداى تشدان شعرى من الحنق، ومن فوقى انتصب تمثال أبى الهول على القاعدة البرونزية، أبيض، لامعًا، مشوه الوجه فى ضوء القمر الصاعد. بدا أنه يبتسم ساخرًا من عجزى. حاولت أن أهدئ من روعى بتخيلى أن الناس الصغار قد وضعوا الآلة فى مخبأ ما من أجلى، ولكنى لم أكن متأكدًا من قدراتهم الجسمانية والعقلية للقيام بهذا. ذلك ما روعنى : إحساس

بوجود قوة ما ـ لم أشك حتى هذه اللحظة بوجودها من قبل ـ تسببت فى اختفاء آلة الزمن!

لكننى كنت واثقًا من أمر واحد: لا يمكن أن تكون آلتى قد انطلقت من جديد فى الزمن، إلا إذا أنتج عصر آخر صورة طبق الأصل منها. كما أن تثبيت الرافعتين فى آلة الزمن ـ وسوف أعرض عليكم الطريقة فيما بعد ـ كان يمنع أى شخص من العبث بها بتلك الطريقة إذا انتزعا عنها. لقد نُقلت وخُبئت فى المكان فقط. لكن، أين يمكن أن توجد؟

أظن أننى لا بد قد أصبت بنوع من الهياج العقلى العنيف فأخذت أركض ركضًا عنيفًا، داخلاً وخارجًا من بين الشجيرات المحيطة تمامًا بتمثال أبى الهول، فأفزعت حيوانًا أبيض ظننته، فى الضوء الخافت، غزالاً صغيرًا. وأذكر أيضًا أننى، فى ساعة متأخرة من تلك الليلة، أخذت أضرب الشجيرات بقبضتى المطبقتين بإحكام إلى أن انحبس الدم فى مفاصل أصابعى ونزف منها على الأغصان المكسورة. ثم، وأنا أنتحب وأهذى وعقلى مفعم بالعذاب، هبطت نحو المبنى الحجرى الضخم. كانت القاعة الكبيرة مظلمة وصامتة ومهجورة. تسللت على الأرضية غير الممهدة، واصطدمت بإحدى الموائد الصخرية، وكدت أكسر قصبة ساقى. أشعلت عود ثقاب وسرت مارًا بالستائر المغبرة التى أخبرتكم عنها من قبل.

هناك ألفيت قاعة كبيرة أخرى مغطاة بالوسائد التى ربما كان ينام عليها حوالى عشرين شخصًا من القوم الصغار. لم يساورنى شك بأنهم وجدوا ظهورى الثانى بالغ الغرابة، باندفاعى فجأة

خارجًا من بين طيات الظلام الهادئ بأصوات غير مفهومة لهم ومع توهج متقطع لعود الثقاب. إذ إنهم كانوا قد نسوا كل شيء عن أعواد الثقاب. بدأت، صارخًا كطفل غاضب، واضعًا يدى عليهم لأجذبهم لينهضوا من نومهم: "أين آلة الزمن؟" لابد أن هذا كان أمرًا بالغ الغرابة بالنسبة إليهم. فضحك بعضهم وبدا أغلبهم مذعورين إلى حد كبير.

حين شاهدتهم يقفون حولى حائرين، أدركت أن ما قمت به هو أشد الأمور حمقًا فى هذه الظروف، وذلك بمحاولتى استعادة الإحساس بالخوف لديهم. فقد رأيت، بتحليل سلوكهم أثناء النهار تحليلاً عقلانيًا، أنهم لا بد قد نسوا الخوف.

فجأة، ألقيت بعود الثقاب على الأرض، ثم مشيت باضطراب عبر قاعة الطعام الكبيرة من جديد بعد أن صدمت أحدهم وطرحته أرضًا أثناء سيرى السريع وخرجت إلى الخلاء وتحت ضوء القمر. سمعت صيحاتهم المذعورة ووقع أقدامهم الصغيرة وهم يركضون متعثرين فى كل الاتجاهات. لا أذكر بالتحديد كل ما فعلته والقمر يزحف صاعدًا السماء. أظن أن جسامة خسارتى التى لم أتوقعها هى التى أصابتنى بالجنون. أحسست بيأس بأننى انفصلت عن جنسى البشرى، وأصبحت مجرد حيوان غريب فى عالم مجهول! لابد أننى ركضت فى جنون مندفعًا إلى الأمام وإلى الخلف، صارخًا وباكيًا ومبتهلاً إلى الله وموجهًا اتهامًا للقضاء والقدر، وبينما كان ليل اليأس الطويل ينقضى، انطبعت فى ذهنى ذكرى إرهاق شديد من البحث فى هذا المكان أو ذاك، ومن تحسس طريقى بين الأطلال المغمورة بضوء القمر، ومن لمس مخلوقات

غريبة فى الظلال السوداء، ومن الاضطجاع أخيرًا على الأرض قرب تمثال أبى الهول، ومن البكاء بحزن وانكسار بالغين، وحتى بغضب، على حماقة التخلى عن آلتى، التى ضاعت وفيها سر قوتى كلها. لم يبق لدىّ سوى الشقاء والعجز والتعاسة، ثم رحت فى سبات عميق واستيقظت فى وضح النهار، وكانت بضع عصافير (السنونو) تتقافز حولى على الأرض العشبية الكثيفة على قيد ذراع منى.

جلست فى نسيم الصباح المنعش، محاولاً أن أسترجع فى ذهنى كيف وصلت إلى هنا، ولماذا أشعر بهذا الإحساس العميق من الوحشة واليأس. ثم راحت الأمور تتضح فى عقلى. فى ضوء النهار الساطع والمشرق، يمكننى أن أواجه ظروفى بشكل سافر. فاتضح لى مدى حماقة سلوكى الجنونى فى الليلة الماضية، مما أمكننى أن أفكر فى الأمر بشكل منطقى. قلت: لنفرض أسوأ الاحتمالات؟ لنفرض أن الآلة قد فقدت تمامًا، ربما تحطمت؟ مع هذا ينبغى علىّ أن أتحلى بالهدوء والصبر، وأن أتعلم كيف يتصرف هؤلاء القوم، أن أتوصل إلى فكرة واضحة عن كيفية ضياع آلة الزمن، وعن وسيلة الحصول على المواد والأدوات حتى يمكننى أن أصنع، فى نهاية الأمر آلة زمن أخرى. ذلك سيكون أملى الوحيد، ربما يكون مجرد بصيص أمل، لكنه أفضل كثيرًا من اليأس. ثم إن هذا العالم جميل وطريف ويثير الفضول.

لكن، ربما كانت الآلة قد أخفيت فى مكان مجهول. مع هذا يجب أن أظل هادئًا وصبورًا، أبحث عن مخبئها وأسترجعها بالقوة أو بالحيلة. وعند ذلك زحفت ثم نهضت واقفًا على قدمى. ورحت أنظر حولى، متسائلاً أين يمكننى أن أستحم. فقد كنت متعبًا ومتصلب

الأعضاء، ومغطى بغبار السفر خلال الزمن. وأغرانى انتعاش الصباح على أن أرغب فى أن أكون فى انتعاش مماثل له. عندئذ، توقف انفعالى المتأجج. وقد وجدت نفسى بالفعل، وأنا أقوم بالتحرك هنا وهناك، أتعجب من انفعالاتى الشديدة التى انتابتنى طوال الليل.

رحت أتفحص بإمعان سطح الأرض حول المرج الصغير. ضيعت بعض الوقت فى استفسارات طرحتها على هؤلاء الناس الصغار الذين كانوا يمرون بى دون أن أحصل على أية إجابات. فشلوا كلهم فى فهم إشاراتى ،البعض منهم كان ببساطة متبلد الحس، وظن آخرون بأنها مداعبة، فأخذوا يضحكون منى. بذلت أقصى جهد فى العالم لكى أبعد يدى عن الانقضاض على وجوههم الجميلة الضاحكة. كانت هذه رغبة مفاجئة حمقاء، لكن كان من الصعب كبح جماح الشيطان الذى ولده الخوف، والغضب الأعمى فى داخلى كان لا يزال تواقًا للاستفادة من ارتباكى وحيرتى. أعطتنى أعشاب النجيل حلاً أفضل. إذ وجدت أخاديد وخطوطًا غائرة محفورًا فيها، عند حوالى منتصف المسافة بين قاعدة أبى الهول وآثار أقدامى عندما حاولت جاهدًا عند وصولى أن أعدل الآلة المقلوبة. كانت هناك علامات أخرى فى المكان تدل على جر الآلة، مع آثار أقدام غريبة ضيقة، تشبه آثار أقدام حيوان (الكسلان)[٢١]. وجه هذا انتباهى المدقق نحو قاعدة التمثال. كانت مصنوعة من البرونز، كما قلت ذلك من قبل. لم تكن مجرد كتلة صماء، بل ألواحًا ذات إطارات ومزدانة بوفرة على كلا جانبيها. اتجهت إليها وطرقت على هذه

---

(٢١) حيوان ثديى يسكن الأشجار له مخالب طويلة شبيهة بالخطاف (المترجم).

الألواح. كانت القاعدة مفرغة من الداخل. بعد فحص الألواح الجانبية بدقة، وجدتها غير متصلة بهذه الإطارات. لم يكن ثمة مقابض أو فتحات مفاتيح، لكن ربما كانت الألواح تفتح من الداخل، إذا كانت لها أبواب حقًا كما افترضت. أمر واحد أصبح واضحًا فى عقلى. لم يتطلب الأمر أى عناء ذهنى كبير للاستنتاج بأن آلة زمنى كانت داخل تلك القاعدة المجوفة. لكن، لا أدرى كيف أدخلوها إلى هناك، ذلك كان لغزًا آخر.

رأيت رأسى شخصين من الناس الصغار فى رداء برتقالى قادمين نحوى وهما يخرجان من بين بعض الشجيرات ويسيران تحت عدة أشجار تفاح مزدهرة. التفت إليهما مبتسمًا، وأشرت إليهما بالاقتراب منى. فاقتربا ثم حاولت وأنا أشير ـ على حين غرة ـ إلى القاعدة البرونزية أن أبدى لهما رغبتى فى أن أفتحها، لكن سلوكهما أصبح بالغ الغرابة عند أول إشارة منى للقيام بهذا. لا أدرى كيف أصف لكم التعبيرات التى ارتسمت على وجهيهما. لنفرض أنكم أشرتم إشارة بذيئة لسيدة مهذبة.. هكذا يكون رد فعلها. ابتعدا ثم اختفيا كأنهما تلقيا أقصى إهانة ممكنة. كررت نفس الشىء مع شاب صغير جميل المظهر فى رداء أبيض وحصلت على نفس النتيجة. أشعرنى سلوكه بالخجل من نفسى بطريقة ما. لكننى ـ كما تعرفون ـ كنت أريد آلة الزمن، فكررت محاولتى معه من جديد. وما إن استدار ليفر كالآخرين، حتى أحسست بالحنق الشديد. فلحقت به بثلاث خطوات، وأمسكت به من ياقة رقبته، وأخذت أدفعه بالقوة نحو تمثال أبى الهول. رأيت حينئذ أشد ملامح الرعب والاشمئزاز على وجهه، وبغتة تركته يهرب.

لكننى لم أفقد الأمل. أخذت أدق بقبضتى على الألواح البرونزية. ظننت أننى سمعت شيئًا يتحرك فى الداخل ـ ولأكون أكثر دقة، ظننت أننى سمعت ضحكة ساخرة ـ لكننى لا بد أننى كنت مخطئًا. ثم أحضرت حجرًا كبيرًا من شاطىء النهر، واقتربت من قاعدة التمثال وأخذت أقرع بها حتى أحدثت ثقبًا فى النقوش تساقط منه تراب الصدأ ثم تناثر. لابد أن الناس الصغار الذين يتميزون بالرقة كانوا قد سمعونى أطرق القاعدة بنوبات هيجان مفاجىء من على بعد ميل من كلا جانبى، لكن الطرق لم يؤد إلى أية نتيجة. رأيت حشدًا منهم على المنحدرات البعيدة، يختلسون النظر إلىّ خفية. أخيرًا، جلست أراقب المكان، وأنا أشعر بالحرارة وقد تملكنى التعب. لكننى كنت أكثر قلقًا من أن أقوم بالمراقبة لمدة طويلة، فأنا غربىّ الطباع إلى حد كبير لا تسمح لى تربيتى بالترقب لأمد طويل. إننى لا أسأم أن أعمل بمشكلة لسنوات، أما أن أنتظر دون أن أحرك ساكنًا مدة أربع وعشرين ساعة، فذلك أمر لا أطيقه.

نهضت بعد فترة من الوقت، وأخذت أسير بلا هدف بين الشجيرات فى اتجاه التل من جديد. قلت لنفسى: "إذا أردت أن تحصل على آلتك ثانية فيجب أن تترك أبا الهول وشأنه. فإن هم قصدوا أن يستولوا على آلتك ويبعدوها، فلن يفيدك شيئًا أن تحطم أبوابهم البرونزية، وإن هم لم يقصدوا ذلك، فسوف تسترجعها بمجرد طلبها. أن تواجه كل تلك الأمور المجهولة، أمام ألغاز مثل هذه، لهو عمل لا أمل فيه. فى ذلك يكمن "الهوس الأحادى"[٢٢].

---

(٢٢) استحواذ مرضى بفكرة واحدة (المترجم).

عليك أن تواجه هذا العالم. تتعلم طرقه، تراقبه، واحذر من الافتراضات المتسرعة حول معناه. وفى النهاية، سوف تعرف أساليب حل لغزه بالكامل. ثم تبدت أمامى فجأة المفارقة الضخمة وطرافة الموقف. حين تذكرت السنين التى أنفقتها فى الدراسة والعمل الشاق لأصل إلى عالم المستقبل، ولهفتى الحالية وقلقى لمفارقته. لقد أوقعت نفسى فى أعقد وأكثر الأفخاخ يأسًا التى يمكن أن ينصبها الإنسان فى حياته. وعلى الرغم من أننى كنت الضحية، لم أتمالك نفسى من أن أضحك بصوت عال.

وعندما دلفت إلى القصر الكبير، وأخذت أتجول فيه، خيل إلىّ أن الناس الصغار يتجنبوننى. ربما كان هذا وهمًا صوره لى خيالى، أو ربما كان هذا أمرًا حقيقيًا له علاقة بقيامى بالطرق على ألواح البرونز فى قاعدة أبى الهول. مع هذا كان لدى إحساس داخلى أنهم يتجنبوننى بالفعل. وحرصت، مع ذلك، على ألا أبدى لهم أى اهتمام، وأن أمتنع عن القيام بأية محاولة للاتصال بهم، وخلال يوم أو يومين عادت العلاقات الودية بيننا، كما كانت.. وأحرزت تقدمًا ـ قدر استطاعتى ـ فى فهم لغتهم. وبالإضافة إلى هذا زاد محصولى من الاكتشافات باستطلاعاتى فى كل الاتجاهات. ظهر لى أننى ـ ما لم أكن قد أسأت الفهم ـ فإن لغتهم كانت بالغة السهولة، فهى تقتصر على أسماء موجودات مادية وأفعال. بدا أن هناك تعابير قليلة تدل على أشياء مجردة أو استعارات، إن كان فى اللغة مثل هذه التعابير، كما أنها تتضمن استعمالاً قليلاً للغة مجازية. كانت جملهم بسيطة عادة ومؤلفة من كلمتين اثنتين، وفشلت فى أن أنقل أو أفهم أية فكرة إلا إذا كانت بسيطة للغاية. وقررت أن أتناسى

مؤقتًا تفكيرى فى آلة زمنى، وسر أبواب البرونز التى توجد تحت تمثال أبى الهول، إلى أن تقودنى زيادة المعرفة إليها بطريقة طبيعية. مع ذلك، قيدنى إحساس معين، قد تفهمونه، بالبقاء داخل دائرة تمتد لبضعة أميال حول موضع وصولى.

إلى أقصى مدى أمكننى التجول فيه كان العالم يتمتع بنفس الرخاء والخصوبة الوافرين لوادى نهر (التايمز). من كل تل صعدت إليه شاهدت من حولى كثرة المبانى الرائعة المتنوعة بلا نهاية فى مواد البناء والطراز المعمارى، ونفس الشجيرات المتشابكة دائمة الخضرة، وذات الأشجار المحملة بالثمار ونباتات السرخس الشجرية. هنا وهناك يلمع الماء كفضة سائلة وخلفها، ارتفعت الأرض مكونة تلالاً تحدث حركة تموجية رقيقة، وقد تلاشت فى صفاء السماء. كان المنظر الغريب الذى أثار انتباهى عندئذ، هو وجود آبار دائرية، معظمها له أعماق سحيقة، كما بدت لى. كانت إحداها إلى جانب ممر صاعد إلى التل، كنت قد سرت عليه خلال أول رحلة لى على الأقدام. كانت حافتها ـ كالآبار الأخرى ـ ذات إطار من البرونز، إطار منقوش على نحو غريب، وعليه قبة صغيرة لتحميها من الأمطار. وجلست إلى جانب هذه الآبار وأخذت أحملق إلى أسفل فى ظلامها، لم أر تألق الماء، وعندما أشعلت عود ثقاب لم أر أى انعكاس لضوئه. لكننى فى جميع تلك الآبار سمعت صوتًا مكتومًا وكأنه لآلة ضخمة تدور بانتظام، واكتشفت ـ مما يحدث للهيب أعواد ثقابى ـ أن تيارًا مستمرًا من الهواء كان يندفع هابطًا إلى الآبار. عندما ألقيت بعدئذ بقطعة ورق فى فوهة إحدى هذه الآبار، فوجدتها بدلاً من

أن تسقط ببطء، قد سحبت فى لمح البصر إلى الداخل، ثم اختفت.

بعد فترة من الزمن، استطعت أن أربط بين هذه الآبار، وأبراج عالية مقامة فى جهات عديدة على جوانب التلال، فكثيرًا ما ظهرت فوقها كتلة هواء تخفق مثل تلك التى يراها الإنسان فى يوم حار فوق شاطىء تلفحه أشعة الشمس. وعندما قمت بربط هذه الأمور كلها معًا، توصلت إلى احتمال قوى عن نظام تهوية تحت الأرض، كان من الصعب علىّ تخيل الهدف منه. ملت فى أول الأمر إلى الاعتقاد أن هناك علاقة بين هذا النظام وجهاز الصرف الصحى لهؤلاء الناس. لقد كان استنتاجًا قريبًا إلى الذهن، لكنه اتضح فيما بعد أنه كان خاطئًا تمامًا!

لا بد أن أعترف هنا أننى تعلمت النذر اليسير عن الصرف الصحى وفتحات البالوعات ووسائل المواصلات ووسائل الراحة خلال فترة إقامتى فى هذا المستقبل البعيد الحقيقى. فى بعض رؤى اليوتوبيات[٢٣] هذه والأزمنة القادمة التى قرأت عنها، هناك كم هائل من تفاصيل عن مبان وعن نظم اجتماعية وما شابه ذلك. لكن على الرغم من أنه من السهولة الحصول على تفاصيل كهذه حين يكون العالم كله فى إطار مخيلة الإنسان، إلا أن هذه التفاصيل كلها لا تكون مفهومة بالنسبة إلى مسافر ينطلق بين وقائع حقيقية كالتى وجدتها هنا. ولكم أن تتصوروا القصة التى سوف يرويها إلى قبيلته عن لندن، زنجى قدم منذ وقت قصير من أفريقيا الوسطى ثم عاد

---

(٢٣) المدن الفاضلة (المترجم).

إلى قبيلته! ما الذى سيعرفه عن شركات سكة الحديد، وعن الحركات الاجتماعية، وعن أسلاك الهاتف والبرق، وعن شركة تسليم الطرود، وعن الحوالات البريدية وما شابهها؟ مع ذلك، لا بد أن نكون حريصين على الأقل، فى توضيح هذه الأمور له! وحتى ما أدركه هو من هذه الأمور، كيف يمكنه أن يقنع بها صديقه، الذى لم يسافر أبدًا؟ ثم، فكروا فى مدى ضيق الهوة بين زنجى ورجل أبيض من زماننا، ومدى اتساع الهوة بينى أنا نفسى وبين أولئك الناس المنتمين للعصر الذهبى! لقد عرفت الكثير عن أشياء غير مرئية، ولكنها ساعدتنى على أن أكون مرتاحًا، لكن، باستثناء انطباع عام عن تنظيم آلى، لن أستطيع أن أنقل سوى فروق نادرة إلى عقولكم.

فعلى سبيل المثال ما يتعلق بأمور الدفن، لم أر أية دلائل لمحرقة موتى ولا أى شىء يوحى بوجود قبور. لكن، فكرت فى أنه من المحتمل أن تكون ثمة مقابر (أو محارق موتى) فى مكان خارج نطاق استكشافاتى. كان هذا أيضًا سؤالاً طرحته على نفسى بتمعن، لكى يشبع فضولى، تمامًا فى البداية عند هذه النقطة. وقد حيرنى الأمر، وقادنى إلى أن أصل إلى ملاحظة أخرى حيرتنى أكثر من التى قبلها: لم يكن ثمة مسن وعاجز بسبب الشيخوخة بين هؤلاء الناس.

لا بد أن أعترف أن قيمة آرائى عن نظرياتى الأولى، عن مدنية آلية وبشرية متدهورة، لم يصمد طويلاً لتفكيرى المنطقى. لكننى لم أستطع أن أصوغ أية نظريات أخرى فى هذا الصدد. وسوف أستعرض أمامكم بعض الصعوبات التى واجهتنى آنذاك. كانت القصور الكبيرة العديدة التى استكشفتها مجرد قصور للإقامة

فحسب، قاعات طعام كبيرة وشقق نوم واسعة. لم أجد أية آلات ولا أى أجهزة من أى نوع. مع ذلك، فهؤلاء الناس يرتدون دائمًا ثيابًا جديدة من أقمشة فاخرة، لا بد أن تحتاج إلى تجديد فى أوقات معينة، وكانت صنادلهم، رغم أنها لم تكن مزخرفة، عينات دقيقة من أعمال معدنية. لا بد أن تصنع هذه الأشياء بطريقة معقدة وماهرة. لم يبد على الناس الصغار أى قدرة على عمل أى شىء. ليست هناك أى متاجر ولا ورش عمل، ولا عمليات استيراد. إنهم ينفقون وقتهم كله فى اللعب المرح، فى الاستحمام فى النهر، وفى ممارسة الحب بأسلوب يكاد أن يكون عابثًا، وفى أكل الفاكهة والنوم. لم أستطع أن أرى كيف يمكن أن تتطور حياتهم اللاهية العابثة.

ساقنى التفكير فى موضوع آلة الزمن من جديد: ربما أخذها مخلوق ما، لا أعرف من هو، إلى داخل القاعدة المجوفة لتمثال أبى الهول الأبيض. لماذا؟ لم أستطع أن أتصور سببًا لهذا حتى لو فكرت به طيلة عمرى. تلك الآبار الخالية من الماء، أيضًا، تلك الأعمدة الخفاقة. شعرت بأن ثمة دليلاً ينقصنى. شعرت.. كيف يمكننى أن أعبر بالكلمات؟ لنفرض أنكم اكتشفتم ورقة فيها جمل متناثرة بلغة إنجليزية واضحة، ومقحمة فيها جمل أخرى مكونة من كلمات وحروف غير معروفة لكم على الإطلاق؟ حسنا، على ذلك النحو قدم عالم ثمانمائة وألفين وسبعمائة وواحد نفسه إلىّ، فى اليوم الثالث لزيارتى!

فى ذلك اليوم أيضًا، اكتسبت صداقة شخص ما. فقد حدث بالصدفة أن كنت أرقب هؤلاء القوم الصغار وهم يستحمون فى ماء

ضحل عند شاطئ النهر، وأصيب أحدهم بتقلص عضلى، وأخذ يغوص إلى أسفل النهر. كان التيار الرئيسى يتدفق بسرعة إلى حد ما، لكنه ليس من القوة ليجرف سباحًا متوسط المهارة. حين أخبركم أن أحدًا لم يبذل أدنى محاولة لإنقاذ الشخص الصغير الذى كان يصرخ بضعف والذى كان يغرق أمام أعينهم، فإن هذا سوف يعطى فكرة عن العجز الغريب فى هذه المخلوقات. حين أدركت هذا، قمت - على الفور - بنزع ملابسى، وبعد أن غصت داخلاً الماء فى منطقة منخفضة، أمسكت بالمخلوقة الصغيرة للغاية، وسحبتها بأمان إلى البر. وسرعان ما أعادها إلى الحياة تدليك قليل لأطرافها، وبعد أن تأكدت من أنها أصبحت على ما يرام، تركتها. ولما كنت أعرف سلوكيات وطباع قوم المستقبل، فإننى لم أتوقع أى امتنان أو عرفان بالجميل منها. وكنت مخطئًا فى هذا.

وقع هذا الحادث فى الصباح وبعد الظهيرة، قابلت فتاتى الصغيرة، كما اعتقدت بأنها هى، بينما كنت أعود أدراجى من رحلة استكشافية، استقبلتنى بصيحات الفرح والسرور، وقدمت إلىّ إكليل زهور كبيرًا.. من الواضح أنها صنعته خصيصًا من أجلى فحسب. أثار هذا العمل مخيلتى. ولعل هذا كان بسبب ما كنت أحس به من الوحشة والغربة، على أية حال، بذلت أقصى جهدى لأعبر لها عن تقديرى للهدية. سرعان ما جلسنا معًا فى "تعريشة"(٢٤) بها مقاعد حجرية صغيرة، وانهمكنا فى حديث تكوّن على نحو رئيسى من نظرات وابتسامات متبادلة. لقد أثر علىّ شعور هذه المخلوقة الودى

(٢٤) مكان مظلل بأغصان متشابكة (المترجم).

كالتأثير الذى قد تثيره صداقة طفل تمامًا أخذنا نتبادل الزهور، وقبلت يدى. فقبلت يديها. ثم حاولت أن أتحدث معها، فعرفت أن اسمها (وينا)، وهو مناسب لها تمامًا. رغم أننى لم أعرف ماذا يعنيه هذا الاسم، كان ذلك بداية صداقة غريبة استمرت أسبوعًا وانتهت على النحو الذى سوف أخبركم به فيما بعد.

كانت كطفل تمامًا. تصر على ملازمتى دائمًا. حاولت أن تتبعنى إلى كل مكان، وقد رثيت لها كثيرًا لأننى أرهقتها كثيرًا أثناء رحلتى الاستكشافية التالية خارج المنطقة وحول المكان، وتركتها أخيرًا منهكة القوى على الأرض وهى تنادى علىّ بصوت تخنقه العبرات. لكن كان يجب الاهتمام بالمشاكل الحيوية التى كنت أواجهها فى هذا العالم المستقبلى.

قلت لنفسى: لم أجئ إلى المستقبل لأنشغل بتلك العاطفة الطفولية. مع ذلك كان انزعاجها عظيمًا حين تركتها، وكانت اعتراضاتها على الفراق محمومة فى بعض الأحيان، وأظن أننى قاسيت كثيرًا من المتاعب من إخلاصها لى بقدر ما أحسست بالراحة من هذا الإخلاص لكنها كانت تخفف عنى ما أعانيه بطريقة ما. أظن أن حنانى عليها كطفلة هو الذى جعلها تتعلق بى. إلى أن أصبح الأمر متأخرًا للغاية، لم أعرف تمامًا ما أثرته فيها حين تركتها. كما لم أعرف - إلا فى وقت متأخر جدًا - ما كانت تعنيه هذه المخلوقة الرقيقة، لى.

فبمجرد إظهارها أنها مغرمة بى، وإظهارها بطريقتها العبثية بأنها كانت تهتم بى، إن هذه الدمية الصغيرة جعلتنى أشعر بأن

عودتى إلى جوار أبى الهول الأبيض - وهى فى انتظارى - كأننى عدت إلى البيت، وكنت أتفحص المكان باحثًا عن قدها الدقيق وملابسها البيضاء والذهبية بمجرد أن أهبط من سفح التل.

وعرفت أيضًا من (وينا) بأن الخوف لم يودع العالم بعد. كانت تظهر شجاعتها فى ضوء النهار، وكانت تمنحنى ثقة عمياء، فذات مرة وفى لحظة طيش، قطبت وجهى مهددًا إياها، فضحكت على تلك التقطيبات ببساطة. لكنها كانت تخشى الظلام، وترتعب من الظلال، والأشياء السوداء. كان الظلام بالنسبة إليها الشىء المخيف الوحيد. كان خوفها هذا انفعالاً عاطفيًا بالغ الغرابة، وقد جعلنى ذلك أمعن النظر وأعمل الفكر. عندئذ اكتشفت، بين ما اكتشفته من حقائق، أن هؤلاء القوم الصغار يتجمعون فى تلك القصور الكبيرة بعد الظلام، وينامون فى حشود. كان الدخول عليهم، وهم نيام، بغير ضوء، يثير فيهم الذعر والاهتياج. ولم أجد أبدًا واحدًا منهم فى الخارج، ولا واحدًا منهم ينام بمفرده فى داخل البيوت بعد الظلام. مع هذا بقيت غبيًا إلى درجة أن درس هذا الخوف قد فاتنى، وصممت على النوم بعيدًا عن هذه الحشود النائمة على الرغم من معاناة (وينا).

كان نومى بمفردى، يسبب لها اضطرابًا عظيمًا، لكن عاطفتها الغريبة نحوى انتصرت فى النهاية على اضطرابها. وأصبحت أنام معهم. فكانت تنام ورأسها تتوسد ذراعى طيلة الليالى الخمسة من تعارفنا بما فى ذلك آخر ليلة. لكن يبدو أن حديثى عنها بهذا الشكل يجعل قصتى تهرب منى.

لا بد أننى استيقظت عند حوالى الفجر فى الليلة السابقة، على يوم إنقاذها من الغرق. فقد كنت قلقًا فى نومى، أحلم حلمًا مزعجًا بأننى أغرق، وأن شقائق نعمان[٢٥] بحرية كانت تتحسس وجهى بزوائدها اللينة. استيقظت فزعًا، وخيل إلىّ أن حيوانًا رماديًا انفلت خارجًا من الحجرة. حاولت أن أنام من جديد، لكننى شعرت بالقلق وعدم الراحة. كان الوقت تلك الساعة الرمادية المعتمة حينما تزحف الأشياء خارجة من بين طيات الظلام، وحين يكون كل شىء عديم اللون ومحدد المعالم تمامًا لكنه مع هذا يبدو غير واقعى. نهضت واقفًا وغادرت الحجرة التى كنت أنام فيها ونزلت إلى القاعة الكبرى، ثم خرجت وسرت على حجارة الرصف أمام القصر. فكرت فى أنه يجب علىّ - طالما استيقظت - أن أتمتع برؤية شروق الشمس.

كان القمر فى لحظات الأفول الأخيرة واندمجت أشعته وشحوب النور الأول للفجر فى ضوء باهت. كانت الشجيرات حالكة السواد، والأرض رمادية كئيبة والسماء لا لون لها ولا بهجة. وفى أعلى التل، خيل إلىّ بأننى أرى أشباحًا. وشاهدت - وأنا أدقق النظر فى المنحدر - أشكالاً بيضاء عدة مرات. بل خيل إلىّ مرتين أننى رأيت مخلوقًا منفردًا شبيهًا بقرد أبيض يركض بسرعة صاعدًا التل، ورأيت قرب الأطلال مرة أخرى مجموعة من تلك المخلوقات تحمل جسمًا داكنًا. تحركت بسرعة. لم أتبين ماذا جرى لها. بدا أنها توارت بين الشجيرات. كان الفجر لا يزال ضبابى المعالم. كنت أشعر

(٢٥) حيوانات لا فقرية بحرية على شاكلة المرجانيات وقناديل البحر (المترجم).

بإحساس الصباح المبكر البارد وغير المحدد الذى قد تعرفونه، ومن ثم شككت فيما رأيته.

وما إن أصبح الجزء الشرقى من السماء أكثر سطوعًا، انبلج ضوء النهار وعاد بهاؤه ليغمر العالم من جديد، دققت النظر بالمشهد لكننى لم أر أثرًا لهذه الأشباح البيضاء الغريبة لعلهم كانوا مجرد مخلوقات يتخيلها الإنسان فى النور الباهت. قلت: لابد أنها أشباح. إننى أتساءل متى وجدت؟ تذكرت فكرة (جرانت آلن) الغريبة وواستنى. قال بأنه إذا مات كل جيل وترك وراءه أشباحًا، فإن العالم سوف يزخر بهذه الأشباح. ووفق هذه النظرية فإنها ازدادت إلى حد هائل خلال ثمانمائة ألف سنة، وليس من العجيب أن أرى أربعة منهم دفعة واحدة. لكن هذه الملاحظة الساخرة لم تكن مقنعة. رحت أفكر فى هذه الأشكال طوال فترة الصباح إلى أن طرد إنقاذى (وينا) تلك الخواطر من رأسى. ربطت وجودها بطريقة غير محددة بالحيوان الأبيض الذى روّعته فى أثناء بحثى المنفعل الأول عن آلة الزمن. لكن التفكير فى (وينا) كان بديلاً فوضويًا محببًا للنفس. لكن ومع ذلك فإن هؤلاء الأشباح البيض، سوف يستحوذون على ذهنى ـ خلال وقت قصير ـ استحواذًا مهلكًا.

أعتقد أننى ذكرت من قبل كيف أن الجو فى هذا العصر الذهبى كان أكثر حرارة من طقسنا الحالى. إننى لا أستطيع أن أفسر هذا. قد تكون الشمس أكثر حرارة أو أن الأرض أصبحت أكثر قربًا إلى الشمس. إنه من العادة الافتراض أن الشمس ستبرد باطراد فى المستقبل. لكن الناس، الذين ليسوا على دراية بالأفكار العلمية

المبتكرة مثل تلك التى قال بها (داروين)[٢٦] الشاب، نسوا أن الكواكب لابد وأن تسقط راجعة واحدًا إثر الآخر فى حضن الأم. إن مثل هذه الكوارث الكونية تحدث، سوف تتأجج الشمس بطاقة متجددة، وقد يعانى كوكب داخلى من هذا المصير. مهما كان السبب، تبقى الحقيقة أن الشمس ستكون أكثر حرارة مما نعرفها.

وذات صباح يوم قائظ الحرارة ـ أعتقد أنه صباح اليوم الرابع من وصولى ـ وفيما كنت أنشد ملاذًا من الحرارة اللافحة والوهج الشديد بين الأطلال هائلة الحجم قرب القصر الكبير، حيث أنام وآكل. حينئذ وقع هذا الحادث الغريب. بينما كنت أتسلق تلك الأنقاض الضخمة، اكتشفت ممرًا ضيقًا تراكمت الحجارة المتساقطة عليه، فسدت نهايته ونوافذه من الخارج. بالمقارنة بالوهج فى الخارج، بدا لى أن الممر مظلم ظلامًا حالكًا. دخلته وأخذت أتحسس طريقى، فقد أثار التحول من الضوء الساطع إلى الظلام الحالك، بقع ألوان تتموج أمام عينى. فجأة، توقفت كالمأخوذ. كانت عينان تلمعان من انعكاس ضوء النهار الخارجى عليهما، تراقباننى من أعماق الظلام.

اجتاحنى الخوف الغريزى القديم من الحيوانات المتوحشة. أطبقت يدىّ بإحكام ونظرت بثبات فى مقلتى العينين المحدقتين. كنت خائفًا من أن أستدير. ثم أتت إلى ذهنى فكرة الأمان المطلق الذى يبدو أن البشرية تنعم به. ومن ثم تذكرت ذلك الرعب الغريب

---

(٢٦) تشارلس داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) عالم طبيعة بريطانى، صاحب النظرية الداروينية (المترجم).

من الظلام. بعد أن تغلبت على خوفى إلى حد ما، تقدمت خطوة إلى الأمام. أعترف بأن صوتى كان أجش ومضطربًا .. ثم مددت يدى ولمست شيئًا ناعمًا. على الفور، اندفعت العينان المحملقتان مبتعدتين جانبًا، وانسل شىء أبيض هاربًا. التفت وقد سقط قلبى فى أعماقى وشاهدت مخلوقًا عجيبًا شبيهًا بالقرد، رأسه مدلاة إلى أسفل بطريقة غريبة، راكضًا عبر المساحة المغمورة بضوء الشمس خلفى. تخبط بمشيته صادمًا كتلة جرانيت، فترنح جانبًا، ثم اختفى فى لحظة داخل ظل أسود تحت كتلة أخرى من ركام من الأحجار والأنقاض.

لم تكن تلك النظرة الخاطفة المضطربة لهذا المخلوق كافية لأعطى وصفًا دقيقًا له، لكننى عرفت أنه كان أبيض بياضًا شاحبًا وله عينان غريبتان متسعتان ولونهما رمادى محمر، وكان على رأسه وأسفل ظهره شعر خفيف أصفر فاتح، لكنه كما قلت، ركض بسرعة كبيرة جعلتنى لا أميزه بوضوح كاف. لم أستطع حتى أن أتبين ما إذا كان يركض على أربع أو أن ذراعيه الأماميتين متدليتان إلى الأرض، لفرط طولهما. بعد لحظة انتظار، تبعته إلى كومة الأحجار الثانية. لم أتمكن من رؤيته فى البداية، لكننى وبعد فترة من الزمن فى هذا الغموض العميق، وصلت إلى إحدى الفتحات المستديرة الشبيهة بفوهات الآبار، والتى أخبرتكم بها، فتحة نصف مغلقة بعمود ساقط. أتت إلى ذهنى فكرة مباغتة. أيمكن أن يكون هذا المخلوق قد اختفى فى الأسفل داخل البئر؟ أشعلت عود ثقاب، فرأيت، وأنا أنظر إلى الأسفل، مخلوقًا صغيرًا أبيض اللون متحركًا، بعينين كبيرتين لامعتين حدقتا فىّ بثبات بينما كان ينسحب. أثار

القشعريرة فى أوصالى. كان يشبه إلى حد كبير عنكبوتًا بشريًا! كان يهبط على جدار البئر، ورأيت الآن، ولأول مرة، عددًا من مواطىء أقدام معدنية ومقابض للأيدى تكوّن نوعًا من درج أسفل نفق البئر. ثم حرق عود الثقاب المشتعل أصابعى وسقط من يدى، منطفئًا، وعندما أشعلت عود ثقاب آخر، كان الوحش الصغير قد اختفى.

لا بد أنه قد انقضى بعض الوقت وأنا أقبع محدقًا فى أغوار تلك البئر. لم أوفق فى إقناع نفسى بأن ذلك المخلوق الذى رأيته كان مخلوقًا بشريًا. لكن فجر الحقيقة انبلج فى ذهنى تدريجيًا: إن الإنسان لم يعد نوعًا واحدًا، بل تمايزت فيه فصيلتان من المخلوقات البشرية، إن أطفالى الرائعين الظرفاء المنتمين إلى العالم العلوى لم يكونوا سلالة جيلنا الوحيدة، بل إن ذلك الشىء الأبيض البغيض الذى يعيش فى الظلام، والذى فر من أمامى فجأة فى لمح البصر، كان أيضًا وريث جيلنا.

فكرت فى الأعمدة المرتجة ونظريتى عن التهوية تحت الأرض. بدأت أشك فى طبيعتها الحقيقية. تساءلت: ما الذى كان يفعله هذا الكائن الذى يشبه (الليمور)[٢٧] فى تصورى عن تنظيم كامل التوازن فى هذا العالم؟ وما علاقته بالجنس الهادئ الكسول الذى يعيش فوق سطح الأرض؟ ترى ما الذى يختفى فى الظلام عند نهاية هذه الدرجات والمقابض المعدنية كتلك الآبار؟ جلست على حافة البئر أحدث نفسى بأنه ليس هناك ما أخشاه مهما تكن الظروف، وأن علىّ أن أهبط إلى هناك لكى أجد إجابات للأسئلة التى تحيرنى.

---

(٢٧) حيوان شجرى ليلى ذو عيون كبيرة وذيل طويل (المترجم).

ورغم ذلك، كنت أشعر بخوف شديد من الهبوط إلى داخل البئر. وبينما كنت حائرًا ومترددًا، اقترب اثنان من ساكنى العالم العلوى الجميل راكضين فى مرح ويمارسان رياضتيهما الغرامية عبر ضوء النهار، متجهين إلى الظلال بين الأشجار. وكان الذكر يغازل الأنثى بإلقاء الأزهار عليها، بينما كان يركض وراءها ظهر عليهما القلق والانزعاج عندما شاهدانى وقد اتكأت بذراعى على العمود المقلوب، محدقًا إلى أسفل البئر. من الواضح أن النظر فى هذه الفوهات كان يعد سلوكًا سيئًا، فحين أشرت إلى هذه الفوهة، وحاولت أن أوجه سؤالاً عنها بلغتهما، أظهرا استياء أشد وأشاحا عنى بوجهيهما بعيدًا. لكنهما كانا مهتمين بأعواد ثقابى، فأشعلت بعضها لأسليهما. حاولت مرة أخرى بخصوص البئر، ومن جديد فشلت. فتركتهما آنذاك ، عازمًا على العودة إلى (وينا)، لأرى ما يمكننى أن أحصل منها على معلومات. لكن عقلى كان فى اضطراب مستمر، كانت افتراضاتى وانطباعاتى تأخذ منحى آخر. أصبح لدىّ الآن عدة ألغاز: هذه الآبار، أبراج التهوية، سر الأشباح بالإضافة إلى عدم التوصل إلى أى شىء عن بوابات البرونز ومصير آلة الزمن! وعلى نحو بالغ الغموض، أتى إلى ذهنى اقتراح نحو حل المشكلة الاقتصادية التى كانت تحيرنى.

مفاد نظريتى الجديدة، أن تلك الفصيلة الثانية من الإنسان تعيش تحت الأرض، كانت ثمة ثلاث قرائن محددة، جعلتنى أرى أن ظهورها النادر فوق الأرض كان ناشئًا عن عادة بقائها تحت الأرض طويلاً. القرينة الأولى هى ذلك البياض الشاحب الذى يميز معظم الحيوانات التى تعيش جل وقتها فى الظلام. السمك الأبيض الذى

يعيش فى كهوف (كنتوكى) على سبيل المثال. ثم تلك العيون الكبيرة، وقدرتها على عكس الضوء، هى خاصية مشتركة بين الحيوانات الليلية ,وأفضل مثال على ذلك البومة والقطة. ثم هناك أخيرًا، ذلك الاضطراب عند مواجهة ضوء الشمس، والفرار السريع والمتعثر والأخرق نحو الظلمة، والإطراق الشديد والعجيب بالرأس حينما يكون المخلوق فى الضوء، كل هذا يعزز نظرية الحساسية البالغة لشبكة العين.

لا شك إذن أن الأرض تحت قدمى شقت بها العديد من الأنفاق والسراديب، هى بمثابة مساكن هذا الجنس الجديد، ويوضح وجود أبراج التهوية والآبار على طول منحدرات التلال - فى كل مكان فى الواقع ما عدا وادى النهر - مدى كثرة هذه الأنفاق والسراديب وتشعبها. كان طبيعيًا تمامًا - آنذاك - الافتراض أن العمل الضرورى لراحة الجنس البشرى الآخر الذى يعيش فى ضوء النهار كان يجرى الإعداد له والقيام به فى هذا العالم السفلى؟ كانت الفكرة مقبولة للغاية إلى درجة أننى سلمت بها، وتابعت التفكير فى افتراض كيفية انقسام النوع البشرى إلى فصيلتين متمايزتين بهذه الصورة الجلية. إننى متأكد من أنكم سترفضون مسبقًا فحوى نظريتى، مع أننى ومن جهتى أنا، سرعان ما شعرت بأنها تبعد كثيرًا عن الحقيقة.

فى البداية على ضوء ما نعهده من مشاكل فى زمننا الحاضر، بدا لى وعلى نحو جلى كضوء النهار الساطع، أن الاتساع التدريجى فى الشقة الاجتماعية الحالية والمؤقت فقط بين الرأسمالى (صاحب العمل) والعامل كان مفتاح الأمر برمته. مما لا شك فيه أن هذا التأويل سيبدو غريبًا عليكم إلى حد بعيد - وغير قابل

للتصديق تمامًا ـ لكن ثمة بوادر قائمة الآن تدل على ذلك الاتجاه حتى فى زمننا الحالى. هناك نزعة لاستعمال الفراغات تحت الأرضية لتأدية بعض الأغراض ولإخفاء المرافق قبيحة الشكل إلى حد ما.

فهناك سكك حديدية تحت الأرض فى لندن على سبيل المثال، سكك حديدية كهربائية، وأنفاق، وهناك ورش عمل ومطاعم تحت الأرض، وهذه لا تفتأ تزداد وتتضاعف. وبدا واضحًا أن هذا الميل ازداد باضطراد إلى أن فقدت الصناعة حق امتيازها بالتواجد على سطح الأرض. أعنى أنها وضعت فى أماكن يزداد عمقها مع مرور الوقت، متحولة إلى مصانع تحت الأرض، تتضخم شيئًا فشيئًا، وهكذا يقضى العمال وقتًا أطول تحت الأرض، إلى أن حدث فى النهاية.. أنه ـ حتى الآن ـ نرى العامل البريطانى فى الجانب الشرقى من (لندن) فى ظروف اصطناعية مثيلة تفصله عن سطح الأرض الطبيعى.

من جديد، سبق وأدت نزعة الأثرياء الفردية إلى التعالى ـ بلا شك أنها نتيجة لتزايد تحسين تعليمهم، والهوة المتسعة بينهم وبين العنف غير المتحضر للفقراء ـ إلى إغلاق مساحات شاسعة من سطح الأرض لحسابهم الخاص. وعلى سبيل المثال، فإن نصف الريف الإنجليزى بالغ الجمال مغلق تمامًا فى وجه الغرباء. وستجعل هذه الهوة المتسعة نفسها ـ التى هى نتيجة لطول مدة ونفقات عملية التعليم العالى والتسهيلات المتزايدة الممنوحة بسخاء للأثرياء والإغراءات للوصول إليها ـ ستجعل التبادل بين طبقة وأخرى، ذلك الناشئ عن الزواج المختلط (بين الأثرياء والفقراء) والذى يؤخر

حاليًا انقسام جنسنا البشرى على طول خطوط ترتيب الطبقات الاجتماعية، وهكذا يعيش الذين يملكون رأس المال فى النهاية فوق سطح الأرض، غارقين فى البهجة والرخاء والجمال، بينما يقيم الذين لا يملكون، أى العمال الذين يجاهدون للتكيف مع ظروف عملهم القاسية، تحت الأرض. وبمجرد وصولهم إلى هناك، يكون عليهم ـ بلا ريب ـ أن يدفعوا الإيجار، ولن يكون إيجارًا زهيدًا وذلك مقابل تهوية كهوفهم الكبيرة، فإن رفضوا، فسيتضورون جوعًا أو يصابون بالاختناق لتأخرهم عن دفع ديونهم المستحقة. البعض منهم، الذين أرغموهم على أن يصبحوا بؤساء ومتمردين، سيموتون. وفى النهاية وبعد أن يصير التوازن مستمرًا، سوف يصبح الناجون متكيفين جيدًا مع ظروف حياة تحت الأرض، وسعداء بطريقة حياتهم قدر سعادة ناس عالم فوق الأرض بأسلوب حياتهم. وكما بدا لى، يتبع هذا الجمال النقى والبياض الشاحب على نحو طبيعى.

وهكذا اتخذ نصر البشرية العظيم الذى حلمت به شكلاً مختلفًا فى ذهنى. لم يكن نصرًا يتعلق بالتعليم الأخلاقى والتعاون بين الجميع، كما تخيلت. بل عوضًا عن ذلك وجدت أرستقراطية حقيقية مسلحة بعلوم متقدمة تهدف إلى إيصال المنظومة الصناعية إلى أهداف منطقية. ولم يتحقق لهؤلاء الانتصار على الطبيعة فحسب، بل حققوا نصرًا على الطبيعة والإنسان معًا. ويجب أن أحذركم بأن هذا كان مضمون نظريتى فى ذلك الزمن. لم يكن لدى دليل سياحى مناسب على شكل كتب المدن الفاضلة. ربما يكون تفسيرى خاطئًا تمامًا. لكننى لا أزال أرى بأنه أكثر التفسيرات المقبولة ظاهريًا. لكن، حتى مع هذا الافتراض، لا بد أن الحضارة

المتوازنة التى كانت البشرية قد حققتها أخيرًا قد تجاوزت الذروة منذ وقت طويل ولكنها الآن سقطت فى أحط مراحل الانحلال. فالأمان الكامل الذى عم أسياد العالم العلوى أودى بهم إلى مرحلة انحلال بطيئة، ثم إلى اضمحلال عام فى الحجم والقوة والذكاء. ذلك ما يبدو لى غاية فى الوضوح آنذاك ما كان قد حدث للناس الذين يعيشون فى عالم تحت الأرض، فلم أرتب به على الإطلاق حتى ذلك الوقت، لكن، مما شاهدته من الـ (مورلوك) - ذلك، بالمناسبة، هو الاسم الذى كانت هذه المخلوقات البيضاء معروفة به - فإن بوسعى أن أتخيل أن التغير الذى حدث للنوع البشرى كان أكثر عمقًا من الـ (إيلوى)، الجنس الجميل اللطيف الذى كنت قد عرفته.

ثم جاءت الشكوك المزعجة، لماذا أخذ الـ (مورلوك) آلة زمنى؟ فقد كان لدىّ شعور مؤكد بأنهم هم الذين أخذوها. لماذا لا يستطيع جنس الـ (إيلوى) إذا كانوا أسيادًا، أن يستعيدوا الآلة لى؟ ولماذا كانوا يخافون من الظلام ذلك الخوف المروّع؟ تابعت - كما قلت من قبل - إلقاء الأسئلة على (وينا) عن عالم تحت الأرض هذا، لكن أملى خاب من جديد. فى البداية، لم تكن تفهم أسئلتى، ثم سرعان ما أخذت ترفض الإجابة عنها. وارتعدت من أسئلتى كأن الموضوع لا يطاق. وعندما ضغطت عليها، بخشونة طفيفة إلى حد ما، انفجرت باكية. وكانت هذه الدموع هى الوحيدة، ما عدا دموعى، التى رأيتها فى ذلك العصر الذهبى. حين رأيتها، كففت فجأة عن الاهتمام بالـ (مورلوك)، واهتممت فقط بإزالة هذه العلامات من عينى (وينا) وهى التى ورثتها من أسلافها البشر، وعاجلاً أخذت تبتسم وتصفق بيديها، وأنا أشعل عود ثقاب بشكل مهيب.

- ٦ -

قد تتعجبون أنه قد مر يومان قبل أن أستطيع متابعة دليل حل اللغز المكتشف حديثًا والذى وضح أنه يتضمن الأسلوب السليم، داخلنى نفور من تلك الأجساد الشاحبة. التى يشبه ابيضاضها تلك الديدان وما إليها من الكائنات الحية التى يراها الإنسان محفوظة فى أوعية زجاجية ممتلئة بالكحول فى متحف الحيوان. وكانت باردة بصورة مقززة عند اللمس. ربما كان نفورى منها راجعًا إلى حد كبير إلى ميل عاطفى نحو (الإيلوى)، الذين بدأت أفهم سبب تقززهم من الـ (مورلوك) الآن.

فى الليلة التالية، لم أنم نومًا طيبًا. ربما كانت صحتى متوعكة قليلاً. كنت مكتئبًا مما أعانيه من الريبة وتملكنى فى تلك الليلة مرة أو مرتين شعور من خوف مروع لم أجد له سببًا محددًا ,أذكر أننى زحفت دون أن أحدث ضجة داخلاً القاعة الكبيرة حيث كان (الإيلوى) ينامون فى ضوء القمر - كانت (وينا) نائمة بينهم فى تلك الليلة - فأحسست بالاطمئنان من وجودهم. عندئذ خطر ببالى، أن القمر لابد أن يمر خلال التربيع الأخير فى خلال بضعة أيام، فتزداد ظلمة الليالى، حينئذ قد يتكاثر ظهور تلك المخلوقات المرعبة من تحت الأرض، هذه الليمورات المبيضة، هذه الحشرات الطفيلية الجديدة التى حلت محل القديمة. وفى غضون تلك الأيام، تملكنى شعور بالضجر الذى يتملك الإنسان عندما يتهرب من أداء واجب حتمى. وتأكدت من أن آلة الزمن إذا كان مقدرًا لها أن تسترد فسوف يكون ذلك بالكشف عن أسرار عالم تحت الأرض هذا بجرأة. لكننى كنت مشفقًا على نفسى أن أواجه ذلك المجهول. لو

كان معى رفيق فقط، لاختلف الأمر. لكننى كنت وحيدًا على نحو مروع، وحتى مجرد التفكير فى الهبوط إلى الأسفل فى أغوار ظلام البئر كان يفزعنى. لا أدرى إن كنتم سوف تدركون شعورى، لكننى لم أشعر بالأمان التام لما قد يحدث وراء ظهرى.

ودفعنى القلق، وهذا الأمان المفقود إلى مسافات تزداد بعدًا فى برنامج رحلاتى الاستكشافى. وذات يوم كنت أتجه إلى الجنوب الغربى نحو الأرض المرتفعة التى تدعى الآن بغابة (كومب)، لاحظت فى اتجاه (بانستيد) القرن التاسع عشر بناء ضخمًا أخضر اللون مختلفًا فى مظهره عن أى بناء آخر شاهدته حتى الآن. كان أكبر من كل القصور أو الأطلال التى عرفتها من قبل، وكانت واجهة المبنى ذات طراز شرقى. يشع منها بريق أخضر شاحب، ضارب إلى الزرقة ذكرنى بنوع معين من الخزف الصينى. دل هذا الاختلال فى الواجهة على اختلاف الاستعمال، قررت أن أمضى فى استكشافى عن هذا القصر. لكن النهار كان يقترب من نهايته، وكنت قد وصلت إلى مجال مرمى الرؤية من القصر بعد دورة طويلة والتعب كان قد نال منى، قررت حينئذ أن أرجئ المغامرة إلى الغد، فعدت إلى ترحيب وملاطفات (وينا) الصغيرة. لكن، فى الصباح التالى، أدركت بجلاء تام أن فضولى المتعلق بقصر الخزف الأخضر كان خداعًا للذات، ليمكننى من التهرب من المغامرة المخيفة يومًا آخر. قررت أن أقوم بالهبوط فى البئر دون إبطاء، فانطلقت فى الصباح الباكر نحو بئر قرب أطلال الجرانيت والألومنيوم.

وكانت (وينا) الصغيرة تركض إلى جانبى وترقص فى إثرى ونحن فى طريقنا إلى البئر، لكن، حين شاهدتنى أنحنى فوق فوهة البئر،

أصابها انزعاج شديد. قلت: "وداعًا يا (وينا) الصغيرة"، وقبلتها، ثم أنزلتها على الأرض وأخذت أتحسس بعجلة الحاجز بحثًا عن الدرج ومقابض التسلق.

ولعلى أعترف بهذا أيضًا، فقد خفت إذا أبطأت أن تخوننى شجاعتى ولا أكمل الهبوط! فى أول الأمر، راقبتنى بذهول. ثم أطلقت صرخة مثيرة للشفقة إلى أقصى حد وركضت نحوى، وأخذت تجذبنى بيديها الصغيرتين. وأعتقد أن معارضتها قد أثارت أعصابى إلى حد الإسراع فى الهبوط داخل البئر فأزحتها جانبًا بشىء من الخشونة، وبعد هنيهة، وصلت إلى داخل فوهة البئر. رأيت الذعر البالغ يرتسم على وجهها من فوق درج ومقابض البئر، فابتسمت لأبعث فى قلبها الطمأنينة. ثم كان علىّ أن أنظر إلى أسفل إلى المقابض غير الثابتة التى تعلقت بها، خشية أن تكون غير متينة لتتحمل جسمى.

كان لا بد أن أهبط مستخدمًا المقابض إلى عمق نحو مائتى ياردة.. جرى الهبوط بواسطة قضبان معدنية بارزة من جدران البئر، وكانت هذه قضبان مصنوعة ومخصصة لمخلوق أصغر وأخف منى كثيرًا، وسرعان ما انقبضت عضلاتى وأدركنى التعب من الهبوط. ولم يقف الأمر عند هذا الحد! بل التوى أحد القضبان فجأة تحت ثقلى، وكاد يطوح بى إلى أسفل فى غياهب الظلمة داخل البئر وظللت للحظة، معلقًا بإحدى يدى، ولم أجرؤ بعد تلك الحادثة على أن أستريح مرة أخرى. مع أن ذراعىّ وظهرى كانت تؤلمنى بشدة آنذاك، إلا أننى واصلت التعلق هابطًا فى البئر بأسرع ما أستطيع. ألقيت نظرة سريعة إلى فوق فرأيت من خلال فوهة البئر، السماء

كدائرة صغيرة زرقاء، وقد ظهر فيها نجم، بينما بدا رأس (وينا) الصغير كنقطة دقيقة سوداء. تصاعد صوت ضجيج آلة فى الأسفل وأصبح مقبضًا للصدر. كان كل شىء حالك السواد ما عدا تلك الدائرة الصغيرة فى الأعلى، وحين رفعت رأسى ونظرت من جديد، كانت (وينا) قد اختفت.

كنت أعانى من ألم مبرح من فرط الجهد الذى بذلته. وانتابتنى بعض الأفكار تحثنى كى أحاول أن أصعد إلى أعلى من جديد وأترك العالم السفلى وشأنه. لكن حتى وأنا أعمل هذه الفكرة فى ذهنى، واصلت الهبوط. أخيرًا، وبشعور متعاظم بالارتياح، رأيت، إلى أعلى قليلاً منى، كوة معتمة فى الجدار على بعد قدم على يمينى، وبعد أن ألقيت بنفسى داخلها، وجدت أنها فتحة سرداب أفقى ضيق يمكننى أن أتمدد فيه وأنعم بقليل من الراحة. كان قد مضى بعض الوقت عندما أحسست بذراعىّ تؤلمانى وتقلصت عضلات ظهرى وكنت أرتجف من الذعر خوفًا من السقوط وقد تملكنى هذا الشعور لمدة طويلة. وبالإضافة إلى هذا، كان للظلام الحالك تأثير مؤلم على عينى. وكان الجو مفعمًا بطنين ونبض آلات ضخ هواء إلى أسفل البئر.

لا أدرى كم مضى من وقت وأنا ممدد فى السرداب، أيقظتنى فجأة يد طرية باردة تتحسس وجهى. قمت مذعورًا فى الظلام، وأخرجت أعواد الثقاب من جيبى، وأشعلت عودًا منها على عجل، فرأيت ثلاثة مخلوقات بيض مطأطئى الرءوس مشابهة لذلك المخلوق الذى كنت قد شاهدته فوق الأرض بين الأطلال، أخذت المخلوقات تتراجع بسرعة أمام ضوء عود الثقاب. ولم يكن الأمر غريبًا بالنسبة لى، فطالما كانوا يعيشون فى دياجير تلك الظلمة

فلابد أن عيونهم متسعة للغاية وبالغة الحساسية للضوء كعيون الأسماك التى تعيش فى الأعماق السحيقة للبحار. وكانت عيون (المورلوك) تعكس الضوء بنفس الطريقة. لم يساورنى شك فى أنهم كانوا يشاهدوننى فى تلك الظلمة الدامسة الخالية من بصيص أى نور، ولم يبد أنهم كانوا يخشون شيئًا منى، إلا الضوء. وبمجرد أن أشعلت عود ثقاب لكى أراهم فروا هاربين باندفاع واختبأوا فى مواسير البالوعات والأنفاق المظلمة التى حملقت منها عيونهم المتسعة تراقبنى، بطريقة غريبة.

حاولت أن أناديهم ليقتربوا منى، لكن فيما يبدو أن لغتهم كانت مختلفة تمامًا عن لغة سكان العالم العلوى، لذلك اضطررت إلى أن أتخلى عن جهودى فى الاتصال بهم التى لم تسفر عن أية نتيجة، وخطر ببالى التفكير بالفرار قبل القيام بالاستكشاف. لكننى قلت لنفسى: "لقد هبطت إلى البئر من أجل هذا الاكتشاف"، وفيما أنا أتحسس طريقى على طول السرداب، وجدت أن ضجة الآلات تزداد ارتفاعًا. عندئذ، توارت الجدران متباعدة عنى، ووصلت إلى ساحة رحبة مفتوحة، فأشعلت عود ثقاب آخر ووجدت أننى دخلت كهفًا مقوسًا فسيحًا امتدت أبعاده إلى داخل ظلام حالك وراء مدى ضوء الثقاب. كان ما رأيته من المشهد أقصى ما يمكن أن يراه الإنسان فى الضوء الهزيل لعود ثقاب مشتعل.

إن ذهنى يكتنفه الغموض. فلا أذكر إلا أشكالاً كبيرة كآلات ضخمة تنتصب خارجة من الظلمة، وتلقى ظلالاً سوداء غريبة - فى ضوء الثقاب - التجأ إليها الـ (مورلوك) الأطياف من الوهج. كان

المكان، بالمناسبة، خانقًا وقابضًا للصدر، وانتشرت فى الجو رائحة خفيفة لدم مسفوك منذ وقت قصير. وجدت فى مكان ما فى منتصف القاعة، ثمة منضدة صغيرة من معدن أبيض، وضعت عليها ما بدا أنه وجبة من اللحم. لقد كان الـ (مورلوك) من آكلى اللحوم! حتى فى ذلك الوقت، وأذكر أننى عندما دققت النظر فى الفخذ الأحمر الذى كان على المنضدة، تساءلت عما يكون هذا الحيوان كبير الحجم الذى ظل على قيد الحياة ولم ينقرض بعد! كان الجو مروعًا والأشكال الكبيرة التى لا معنى لها، والرائحة العميقة النفاذة والمخلوقات البشعة الجاثمة فى الظلال، والمنتظرة حلول الظلام حتى تنقض علىّ من جديد! ثم احترق عود الثقاب حتى النهاية وعندما لسع أصابعى، ألقيت به على الأرض، فسقط كبقعة حمراء خافتة فى طيات السواد.

ينتابنى العجب الآن، من أننى لم أستعد بمعدات كافية أمام مغامرة كهذه. عندما بدأت فى تصميم آلة الزمن وعندما انطلقت بها سيطر علىّ الوهم بأن إنسان المستقبل سيكون بالتأكيد متقدمًا علينا تقدمًا مذهلاً فى كل المجالات. قدمت إلى هذا العالم بلا أسلحة، وبلا أدوية، وبلا أية وسيلة للتدخين - فقد افتقدت التبغ فى أوقات كثيرة - وحتى بلا أعواد ثقاب كافية. لو أننى فقط فكرت بإحضار آلة تصوير! لكان بإمكانى التقاط صور للعالم السفلى فى ثانية واحدة، ثم أفحصها فيما بعد فى وقت فراغى. ولكن وفى هذا الموقف الرهيب الذى كنت فيه، وقفت هناك وليس لدى من الأسلحة والقوى إلا ما وفرته لى الطبيعة متمثلة فى الأيدى والأقدام والأسنان، بالإضافة إلى أربعة أعواد ثقاب كانت لا تزال باقية معى.

انتابنى الخوف من أن أشق طريقى بين كل تلك الآلات التى تكتنفها الظلمة، وقد اكتشفت مع آخر عود ثقاب أشعلته أن مخزونى من أعواد الثقاب قد انخفض. لم يخطر ببالى قط، إلا عند تلك اللحظة، أنه ستكون هناك حاجة للاقتصاد فى استعمالها، وندمت أننى استهلكت ما يقرب من علبة ثقاب فى إثارة الدهشة البريئة على وجوه سكان العالم العلوى، الذين كانت النار بالنسبة إليهم شيئًا مستحدثًا. الآن، كما أخبرتكم، بقى لدىّ أربعة أعواد ثقاب وبينما كنت أقف فى الظلام، فجأة أحسست بيد تتحسسنى وشعرت بأصابع نحيلة تلمس وجهى برفق وملأت خياشيمى رائحة غريبة نفاذة وكريهة. وخيل إلىّ أننى أسمع ترديد أنفاس حشد غفير من تلك المخلوقات المروعة الصغيرة التى أصبحت تحيط بى. أحسست بعلبة الثقاب تسحب من يدى بخفة، وأيد أخرى خلفى تشد ملابسى. كان الإحساس بهذه المخلوقات الخفية وهى تتفحصنى مزعجًا للغاية، بما لا أستطيع أن أصفه.. حل علىّ الإدراك الفجائى بأننى أجهل تمامًا طرق تفكيرهم وسلوكهم، فصرخت فيهم بأعلى صوت أمكننى إصداره. فتراجعوا مذعورين، ثم أحسست بهم يتقدمون منى مرة أخرى وأمسكوا بى بجرأة أشد، وهم يتبادلون همساتهم بأصوات غريبة. ارتعدت أوصالى بعنف، ثم صرخت فيهم من جديد، بنبرات متنافرة متقطعة. ولكن لم ينتبهم الذعر مما حدث من قبل، وأطلقوا ضحكات غريبة وهم يقتربون منى حثيثًا. أعترف أننى كنت أشعر بخوف مروع. قررت أن أشعل عود ثقاب آخر وأهرب محتميًا بضوئه. أشعلت عودًا وزدت الشعلة توهجًا بقصاصة ورق أخرجتها من جيبى، وهكذا هيأت لنفسى

فرصة جيدة لانسحابى إلى السرداب الضيق. لكننى ما كدت أدخل هذا السرداب حتى انطفأ الضوء، وسمعت فى الظلمة الحالكة الـ (مورلوك) يتدافعون كحفيف الريح بين أوراق الشجر وتبدو تحركاتهم السريعة ورائى، كنقر حبات المطر فوق النافذة. وبعد دقيقة، تعلقت بى أيد عديدة، ولم يخامرنى شك فى أنهم كانوا يحاولون أن يجذبونى إلى الوراء لأعود إلى مكانى السابق. أشعلت عود ثقاب آخر، وأرجحته أمام وجوههم المذهولة. لا يمكنكم أن تتصوروا كيف كانوا يبدون غير بشريين مثيرين للاشمئزاز ـ تلك الوجوه الشاحبة التى تخلو من الأذقان وهذه العيون المتسعة الرمادية والمشربة بلون قرنفلى والتى بلا جفون! وهم يحملقون فى حيرة وارتباك وقد أعماهم ضوء الثقاب. لكننى لم أتريث لأمعن النظر فيهم، بل أسرعت بالتراجع من جديد، وحين انطفأ عود ثقابى الثانى، أشعلت الثالث. كاد يحترق إلى نهايته حين وصلت إلى أول مقبض على جدار البئر. تمددت عند فتحة جدار البئر، فقد أصابنى طنين الآلات الكبيرة فى الأسفل بالدوار. ثم تحسست الجدران بحثًا عن المقابض والدرج ، وفيما كنت أفعل هذا، أمسك (المورلوك) بقدمىّ من الخلف، وأخذوا يجذبوننى بعنف إلى الخلف. قمت بإشعال عود ثقابى الأخير.. بيد أنه انطفأ على الفور. لكننى كنت قد وضعت يدى على أول مقبض للصعود، فخلصت رجلى من قبضات الـ (مورلوك) بالركل وسرعان ما رحت أتسلق إلى فوق، بينما ظلوا يحدقون ويطرفون بأعينهم الكبيرة إلى أعلى ,كلهم باستثناء حقير صغير منهم أخذ يلاحقنى لبعض الوقت، ودنا منى إلى الحد أنه كاد يأخذ حذائى منى كغنيمة!

بدا لى ذلك الصعود وكأنه بلا نهاية. وأثناء العشرين أو الثلاثين قدمًا منه، شعرت بغثيان مروع. وعانيت صعوبة بالغة فى إحكام قبضتى على المقابض. كانت الياردات الأخيرة القليلة صراعًا هائلاً ضد هذا الإغماء. أصبت بدوار شديد عدة مرات، وشعرت أحيانًا بأننى سوف أسقط لا محالة. وأخيرًا، وعلى الرغم من كل هذه المعاناة تسلقت إلى فوهة البئر بطريقة ما، وخرجت من بين الأطلال مترنحًا نحو ضوء الشمس الذى يعمى الأبصار. سقطت على وجهى. حتى الأرض كانت لها رائحة عذبة ونقية بطريقة محببة. أتذكر آنذاك أن (وينا) أخذت تقبل يدى وأذنى، وتنامت إلى سمعى أصوات آخرين من (الإيلوى) ثم فقدت الوعى لفترة من الزمن.

- ٧ -

عندئذ، بدت لى حالتى وقد صارت أسوأ من ذى قبل، ما عدا أثناء الكرب الجسدى والنفسى الذى ألم بى عند خسارة آلة الزمن، كنت آمل دائمًا بالهرب إلى زمنى، لكن هذا الأمل اضطرب وتضاءل بهذه الاكتشافات الجديدة. وحتى ذلك الوقت ظننت أن ما أعاقنى عن تحقيق هذا هو بساطة هؤلاء القوم الصغار الطفولية وقوى أخرى مجهولة كان يجب علىّ فقط أن أدرك كيف يمكننى التغلب عليها، لكن كان ثمة عامل جديد تمامًا فى صفات الـ (مورلوك). شىء غير إنسانى وشرير. وغريزيًا، كنت أكرههم. فيما مضى، كنت أشعر كأننى رجل سقط فى حفرة ,كان اهتمامى موجهًا للحفرة وكيفية الخروج منها. أما الآن فشعرت كوحش وقع فى فخ سوف ينقض عليه عدوه عاجلاً.

قد يدهشكم العدو الذى كنت أرهبه. كان هو ظلام القمر الجديد الوليد. غرست (وينا) هذه الفكرة فى رأسى بملاحظات بدت غير مفهومة فى بادئ الأمر عن الليالى المظلمة. لم يكن صعبًا علىّ عندئذ أن أخمن معنى الليالى المظلمة القادمة. كان ضوء القمر يتضاءل وتزايدت فى كل ليلة فترة الظلمة. أدركت الآن، إلى حد ما على الأقل، سبب الخوف الذى يعترى ناس العالم العلوى الصغار من الظلام. عجبت على نحو غامض، متسائلاً عن تلك الأفعال الشريرة التى قد يقوم بها الـ(مورلوك) تحت القمر الجديد. تأكدت جيدًا الآن من أن نظريتى الثانية كانت خاطئة برمتها. ربما كان ناس العالم العلوى فى يوم ما هم الطبقة الأرستقراطية النبيلة المتميزة، بينما كان الـ (مورلوك) أُجراءهم الآليين، لكن ذلك انتهى منذ زمن موغل فى القدم. انحدر النوعان البشريان الناتجان عن تطور الإنسان نحو علاقة جديدة تمامًا، أو أنهما كانا قد وصلا إلى تلك العلاقة الجديدة. اعترى الـ (إيلوى) الانحلال، كما حدث لملوك (الكارلوفينجيون)[٢٨]، وأصبحوا مجرد مخلوقات جميلة لا نفع منها، ظلوا يمتلكون الأرض بالمعاناة. أما الـ (مورلوك) الذين كانوا يعملون تحت الأرض لعدة أجيال، فقد تبين لهم أخيرًا أن سطح الأرض المغمور بنور النهار لا يطاق. واستنتجت أن الـ (مورلوك) صنعوا للـ (إيلوى) ملابسهم وظلوا يوفرون لهم حاجاتهم المعيشية اليومية، جريًا لعادة قديمة موروثة فى تقديم الخدمات. قاموا بهذه الخدمات كما ورث الحصان عادة نبش الأرض بحافره وهو واقف،

(٢٨) (٧٥١ ـ ١٠٢٢م) منهم ملوك فرنسا وملوك الفرنجة الشرقيين والغربيين (المترجم).

أو كما يطيب لإنسان أن يقتل حيوانات على سبيل الرياضة، لأن الحاجات العتيقة والمنقرضة ظلت تؤثر على الكائن الحى. لكن بدا واضحًا أن الموروث القديم قد تغير على نحو ما. راح إله انتقام الناس الرقيقين يزحف بسرعة قبل عصور، قبل آلاف الأجيال، قهر الإنسان أخاه الإنسان ودفعه خارج عالم الرخاء وضوء الشمس. ها هو ذا يجد أخاه يرجع إليه الآن متغيرًا! بدأ الـ (إيلوى) يتعلمون درسًا واحدًا قديمًا - بعد أن نسوه طويلاً - عادوا يتعرفون على الإحساس بالخوف من جديد. وفجأة قفز إلى مخيلتى ذلك اللحم الذى كنت قد رأيته فى العالم السفلى، لم تخطر ببالى هذه الفكرة صاعدة إلى أعلى كما يحدث طبيعيًا لتيار تأملاتى، بل أتتنى على هيئة سؤال ملح من الخارج، حاولت أن أتذكر شكل اللحم. كان لدى إحساس غامض بأنه يذكرنى بشىء مألوف، لكننى لم أتمكن من تحديد طبيعته آنذاك.

لئن كان القوم الصغار يشعرون بالعجز عندما ينتابهم ذلك الخوف الغامض، فما كان هذا شعورى إذ كنت أنا مخلوقًا على نحو مختلف. فقد خرجت من عصرنا هذا، من هذا العصر البشرى الناضج الرائع، هذا العصر الذى لا يكون فيه الإنسان عاجزًا أمام الخوف، كما لا ينطوى فيه الغموض على الرعب. على الأقل كنت أدافع عن نفسى. بلا إبطاء، صممت أن أصنع لنفسى أسلحة وملاذًا آمنًا يمكننى أن أنام فيه، بوجود ذلك المعقل كقاعدة لى، أستطيع أن أواجه هذا العالم الغريب ببعض تلك الثقة التى فقدتها عندما عرفت أن هناك مخلوقات تمثل لى خطرًا أثناء الليل. شعرت أننى لا يمكننى أن أنام من جديد إلا بعد أن يصبح فراشى بمنأى

عنهم. كنت أرتعد والرعب يسرى فى نفسى كلما تخيلت كيف كانوا يتفحصوننى.

خلال فترة بعد الظهر أخذت أتجول على طول وادى نهر (التايمز)، لكننى لم أجد المأوى المنشود، كما يتصوره ذهنى الذى لا يمكن اقتحامه. بدت كل المبانى والأشجار سهلة التسلق عمليًا بالنسبة لمخلوقات بارعة فى التسلق كالـ (مورلوك)، بعد الذى شاهدته بالفعل من مهارتهم فى الصعود من الآبار العميقة، أو الهبوط إليها. عندئذ عادت إلى ذهنى أبراج قصر الخزف الأخضر وجدرانه اللامعة، وفكرت فى أنه ربما يكون ملاذًا ملائمًا . وفى المساء صعدت التلال نحو الجنوب الغربى، وأنا أحمل (وينا) على كتفى كأنها طفل. كانت المسافة، كما قدرتها، نحو سبعة أميال أو ثمانية أميال، لكنها فى واقع الأمر كانت حوالى ثمانية عشر ميلاً. لمحت القصر أول مرة فى فترة بعد ظهر رطب حيث تؤدى الرطوبة إلى الشعور بتضاؤل المسافات على نحو مضلل. إضافة إلى أن كعب فردة من حذائى كان باليًا، وكان ثمة مسمار يبرز من خلال النعل، لذلك كنت أعرج. وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل عندما أصبح القصر الأخضر على مرمى البصر، وقد ارتسمت صورته الظلية سوداء على خلفية السماء الصفراء الشاحبة.

كانت (وينا) مبتهجة للغاية حين بدأت أضعها فوق كتفى وأسير بها، لكنها رغبت ـ بعد فترة من الوقت ـ فى أن أضعها على الأرض، وأخذت تركض إلى جانبى، وتتركنى بين الحين والحين، على يمينى ويسارى، لتقطف الأزهار وتضعها فى جيوبى، التى كانت دائمًا

مصدر حيرة لـ (وينا) لكنها توصلت أخيرًا إلى رأى بأنها كانت نوعًا فريدًا من الأوعية لأزهار الزينة. على الأقل، استعملتها هى فى هذا الغرض. وذلك يذكرنى بشىء! عند تبديلى لسترتى، وجدت...

توقف مسافر الزمن عن الكلام، ودس يده فى جيبه وهو صامت، ثم أخرج زهرتين ذابلتين تشبهان بعض الشىء أزهارًا كبيرة جدًا لنبات "الخباز"[(٢٩)] ثم استأنف حديثه:

حينما انتشر سكون المساء فوق العالم وتابعنا سيرنا نحن الاثنان فوق قمة التل نحو (ومبلدون)، شعرت (وينا) بالإرهاق وأرادت أن ترجع إلى بيت الحجر الرمادى. لكننى أشرت لها إلى أبراج قصر الخزف الأخضر البعيدة، وحاولت أن أفهمها بأننا سوف نجد ملاذًا آمنًا لنا هناك. أتعرفون ذلك الصمت المطبق الذى يكتنف الأشياء قبل الغسق؟[(٣٠)] حتى النسيم توقف عن تخلل الأشجار. بالنسبة إلىّ، يجعلنى سكون المساء أشعر وكأننى أترقب شيئًا غامضًا. كانت السماء صافية ومترامية الأبعاد وخاوية إلا من أشعة أفقية تمثل البقايا الأخيرة لأشعة الشمس الغاربة تمتد فى الأسفل. حسنًا، فى تلك الليلة، تملكتنى ألوان جديدة من الخوف وبدت أحاسيسى فى ذلك الهدوء المعتم مرهفة بشكل غير مألوف. وتصورت أننى أستطيع حتى الشعور بتجويف الأرض تحت قدمى: أكاد أن أتمكن من أن أشاهد من خلال الثرى الـ (مورلوك) وهم يعملون فى نشاط دائب وكأنهم أسراب من النمل، ويندفعون إلى هنا وهناك منتظرين

(٢٩) نبات ذو أزهار وردية أو بيضاء اللون وأوراق شبيهة براحة اليد (المترجم).
(٣٠) ظلمة أول الليل (المترجم).

حلول الظلام. تصورت، بأنهم سوف يعتبرون غزوى لأوكارهم تحت الأرضية، كإعلان حرب عليهم. ألم يبدءوا بأخذ آلتى الزمنية؟

هكذا مضينا فى طريقنا والهدوء يغلف الكون، والغسق يزداد عمقًا متحولاً إلى ليل. وبدأت زرقة السماء تتحول إلى لون داكن، ويلتمع فيها نجم بعد آخر. اشتدت عتمة الأرض وبدت الأشجار ظلالاً سوداء وزادت مخاوف (وينا) وإرهاقها. أخذتها بين ذراعىّ، وتحدثت إليها وداعبتها. ثم تكاثف الظلام أكثر فطوقت عنقى بذراعيها، وأغمضت عينيها وضغطت وجهها بقوة على كتفى. هبطنا منحدرًا طويلاً إلى الوادى، وهناك فى العتمة عبرنا نهرًا صغيرًا. خوضت فى هذا النهر، وارتقيت سفح الوادى المقابل، أمام عدد من القصور المعدة للنوم، وتمثال (فاون)[٣١]، أو شكل أشبه به، بغير الرأس. هنا أيضًا، كانت أشجار (السنط)[٣٢] إلى أن بلغنا ذلك الموضع لم أر أثرًا للـ (مورلوك)، لكن الوقت كان لا يزال مبكرًا فى الليل، أما الساعات الأكثر ظلمة، قبل بزوغ التربيع الأخير من القمر، فلم تحن بعد.

من أعلى التل المجاور، تمكنت من رؤية غابة تنتشر كثيفة وعريضة وسوداء أمامى. ترددت كثيرًا. إذ لم أستطع أن أتبين لها نهاية، لا يمينًا ولا يسارًا. كنت أشعر بالإرهاق ـ فقد كانت قدماى متقرحتين جدًا بصفة خاصة ـ أنزلت (وينا) بحرص عن كتفى

---

(٣١) إله الريف عند الرومان (المترجم).

(٣٢) تتميز برؤوس من الزهور الصغيرة، يطلق عليها أحيانًا أشجار "الصمغ العربى" (المترجم).

وتوقفت ثم جلست على الأرض فوق العشب. من هذا المكان، لم أعد أشاهد قصر الخزف الأخضر، ومن ثم انتابنى الشك فى صحة اتجاهى. حدقت فى كثافة الغابة وفكرت فيما قد يكمن داخلها. إذ بين تشابك الفروع الكثيف هذا، سوف يكون الإنسان غير قادر على رؤية النجوم. وبفرض أنه لا يوجد أى خطر آخر جاثم هناك ـ خطر لم أهتم بأن يثير خيالى ـ فيكفى أننى سوف أتعثر فى الجذور والفروع، وجذوع الأشجار التى سوف أصطدم بها. كنت مرهقًا للغاية بعد متاعب هذا اليوم، فقررت ألا أسير فى هذه الغابة فى هذا الوقت، بل أقضى الليل على التل المكشوف.

وقد سرنى أن أجد (وينا) مستغرقة فى النوم فدثرتها بعناية بسترتى، وجلست إلى جوارها فى انتظار بزوغ القمر. كان سفح التل هادئًا خاليًا، ولكن كان بإمكانى أن أشاهد ـ بين حين وآخر ـ حركة أشياء حية تنطلق من سواد الغابة. تألقت النجوم فوقى، فقد كان الليل بالغ الصفاء. شعرت وكأنها تؤنس وحدتى. كانت كل الكوكبات[٣٣] قد اختفت من السماء، مع ذلك، فإن تلك الحركة غير المدركة بالحس، خلال مائة حياة إنسانية كانت قد تغيرت أوضاعها فى مجموعات لا عهد لنا بها منذ عصور موغلة فى القدم. لكن بدا لى أن مجرة (الطريق اللبنى)[٣٤] كانت لا تزال شريطًا هائلاً من غبار النجوم الممزق كما كانت فى الماضى البعيد. فى الجنوب تألق نجم أحمر شديد التوهج، غير مألوف لى، كان حتى أروع من

---

(٣٣) حشد هائل من النجوم تتخذ أشكالاً معينة (المترجم).

(٣٤) المجرة التى تنتمى إليها مجموعتنا الشمسية (المترجم).

(الشعرى) اليمانية[٣٥] الأخضر الذى ينتمى إلى زمننا الماضى. وبين كل نقاط الضوء المتألقة هذه، لمع كوكب ساطع واحد كان يبدو لطيفًا وهادئًا كوجه صديق قديم.

استفدت من التطلع إلى هذه النجوم فقد خففت من متاعبى ومن كل مخاطر الحياة الأرضية، وطاف بذهنى مدى بعدها الشاسع، وانسياب حركاتها البطيئة التى لا مرد لها خارجة من الماضى المجهول ووالجة فى المستقبل غير المعروف. فكرت فى تلك الدورة الفلكية المروعة التى يرسمها قطب الأرض. لقد أكملت تلك الدورة الصامتة أربعين مرة فقط خلال كل السنين التى قطعتها من زمنى إلى هذا المستقبل. وخلال هذه الدورات القليلة، تلاشت من الوجود كل النشاطات والتقاليد والتنظيمات المعقدة، والأمم واللغات والآداب والرغبات الشديدة بتحقيق منجزات وحتى مجرد ذاكرة الإنسان كما عرفتها. وبدلاً منها بقيت هذه المخلوقات الضعيفة التى كانت قد نسيت أسلافها الأمجاد، وظلت كذلك تلك الكائنات البيضاء التى تصيبنى بالرعب كلما رأيتها. ثم فكرت فى الخوف المروع الذى كان بين النوعين من البشر، ووضحت فى ذهنى فكرة، لأول مرة وجسمى يقشعر بغتة، عما قد يكون ذلك اللحم الذى كنت قد رأيته فى العالم السفلى. كانت هذه الفكرة مرعبة للغاية، نظرت إلى (وينا) الصغيرة، وهى نائمة إلى جانبى ووجهها أبيض ومشرق كنجم مثل النجوم التى تلمع فى السماء فسارعت بطرد الفكرة المرعبة من ذهنى.

---

(٣٥) النجم الأكثر تألقًا فى كوكبة الدب الأكبر (المترجم).

خلال تلك الليلة الطويلة، أبعدت الـ (مورلوك) عن ذهنى بقدر استطاعتى، وقضيت الوقت فى محاولة لأن أتخيل أنه بإمكانى أن أجد آثار مجموعات الكوكبات القديمة بين الاضطراب الكونى الجديد. ظلت السماء صافية تمامًا، باستثناء سحابة ضبابية أو ما يشبهها. مما لا ريب فيه أن نومًا خفيفًا ومتقطعًا دهمنى فى بعض الأحيان. ثم، فيما كانت يقظتى تتداعى ظهر شحوب فى الاتجاه الشرقى من السماء، كانعكاس نار بلا لون، وارتفع القمر القديم، رفيعًا أبيض وذا طرف مسنن الرأس. خلفه تمامًا، انبثق الفجر ليتخطاه ويغمره، شاحب الضياء فى البداية ثم أخذ يصبح أرجوانيًا ومتقدًا. لم يقترب منا أى من أفراد الـ (مورلوك). ولم ألمح بالفعل أى واحد منهم على التل فى تلك الليلة. وشعرت بالثقة عند انبلاج اليوم الجديد وبدا لى أن خوفى كان بغير أساس. نهضت واقفًا، ووجدت أن قدمى متورمة عند الكعب ومؤلمة تحت عقب القدم، فجلست على الأرض من جديد وخلعت الحذاءين وألقيت بهما بعيدًا.

أيقظت (وينا) فهبطنا وتوغلنا فى الغابة التى كانت الآن خضراء يانعة ومبهجة للنفس على عكس ما كانت عليه أثناء الليل: سوداء ومحرّمة. ألفينا بعض الفاكهة التى تناولناها كإفطار شهى. وسرعان ما قابلنا الناس الرقيقين الآخرين وهم يضحكون ويرقصون فى ضوء الشمس كأن شيئًا اسمه "الليل" لم يكن موجودًا فى الطبيعة. ثم تداعى إلى ذهنى مرة أخرى ذلك اللحم الذى كنت قد رأيته فى العالم السفلى. تيقنت الآن من طبيعته، فرثيت من صميم قلبى لهذا النسل الضعيف الأخير الناتج من صلب البشرية العظيم. من

الواضح أن طعام الـ (مورلوك) قد نضب فى زمن ما من تاريخ الانحلال البشرى الموغل فى القدم. ولعلهم عاشوا زمنًا على أكل الجرذان وما شابهها من الحيوانات الصغيرة والحشرات. إن الإنسان - حتى فى وقتنا هذا - أقل اعتناء واختيارًا لطعامه من أى قرد. كما أن نفوره من أكل اللحم البشرى ليس غريزة متوغلة فى أعماقه. فما بالك بهؤلاء الأحفاد الذين لا ينتمون للبشرية الآن، ولكنهم من صلبها! حاولت أن أنظر إلى الموضوع بأسلوب علمى. بعد كل هذا، أصبحوا أقل إنسانية وأبعد عنا من أجدادنا ساكنى الكهوف أكلة لحوم البشر الذين عاشوا قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة. كما أن الذكاء الراقى الذى كان يجعلنا نبغض أكل لحوم البشر، قد اختفى. لماذا أجهد نفسى بالتفكير؟ هؤلاء الـ (إيلوى) كانوا مجرد قطيع ماشية مسمنة، يربيها هؤلاء الـ (مورلوك) الشبيهون بالنمل ويفترسونها - من المحتمل أنهم يحرصون على رعايتها حتى تتناسل - وها هى (وينا) ترقص إلى جانبى!

عندئذ حاولت أن أحافظ على نفسى من موجات الرعب التى بدأت تسيطر على ذهنى، واعتبرت هذا كعقاب صارم لأنانية البشر. ظل الإنسان قانعًا بالعيش فى بحبوحة وبهجة على ثمرات كدح زميله فى البشرية، وقد اتخذ الضرورة كمفتاح سره، مبررًا له، فأصبحت الضرورة تبرر الوسيلة.

حتى إننى حاولت أن أشعر بالاحتقار على طريقة (كارلايل)[٣٦] لهذه السلالة الأرستقراطية البائسة المنحلة. لكن لم أستطع

---

(٣٦) (١٧٩٥ - ١٨٨١) فيلسوف وكاتب وساخر ومؤرخ اسكتلندى (المترجم).

على الرغم من شدة محاولاتى. مهما كان التدهور الفكرى الذى أصاب هؤلاء الـ (إيلوى)، فإنهم قد حافظوا على الكثير من معالم الصورة البشرية الواضحة، مما دفعنى للتعاطف معهم وجعلنى شريكًا على الرغم منى، فى انحطاطهم وانحلالهم وخوفهم.

عندئذ سيطرت علىّ أفكار غامضة للغاية فيما يتعلق بالخطة التى يجب أن أتبعها. كان أول مطلب لى هو أن أجد ملاذًا آمنًا، وصنع أسلحة معدنية أو حجرية يمكننى أن أبتكرها وأصنعها بنفسى.

كانت تلك هى الضرورة الأكثر إلحاحًا. بعد ذلك، راودنى الأمل فى الحصول على وسيلة لإشعال النار، ليكون لدىّ سلاح شعلة من النار فى متناول يدى، فأنا أعرف أنه لن يكون هناك أفعل من تأثير النيران ضد الـ (مورلوك). ثم أردت أن أعمل على إيجاد وسيلة لكسر الأبواب البرونزية فى قاعدة تمثال أبى الهول الأبيض واقتحامها، فكرت فى قضيب معدنى ثقيل يستخدم لتحطيم الجدران والأبواب. كنت مقتنعًا بأننى إذا استطعت أن أدخل من هذه الأبواب حاملاً شعلة لهب فى يدى، فلابد أن أكتشف آلة الزمن المفقودة وأهرب بها، لم أتخيل أن الـ (مورلوك) كانوا أقوياء إلى الحد أن بإمكانهم تحريكها إلى مسافة بعيدة. كما قررت أن آخذ (وينا) معى إلى عصرنا الحاضر، وفيما كانت خططٌ كهذه تعتمل فى عقلى، شققت طريقى نحو المبنى الذى تصورت أنه يمكن أن يصبح مسكننا الخاص الآمن.

- ٨ -

عندما اقتربنا من قصر الخزف الصينى الأخضر، عند حوالى الظهر، وجدته مهجورًا ومتقوض الأركان، ولم يبق فى نوافذه فقط إلا قطع من زجاج مكسرة، بينما سقطت أجزاء مسطحة كبيرة من الواجهة الخضراء فكشفت عن هيكل معدنى متآكل. كان القصر قائمًا على علو شاهق فوق تل تكسوه الأعشاب الكثيفة، قبل أن أدخل القصر، نظرت فى الاتجاه الشمالى الشرقى، ودهشت لرؤيتى مصب نهر كبير أو حتى خليج صغير على شاطئ، حيث تصورت أن (واندزوورث)[٣٧] و(باتيرسى)[٣٨] كانا هناك فى وقت ما. خطر ببالى آنذاك ـ مع أننى لم أتابع أفكارى حتى الوصول إلى نتيجة — فيما عسى أن يكون قد حدث أو يمكن أن يحدث للكائنات البحرية من تغير وتطور.

وعندما فحصت مادة بناء القصر، تبينت بأنها كانت ـ بالفعل ـ من الخزف الصينى، ورأيت على واجهة القصر كتابة منقوشة بحروف غير معروفة. ظننت، بحماقة إلى حد ما، بأن (وينا) قد تساعدنى فى قراءتها، لكننى تيقنت بأن فكرة الكتابة والقراءة بحد ذاتها لم تطف بخيالها على الإطلاق، لقد بدت لى دائمًا، أكثر بشرية من حقيقتها، ربما لأن عواطفها كانت إنسانية للغاية.

كان لباب قصر الخزف الصينى الأخضر، مصراعان كبيران وكانا مفتوحين ومكسورين، وعندما دلفنا وجدنا بدلاً من البهو

---

(٣٧) ضاحية فى جنوب لندن (المترجم).

(٣٨) قرية فى جنوب لندن (المترجم).

المتسع المعتاد، رواقًا طويلاً مضاء بواسطة نوافذ جانبية عديدة. لأول وهلة، ذكرنى هذا بمتحف. كانت الأرضية المبلطة مغطاة بغبار كثيف، كما يوجد صف من أشياء غريبة ومتباينة مغطاة كلها بنفس الغبار الرمادى.

عندئذ أدركت، وأنا أقف غريبًا ومرهقًا فى وسط البهو، ما كان يبدو - واضحًا - أنه الجزء السفلى من هيكل عظمى هائل الحجم. وكان واضحًا من أقدامه المعوجة أنه كائن منقرض يشبه (الميجاتيريوم)(٣٩) ووجدت الجمجمة والعظام العلوية ملقاة إلى جانبه فى الغبار الكثيف، بينما كان الهيكل قد تآكلت أجزاء منه، فيما يبدو حيث تساقطت قطرات المطر عليه من خلال شق فى السقف. على مسافة أبعد فى الرواق، كان ثمة هيكل عظمى هائل الحجم للديناصور (برونتوساوروس) المنقرض ومن ثم تأكدت فرضيتى عن أن هذا المكان كان متحفًا، وجدت، وأنا أتجه نحو الجدران الجانبية، ما بدا لى أنه أرفف مائلة، وعندما أزلت الغبار الكثيف عنها، اتضح لى وجود القوارير الزجاجية المألوفة، فى زمننا. لكنها كانت محكمة الإغلاق ومفرغة من الهواء، لأن بعض محتوياتها كان محفوظة فى حالة جيدة، على الرغم من مرور السنين الطويلة.

وبدا جليًا أننا نقف بين أطلال (كنسنجتون) الجنوبية المنتمية للتاريخ القديم! هنا كان قسم علم (الإحاثة)(٤٠) حيث كانت تعرض

---

(٣٩) حيوان قديم منقرض يشبه الفيل وكان يعيش فى أمريكا الوسطى والجنوبية منذ نحو ٥,٣ مليون سنة (المترجم).

(٤٠) علم دراسة الأحياء القديمة (المترجم).

مجموعة بالغة الروعة من الأحافير، مع أن العملية الحتمية للتحلل تأخرت لبعض الوقت وفقد - عند انقراض البكتيريا والفطريات - تسعة وتسعين بالمائة من قوته، إلا أن التحلل استمر فى العمل ضد كل كنوز هذا المتحف ثانية بمثابرة بالغة، وإن كان ذلك ببطء شديد أيضًا. وجدت هنا وهناك بقايا متناثرة فى شكل أحافير نادرة كُسرت إلى قطع صغيرة أو نسلت إلى خيوط ولفت حول سيقان القصب. وأيقنت أن هذا من عبث (الإيلوى) وكانت القوارير الزجاجية فى بعض الحالات قد حُركت من أماكنها -من قبل الـ (مورلوك) كما أعتقد بسبب ثقلها. كان المكان يخيم عليه الهدوء التام. وكتم الغبار الكثيف وقع أقدامنا على الأرضية. وسرعان ما تقدمت منى (وينا) التى ظلت تدحرج قنفذ بحر متجمدًا على سطح زجاج صندوق منحدر لبعض الوقت، وعندما كنت أدقق النظر حولى، أمسكت بهدوء بالغ بيدى ووقفت إلى جانبى.

وفى بداية الأمر، انتابتنى دهشة بالغة من هذا النصب القديم لعصر علمى ولّى واندثر، فلم أفكر أبدًا فى الاستخدامات المحتملة لهذا القصر. وأوشكت هذه الدهشة أن تشغلنى عن التفكير حتى بآلة الزمن، التى غابت عن ذهنى لبعض الوقت.

ونظرًا لضخامة المبنى، كان قصر الخزف الصينى الأخضر أكبر من أن يكون مجرد متحف لعرض أحافير قديمة خاصة بعلم (الإحاثة)[٤١] وهناك احتمال أن تكون فيه أروقة تحوى آثارًا

---

(٤١) علم الأعراق والسلالات البشرية (المترجم).

تاريخية، ولعله كان أيضًا مكتبة! بالنسبة إلىّ، وفى تلك الظروف الراهنة، كانت هذه ستكون أكثر أهمية إلى حد كبير من مشهد لجيولوجيا العصور القديمة المتحللة. وبينما كنت مستمرًا فى استكشافاتى، وجدت، رواقًا آخر يمتد عموديًا بالنسبة إلى الرواق الأول. بدا أن هذا الرواق مخصص لعرض المعادن، وما إن شاهدت كتلة كبريت حتى فكرت على الفور فى مسحوق البارود. لكننى لم أجد أى نترات بوتاسيوم(٤٢)، ولا نترات من أى نوع. مما لا ريب فيه أن المسحوق كان قد انحل منذ عصور بعيدة. مع ذلك، ظل الكبريت مستوليًا على ذهنى، ومطلقًا لسلسلة من الأفكار، أما بالنسبة إلى باقى محتويات ذلك الرواق، فلم تظفر إلا بالقليل من اهتمامى، مع أن معروضاته كانت محفوظة بشكل أفضل من أى مواد محفوظة رأيتها فى القصر. أنا لست متخصصًا بعلم المعادن، فسرت هابطًا ممرًا متقوضًا يمتد موازيًا للبهو الأول الذى دخلناه. من الواضح أن هذا القسم كان مخصصًا للتاريخ الطبيعى(٤٣)، لكن كل محتوياته قد طمست معالمها ـ منذ زمن بعيد ـ بحيث أصبح من المتعذر التعرف عليها. ولم تبق إلا آثار عضوية جافة وداكنة والتى كانت فى الأصل حيوانات محنطة ومومياوات محشوة فى أوان واسعة. كانت فى وقت من الأوقات مملوءة بالكحول وتراب بنى هو كل ما تبقى من نباتات قديمة.

هذا كل شىء! كنت آسفًا على ما أصاب هذا القسم. لأننى كان يسرنى أن أتتبع آثار إعادة التكيف البطىء الذى بلغته الكائنات

(٤٢) معدن أبيض أو رمادى أو عديم اللون يستخدم فى صناعة البارود (المترجم).
(٤٣) دراسة تاريخ الكائنات الحية من حيث أصلها وتطورها والعلاقات بينها (المترجم).

الحية المتباينة. ثم وصلنا إلى بهو ضخم مترامى الأطراف، لكنه كان سيىء الإضاءة للغاية، وأرضيته تنحدر إلى أسفل بزاوية طفيفة من الجزء الذى دخلت منه. تدلت على مسافات مختلفة من السقف، مصابيح كهربائية بيضاء كروية - كثير منها مشقق ومكسور - مما يدل على أن هذا المكان كان فيما مضى مضاء إضاءة اصطناعية، عندئذ شعرت بأننى لست غريبًا فى هذا المكان، فقد كانت ترتفع على كل جانب من جانبى البهو الكتل الضخمة لآلات كبيرة، وقد تآكلت كلها تآكلاً كبيرًا وتقوض العديد منها، لكن بعضها ظل قائمًا يكاد يكون سليمًا. أنتم تعرفون أننى أعانى من ضعف معين أمام الآلات فأحسست بميل شديد إلى أن أتلكأ بين هذه الآلات؛ فأغلبها لا يوحى مظهره العام ولا أجزاؤه بالهدف منه، ومن ثم كان الأمر غامضًا بالنسبة لى، تخيلت أننى إن استطعت أن أكشف عن بعض أسرار تلك الآلات، فإننى لابد أن أجد نفسى مسيطرًا على قوى ربما تكون ذات نفع فى صراعى ضد الـ (مورلوك).

على حين غرة، التصقت (وينا) بجانبى. حدث هذا على نحو فجائى تمامًا مما جعلنى أرتاع. لا أظن أنى كنت سوف ألاحظ انحدار أرضية البهو لو لم تلفت (وينا) انتباهى إلى ذلك. كان الجانب الذى دلفت منه إلى البهو فوق مستوى الأرض تمامًا، وكان مضاءً من نوافذ ضيقة شبيهة بالشقوق الطولية، وعندما تهبط على طول البهو، فإن سطح الأرض يصعد فوق مواضع هذه النوافذ، إلى أن يصل إلى منخفض كالحفرة أمام كل نافذة تشبه "القبو" فى بيت لندنى. وقد تسلل خط نور نهار ضئيل فقط من كوات صغيرة قرب السقف. سرت ببطء على طول البهو، أتعجب من تلك الآلات، وكنت

منشغلاً بها بتركيز شديد إلى حد أننى لم ألاحظ التضاؤل التدريجى فى الضوء، إلى أن لفت انتباهى قلق (وينا) المتزايد. ثم رأيت أن البهو، يمتد لتغوص نهايته فى ظلام حالك. ترددت لبرهة، ثم لاحظت وأنا أنظر حولى، أن التراب كان أقل سمكًا وأن سطحه أقل استواء. على مسافة أبعد نحو الظلمة، ظهرت آثار أقدام صغيرة عديدة، مرتسمة على السطح الترابى فى اتجاه الظلمة. بوجود الـ (مورلوك) الوشيك عن كثب منى شعرت بغتة بأننى كنت أبدد وقتى فى هذا الفحص التقليدى للآلات. تذكرت أن فترة المساء قد اقتربت، وأنا لا أزال بلا سلاح ,ولا مكان آمن ,ولا وسيلة لإشعال نار. ثم تنامى إلىّ من الأسفل فى السواد الدامس للبهو البعيد صوت هدير عجيب، ونفس الطنين الغريب الذى سمعته عندما هبطت إلى داخل البئر.

أمسكت بيد (وينا) ثم تركتها، إذ خطرت ببالى فكرة فجائية، التفت إلى آلة تبرز منها رافعة لا تختلف كثيرًا عن الرافعة فى صندوق إشارة السكك الحديدية. بعد أن تسلقت صاعدًا فوق قاعدة الآلة، قبضت على هذه الرافعة بقوة بيدى الاثنتين، وألقيت بكل ثقل جسمى عليه يمينًا ويسارًا. فجأة، أخذت (وينا) تغمغم فى قلق بعد أن تركتها وحدها فى القاعة الرئيسية. كنت قد أصبت فى تقدير قوة الرافعة، فقد استطعت انتزاعها بعد دقيقة، ثم عدت وانضممت إليها وأنا أحمل قضيبًا حديديًا فى يدى كان أكثر من كاف لتحطيم جمجمة أى من الـ (مورلوك) عند حدوث المواجهة. وكنت فى غاية الاشتياق لقتل واحد أو أكثر من الـ (مورلوك). قد ترون أن هذه الرغبة فى قتل واحد من نسلنا وذريتنا عمل غير

إنسانى بالمرة! لكن صدقونى لقد كان من المستحيل أن تستشعروا فى هذه المخلوقات أى إنسانية بأى حال من الأحوال. ما منعنى من الهبوط مباشرة فى البهو وقتل الوحوش الذين سمعت أصواتهم هو فقط عدم رغبتى أن أترك (وينا) وحدها، واقتناعى بأننى إن رويت ظمئى فى قتلهم فإنهم قد يحطمون آلتى الزمنية.

حسنًا، فيما كان قضيب فى إحدى يدىّ ويد (وينا) فى اليد الأخرى، خرجت من ذلك البهو داخلاً بهوًا آخر أكبر منه، ذكرنى عند النظرة الأولى بكنيسة تابعة للجيش معلقة بها رايات وأعلام ممزقة. تبينت على الفور أن هذه الخرق البنية الداكنة المعلقة من الجانبين كانت بقايا متحللة لكتب. كانت قد سقطت مهترئة منذ زمن بعيد، وقد اختفى منها كل أثر لحروف الطباعة. لكن أغلفة كتب ممزقة بمشابك معدنية صدئة حكت القصة بقدر الإمكان. لو كنت مشتغلاً بالأدب، لربما أيقنت ـ بعدما رأيت ـ من عدم جدوى أى طموح، لكن ما انصرف إليه ذهنى أكثر، فى هذه اللحظات هو تلك الصدمة القوية التى عصفت بتفكيرى والمتمثلة فى الضياع الهائل للجهد الذى بذل فى كل هذه المصنفات وأضحى مجرد ورق مهترئ. أعترف أن هذا حدث فى الوقت الذى كان يشغل تفكيرى أبحاثى الفلسفية ومذكراتى السبع عشرة عن البصريات الفيزيائية.

بعد ارتقاء سلم عريض، وصلنا إلى ما يمكن أن يكون فى يوم من الأيام قسمًا للكيمياء الصناعية. وهنا لم يخامرنى أدنى أمل فى أن أكتشف أشياء نافعة. كان هذا البهو فى حالة جيدة إلا عند نهايته حيث تقوض السقف. اتجهت، بلهفة إلى جميع صناديق العرض غير

المكسورة. وأخيرًا، وجدت علبة ثقاب فى أحد الصناديق محكمة الإغلاق وضد تسرب الهواء. بلهفة شديدة، جربت الثقاب. فوجدته فى حالة جيدة جدًا ولم تصل إليه الرطوبة. التفت إلى (وينا) وصحت بها بلغتها: "ارقصى". فقد أصبح لدى سلاح فعال حقًا ضد تلك المخلوقات البغيضة التى نخاف منها. وهكذا، رقصت بوقار نوعًا من رقص مرتجل مصفرًا لحن "أرض الإخلاص" بأقصى ما أمكننى من ابتهاج، فى ذلك المتحف المتقوض على سجادة التراب الناعمة مثيرًا سرورًا عظيمًا فى نفس (وينا). كان جزء منها رقصة (كانكان)[٤٤] متواضعة وجزء آخر رقصة خطوات[٤٥]، وجزء ثالث رقصة تنورة[٤٦] (قدر ما سمحت لى سترتى الخطافية[٤٧] بذلك)، وجزء منها رقصًا أصيلاً. فأنا ذو طبيعة ابتكارية كما تعلمون.

الآن، ما زلت أرى أن علبة الثقاب هذه التى من الزمن لسنين موغلة فى القدم كان أمرًا عجيبًا وأعظمها حظًا بالنسبة إلىّ. مع ذلك وبالصدفة وحدها وجدت مادة مختلفة تمامًا، عن الثقاب وهى (الكافور)[٤٨] وهو أمر بالغ الغرابة. قد وجدته فى إناء مختوم، كان محكم الغلق ضد تسرب الهواء إليه. تصورت فى البداية أنه كان شمع (بارافين)[٤٩]، فكسرت الزجاج على هذا الأساس. لكن رائحة

---

(٤٤) رقصة فرنسية تتميز بركل الأرجل فى الهواء وتؤديها النساء (المترجم).

(٤٥) رقص يركز بشكل رئيسى على الخطوات (المترجم).

(٤٦) الجزء السفلى من ثوب نسائى (المترجم).

(٤٧) سترة رجالية لها ذيل طويل مشقوق ومستدير (المترجم).

(٤٨) مادة متبلورة لاذعة تستخدم فى صناعة المتفجرات (المترجم).

(٤٩) شمع من المركبات العضوية يتكون من الكربون والهيدروجين (المترجم).

الكافور كانت واضحة. ظلت هذه المادة التى تتميز بسهولة التطاير، باقية بطريقة غريبة فى هذا التقوض الشامل، ربما خلال ألوف من القرون. ذكرنى هذا بطلاء (الصيدج)(٥٠) الذى رأيته يصنع ذات مرة من حبر أحفور (بيليمنايت)(٥١) الذى لابد أنه هلك وأصبح أحفورًا منذ ملايين السنين. كنت على وشك أن ألقى به بعيدًا، لكننى تذكرت أنه قابل للاشتعال ويحترق بلهب ساطع قوى - إنه شمعة ممتازة فى الحقيقة - فوضعته فى جيبى. لم أجد أية متفجرات برغم محاولاتى، ولا أية وسيلة لكسر وفتح أبواب البرونز فى قاعدة أبى الهول، لكن القضيب الحديدى كان أكثر الأسلحة التى وقعت يدى عليها فتكًا. مع ذلك، غادرت البهو ومعنوياتى مرتفعة للغاية.

ليس بإمكانى أن أخبركم بكل تفاصيل وقائع الأحداث خلال فترة بعد الظهر الطويل هذا. سوف يتطلب هذا الأمر مجهودًا مضنيًا فى تذكر هذه الوقائع وترتيبها وتسلسلها. أنا أذكر بهوًا طويلاً تكدست فيه أسلحة صدئة فوق حوامل معدنية، وكيف ترددت بين القضيب الذى أمسك به وبلطة أو سيف. وتحيرت بين كل هذه الأسلحة إذ لم أكن أستطيع أن أحمل اثنين منها معًا، توصلت إلى أن قضيبى الحديدى سوف يكون أكثر فاعلية فى فتح بوابات البرونز. كانت هناك أعداد من مدافع ومسدسات وبنادق. كانت أغلبها عبارة عن كتل من الصدأ، لكن بعضًا منها كان من معدن جديد، وكاد يكون سليمًا. لكن لم أجد معها أية ذخيرة مثل خراطيش أو بارود، إذ إنها

---

(٥٠) صبغ أسود غامق يحضر من إفراز الكائن البحرى "الحبار" (المترجم).

(٥١) حيوان بحرى منقرض يشبه "الحبار" (المترجم).

بلا شك قد تحللت وصارت ترابًا عبر هذه السنوات العديدة. رأيت أحد الأركان متفحمًا متقوضًا. ربما كان ذلك ـ على الأرجح ـ بفعل انفجار بين الذخيرة. وفى قاعة أخرى قامت مجموعة عديدة من تماثيل بولينيزية(٥٢) ومكسيكية ويونانية وفينيقية، ومن كل بلد يمكننى أن أتذكره على سطح الأرض. ودفعتنى رغبة مفاجئة، إلى كتابة اسمى هنا على أنف تمثال وحش من (الإستياتيت)(٥٣) من أمريكا الجنوبية استأثر بإعجابى بسبب شكله الغريب.

ومع اقتراب المساء، أخذ فضولى يتضاءل. عبرت من بهو إلى آخر، أبهاء متربة وساكنة ومتقوضة فى معظم الأحيان، وكانت المعروضات فيها أحيانًا مجرد أكوام من صدأ و(ليجنيت)(٥٤) وكان بعضها غير مألوف. وأخيرًا عثرت فى أحد الأروقة على نموذج لمنجم قصدير، ثم اكتشفت بمحض الصدفة إصبعى ديناميت فى صندوق عرض محكم الغلق غير مسرب للهواء! صحت: "وجدتها!" وحطمت الصندوق مبتهجًا وأخرجت إصبعى الديناميت. ثم أحسست بريبة فترددت. آنذاك، وبعد أن اخترت رواقًا جانبيًا صغيرًا، قمت بتجريتى. لم أشعر بخيبة أمل أبدًا كتلك التى شعرت بها آنذاك وأنا أنتظر مدة خمس، وعشر، وخمس عشرة دقيقة دون أن يحدث الانفجار المتوقع. كان الديناميت نماذج مقلدة وليست حقيقية، كما كان علىّ أن أتوقع هذا من وجود الديناميت فى هذا

---

(٥٢) مجموعة كبيرة لأكثر من ١٠٠٠ جزيرة فى المحيط الهادى (المترجم).
(٥٣) "حجر الصابون" وهو صخر معدنى ناعم أبيض أو مخضر أو رمادى صابونى الملمس (المترجم).
(٥٤) نوع من الفحم الحجرى ذو لون بنى (المترجم).

المكان. اعتقدت أنها لو كانت حقيقية لاندفعت كالمجنون وفجرت أبواب أبى الهول البرونزية. ولو حدث هذا (كما اتضح لى فيما بعد) لكنت قد نسفت أيضًا كل آمالى فى العثور على آلة الزمن واستردادها!

وكما أذكر أننا بعد ذلك، وصلنا إلى فناء صغير مفتوح داخل القصر. كان ينمو فيه العشب الكثيف وفيه ثلاث أشجار فاكهة. وهناك استرحنا وجددنا نشاطنا. نحو غروب الشمس، بدأت أفكر وأتأمل فى موقفنا. كان الليل يزحف نحونا ويكاد يحتوينا، وكان لا بد أن أعثر على ملاذنا الآمن الذى يمكننا الوصول إليه، لكن هذا الأمر أصبح يسبب لى بعض الاضطراب آنذاك. كان فى حوزتى عندئذ السلاح الذى ربما كان أفضل وسائل الدفاع ضد الـ (مورلوك).. كان لدىّ الثقاب! وكان فى جيبى الكافور أيضًا إذا احتجت إلى شعلة كبيرة متوهجة. وبدا لى أن أحسن ما يمكننى فعله آنذاك هو أن أمضى الليل فى العراء تحمينا شعلة من النيران. وفى الصباح أحاول استرجاع آلة الزمن. حتى ذلك الوقت، كان لدى قضيبى الحديدى فقط لتحطيم الأبواب البرونزية. لكن مع تزايد معلوماتى عن تلك الأبواب البرونزية أصبحت أنظر إليها بشكل مختلف، حتى هذا الوقت، تجنبت الصدام مع الـ(مورلوك)، بسبب الغموض الذى يكتنف ذلك العالم السفلى. إنهم لم يعطونى أبدًا انطباعًا بأنهم يتمتعون بقوة خارقة، ومع هذا لم أرغب فى أن أكتشف أن قضيبى الحديدى غير مناسب للتعامل معهم.

غادرنا القصر الأخضر وجزء من الشمس لا يزال معلقًا فوق الأفق. عزمت على الوصول إلى تمثال أبى الهول الأبيض فى ساعة مبكرة من الصباح التالى، فاندفعت قبل الغسق خلال الغابة التى اعترضت طريقى فى الرحلة السابقة. كانت خطتى هى أن أقطع أطول مسافة ممكنة فى تلك الليلة، ثم أشعل نارًا لأنام فى حماية وهجها. تنفيذًا لذلك، فيما كنا نسير مندفعين إلى الأمام، جمعت كل فروع الأشجار والأعشاب الجافة التى وقع عليها نظرى. امتلأت ذراعى بأكوام منها. وأنا محمل بهذا الشكل سرعان ما كنا نتقدم أبطأ مما قدرته من قبل، بالإضافة إلى أن (وينا) كانت مرهقة. وبدأت أعانى من النعاس بدورى، خيم الظلام تمامًا قبل أن نصل إلى الغابة. وما إن بلغنا التل المكسو بالشجيرات عند حافة الغابة حتى توقفت (وينا) خائفة من الظلام الذى يلوح أمامنا. لكن إحساسًا مروعًا بكارثة على وشك الوقوع، كان لابد أن يعمل على إنذارى ودفعى إلى التقدم. عانيت من الأرق مدة ليلة ويومين، وكنت محمومًا ومنفعلاً. شعرت بالنوم يطبق علىّ، والـ (مورلوك) أيضًا.

بينما كنا نتردد بين الشجيرات السود فيما وراءنا والعتمة التى تربض أمام سوادها، رأيت ثلاثة أجسام جاثمة ومتربصة. كانت تحيط بنا من جميع الجهات أشجار خفيضة وأعشاب طويلة ولم أشعر بالطمأنينة من اقترابهم الغادر. كانت الغابة، كما توقعت تمتد إلى أقل من ميل تقريبًا. وبدا لى أننا إذا تمكنا من اختراقها، ووصلنا إلى سفح التل الخالى من الأشجار، سيكون هناك ملاذ آمن تمامًا كما تراءى لى، فقد فكرت أننى أستطيع باستخدام الثقاب

والكافور أن أبتكر وسيلة لإبقاء طريقى مضاءً عبر الغابة. لكنه كان من الواضح أننى إن كنت سأشعل الثقاب بيدىّ كلتيهما فلابد أن أترك الحطب الذى جمعته من قبل. لذلك ـ وعلى مضض ـ وضعت الحطب على الأرض. ثم فكرت فى أن أذهل (المورلوك) خلفى بإشعالى النار. كان لابد أن أكتشف الحماقة البالغة لهذا العمل وما أسفر عنه من عواقب وخيمة، لكن فكرت آنذاك بأنه سيكون وسيلة بارعة لتغطية انسحابنا.

لا أعرف إن كان بإمكانكم تخيل مدى غرابة منظر لهب كهذا فى غياب الإنسان وفى مناخ معتدل. نادرًا ما تكون حرارة الشمس ليست لديها القوة الكافية للاحتراق، حتى لو عكست أشعتها فى بؤرة قطرات الندى، كما يحدث أحيانًا فى مناطق استوائية. فقد تبرق السماء، ويؤدى البرق إلى سواد الأشياء، لكنه نادرًا ما يشعل نارًا على نطاق واسع. قد تشتعل النباتات المتحللة فى بعض الأحيان من الحرارة التى تنشأ عن تخمرها، لكنه نادرًا ما ينتج عن هذا لهب. وفى هذه الحقبة من الانحلال البشرى أيضًا، كانوا قد نسوا فن إشعال النيران على الأرض. كانت الألسنة الحمراء التى تصاعدت من كومة الحطب، أمرًا مثيرًا تمامًا وغريبًا لـ (وينا).

أرادت أن تركض نحوها وتلعب بها. أظن أنها كانت سترمى بنفسها إلى داخل هذه النار لتلهو بها لولا أننى منعتها. ولحقت بها، على الرغم من مقاومتها، ثم اندفعت بجرأة أمامى داخل الغابة. أنار وهج نارى الممر إلى مسافة قصيرة. وبعد هنيهة، وفيما أنا أستدير إلى الوراء بعد أن رأيت من خلال سيقان النباتات المتشابكة أن

اللهب سرى من كومة العصى الخشبية إلى بعض الشجيرات المجاورة، وأن قوسًا من النيران كان يزحف صاعدًا فوق عشب التل.

الأمر الغريب أننى ضحكت على هذا المشهد، وحولت نظرى نحو الأشجارالمعتمة أمامى من جديد. كان المكان حالك السواد، وتعلقت (وينا) بى فى تشنج، لكنه ظل ثمة ضوء شاحب كاف لى مكننى من تجنب سيقان النباتات المتشابكة، عندما ألفت عيناى الظلام فوق قمم الأشجار فقد كانت الظلمة متكاثفة، ما عدا المواضع التى كانت فيها فجوة سماء بعيدة زرقاء تلتمع على رءوسنا هابطة فى كل مكان. لم أشعل أى عود ثقاب لأن يدىّ كانتا مشغولتين. على ذراعى اليسرى حملت صغيرتى (وينا) وفى ذراعى اليمنى أمسكت قضيبى الحديدى ,سلاحى الوحيد.

قطعت مسافة ما، خلال الغابة، لم أسمع فيها شيئًا إلا الأغصان الخالية من الأوراق وهى تتكسر تحت قدمى، وحفيف النسيم الواهن فوقى، وتردد أنفاسى ونبض أوعيتى الدموية فى أذنى. ثم خيل إلىّ أننى أسمع نقرًا يحيط بى. اندفعت متجهًا إلى الأمام، أصبح النقر أكثر وضوحًا، ثم سمعت تلك الأصوات الغريبة نفسها التى سمعتها فى العالم أسفل الأرض. وأصبح واضحًا أن هناك الكثير من الـ(مورلوك) يوشكون على مهاجمتى. وبعد دقيقة أحسست فعلاً بشىء ما يجذب سترتى ثم تحسست ذراعى يد غريبة، فارتعدت (وينا) بعنف، وجمدت حركتها تمامًا.

كان وقتًا مناسبًا لإشعال عود ثقاب. لكن كان لابد أن أنزل (وينا) على الأرض لكى أخرج عود ثقاب من جيبى. وأنزلتها بالفعل

ووضعتها بين قدمى، وبينما كنت أبحث عن علبة الثقاب فى جيبى، بدأت معركة عند مستوى ركبتى فى الظلام، كانت (وينا) صامتة تمامًا مع انطلاق ذلك الصوت الغريب الذى يشبه هديل الحمام، الذى يصدره الـ (مورلوك). أخذت أيد صغيرة ناعمة تتحسس سترتى وظهرى لامسة حتى رقبتى. ثم أشعلت عود ثقاب ورفعته وهو متوهج، فرأيت ظهور الـ(مورلوك) البيضاء وهم يفرون بين الأشجار لائذين بالفرار. وبسرعة أخرجت كتلة من الكافور من جيبى، وشرعت فى إشعالها ريثما يخفت لهيب عود الثقاب. ثم نظرت إلى (وينا) كانت تستلقى متشبثة بقدمى وهى ساكنة تمامًا، ووجهها إلى الأرض. انتابنى فزع فجائى عليها ثم أخذ يسيطر على كل جوانحى، فانحنيت عليها. بدا أنها لا تكاد تتنفس. أشعلت كتلة الكافور على عجل ورميت بها على الأرض، حالما انشطرت إلى أجزاء تصاعدت منها ألسنة متوهجة اندفعت عاليًا وطردت الـ(مورلوك) إلى الوراء، وكذلك فلول الظلال، ركعت ورفعتها، بدت الغابة خلفى مليئة بحركة وغمغمة حشد كبير من الـ (مورلوك).

خيل إلى أنها كانت مغشيًا عليها. فوضعتها برفق على كتفى ونهضت واقفًا لأستأنف السير إلى الأمام، ثم انكشفت لى حقيقة مروعة. إذ أثناء مناورتى بأعواد الثقاب وانشغالى بـ (وينا)، درت حول نفسى عدة مرات، ومن ثم لم تعد لدى الآن أدنى فكرة فى أى اتجاه يمتد الطريق الذى خططت للسير فيه. كان كل ما عرفته هو أننى ربما كنت أتجه إلى قصر الخزف الصينى الأخضر. شعرت بنفسى وقد تصبب منى عرق بارد. كان علىّ أن أفكر بسرعة فيما أفعله، فقررت أن أشعل نارًا وأخيم حيث كنا. وضعت (وينا)، وهى

لا تزال مغشيًا عليها، على جذع شجرة تنمو عليه الأعشاب، وأخذت أجمع بسرعة سيقان النباتات وأوراق الأشجار، وكتلة الكافور الأولى تتضاءل نارها. وفى كل مكان من طيات الظلام المتكاثفة حولى، التمعت عيون الـ (مورلوك) كالجمر.

خفقت كتلة الكافور وانطفأت فأشعلت عود ثقاب، وبينما كنت أشعله، تراجعا بسرعة وفرا بعيدا! مخلوقان أبيضان كانا يتقدمان للانقضاض على (وينا). كان أحد المخلوقين قد أصابه العمى من وهج النيران إلى الحد أنه اندفع نحوى مباشرة، فأحسست بعظامه تنسحق تحت ضربات قبضتى. أطلق صيحة رعب، ترنح فى سيره إلى مسافة قصيرة، وسقط على الأرض بلا حراك. أشعلت قطعة أخرى من الكافور، ثم استكملت جمع كومة الحطب. عندئذ لاحظت مدى جفاف بعض أوراق النباتات والأشجار فوقى، فلم تسقط أية أمطار منذ وصولى فى آلة الزمن أى قبل نحو أسبوع. لذلك أخذت أقفز إلى أعلى وأسحب إلى الأسفل الفروع بدلاً من أن أجمع الأغصان الصغيرة المتساقطة حولى بين الأشجار. سرعان ما أشعلت نارًا خانقة وكثيفة الدخان من حطب أخضر وعصى جافة، وتمكنت من الاقتصاد فى الكافور الذى أحمله. ثم استدرت إلى حيث ترقد (وينا) إلى جانب قضيبى الحديدى. حاولت أن أنعشها قدر استطاعتى، لكنها استلقت كأنها ميتة. لم أستطع حتى أن أقرر إذا كانت تتنفس أو توقفت عن التنفس نهائيًا.

هب الدخان آنذاك فى اتجاهى، ولا بد أنه أصابنى فجأة برغبة فى النوم، إضافة إلى أن بخار الكافور كان ينتشر فى الجو. لم تكن نارى بحاجة إلى إعادة إذكائها لمدة ساعة أخرى على الأقل، أو

نحوها. شعرت بالإرهاق الشديد بعد الجهد الذى بذلته، وتهالكت فوق الأرض. كانت الغابة تزخر بدمدمة باعثة على النوم، لم أستطع فهمها. بدا أننى غفوت قليلاً ثم فتحت عينى مباشرة. لكن الظلام كان يخيم على كل ما حولى، وكان الـ (مورلوك) يضعون أيديهم على جسمى. فدفعت على عجل أصابعهم القابضة علىّ، وتحسست بسرعة داخل جيبى بحثًا عن علبة الثقاب ,ففوجئت بأنها اختفت! ثم قبضوا علىّ وأطبقوا علىّ من جديد. عرفت خلال لحظة ما حدث. فقد استغرقت فى النوم، وخمدت النار الى أشعلتها، وجثمت على روحى مرارة الموت. بدت الغابة ملأى تمامًا برائحة الخشب المحترق. وقبض علىّ الـ (مورلوك) من رقبتى، وشعرى، وذراعىّ، وطرحونى أرضًا. كان من المروع على نحو لا يوصف أن أشعر بكل هذه المخلوقات البشعة تنقض علىّ فى الظلام. أحسست كأننى أتخبط داخل نسيج عنكبوت مخيف. لقد تغلبوا علىّ، فهويت على الأرض. أحسست بأسنان صغيرة تقضم فى عنقى. فتدحرجت حول نفسى، وفيما كنت أفعل ذلك، وقعت يدى على القضيب الحديدى الذى سرعان ما بث القوة فى أوصالى. كافحت لأقف على قدمى، نافضًا تلك الفئران البشرية بعيدًا عنى، وما إن قبضت على القضيب بإحكام حتى أخذت أضرب بكل قوتى وجوههم. وشعرت باللحم السمين والعظام تنهار تحت ضرباتى، وهكذا تحررت من قبضتهم. امتلكنى نوع من الابتهاج الغريب الذى لعله مصاحب للقتال العنيف. عرفت أننى و(وينا) مقضى علينا دون شك، لكننى صممت أن أجعل الـ (مورلوك) يدفعون ثمنًا باهظًا لوجبتهم التى سوف يتناولونها من لحمنا. أسندت ظهرى إلى شجرة، وأخذت

أطوح القضيب الحديدى أمامى. كانت الغابة كلها تعج بحركاتهم وصرخاتهم. ومرت دقيقة. ارتفعت ضجة أصواتهم إلى درجة عالية من الانفعال، وتسارعت حركاتهم. لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على التقدم إلى مدى متناول يدى. وقفت محدقًا فى الظلام. راودنى الأمل بغتة. ما الذى سيحدث إن كان الـ (مورلوك) خائفين؟ وفى أعقاب تلك الخاطرة حدث شىء غريب. بدا أن الظلام أخذ ينقشع ويزداد ضياء. بدأت أرى الـ (مورلوك) المحيطين بى على نحو معتم للغاية - وثلاثة منهم صرعى عند قدمى - ثم تيقنت بدهشة لا تصدق أن الآخرين كانوا يفرون فى شكل سيل لا ينقطع، من خلفى على ما ظهر لى، وبعيدًا عبر الغابة إلى الأمام. لم تعد ظهورهم تبدو بيضاء، بل محمرة. فيما أنا أقف مشدوهًا، رأيت شرارة حمراء صغيرة تنطلق عبر فجوة مضاءة بنور النجوم بين أغصان الأشجار وتختنى. وعندئذ فهمت سبب انبعاث رائحة الخشب المحترق، الدمدمة الهامسة التى كانت ترتفع الآن لتصبح هديرًا عاصفًا ، والوهج الأحمر، وفرار الـ(مورلوك).

بعدما ابتعدت عن الشجرة التى كنت أستند عليها والتفت إلى الخلف ,رأيت من خلال الأعمدة السوداء للأشجار القريبة ألسنة لهب الغابة المحترقة. كان حريقى الأول الذى أشعلته يتعقبنى.

عندئذ بحثت عن (وينا)، لكنها كانت قد اختفت. ولم تكن لدىّ أية فرصة كبيرة للتفكير، بسبب صوت الصفير الحاد والطقطقة والصوت المكتوم كالذى يصدر عن وقوع شىء ثقيل عندما تسقط كل شجرة جديدة ملتهبة، كنت لا أزال أقبض على قضيبى الحديدى، حين تبعت مسار الـ (مورلوك). كانت مطاردة عن قرب. كان اللهب

يزحف أحيانًا إلى الأمام بسرعة على يمينى وأنا أركض، إلى حد أنها كانت تحاصرنى به، وكان علىّ أن أندفع إلى اليسار. لكننى وجدت نفسى أخيرًا فى مساحة مكشوفة خالية من الأشجار، حينما وصلت إلى هناك، اندفع أحد الـ (مورلوك) متخبطًا نحوى واجتازنى، وتابع الاندفاع إلى داخل النار مباشرة!

عندئذ، كان علىّ أن أرقب أغرب المشاهد التى رأيتها فى ذلك المستقبل، وأشدها رعبًا. كان الفضاء كله ساطعًا وكأننا فى وضح النهار، بتأثير انعكاس النيران. كانت فى الوسط رابية أو ركام تراب محاط بشجيرات "العِضَّة"(٥٥) المحترقة. امتد وراء هذا جزء آخر من الغابة المحترقة، مع ألسنة صفر تنطلق منها، محيطة المكان بالكامل بسياج نار. كان على سفح التل حوالى ثلاثين أو أربعين من الـ (مورلوك) وقد أعماهم الضوء والحرارة، وهم يتخبطون مندفعين هنا وهناك، ثم أخذوا يتصادم بعضهم ببعض فى ارتباكهم ومحاولتهم النجاة. فى البداية، لم يتضح لى عماهم فضربتهم بعنف بالقضيب الحديدى، مندفعًا بجنون الرعب منهم. وعندما تقدموا منى، قتلت واحدًا منهم وأصبت المزيد منهم. لكننى حين راقبت حركات واحد منهم وهو يتحسس طريقه تحت شجيرة (العضة) أمام السماء الحمراء وتنامت إلى سمعى أناتهم، تأكدت من عجزهم التام وبؤسهم فى مواجهة تأجج النيران، فتوقفت عن ضربهم.

لكن بين فترة وأخرى، كان ينطلق فى اتجاهى واحد من الـ (مورلوك) محدثًا هلعًا ترتعد له أوصالى يدفعنى إلى أن أبتعد

---

(٥٥)"زعرور الأودية" شجيرات شائكة لها عناقيد بيضاء أو وردية وثمار حمراء (المترجم).

عنه بسرعة. وذات مرة حدث أن خمد اللهب نوعًا ما، وتخوفت أن تتمكن هذه المخلوقات البغيضة من مشاهدتى آنذاك. حتى إننى فكرت فى بدء معركة أقوم فيها بقتل البعض منهم قبل أن يحدث هذا، لكن النار توهجت من جديد متألقة فتوقفت عن هذه الأفكار. أخذت أتجول حول التل بينهم لكننى كنت أتفاداهم، كنت أبحث عن أى أثر لـ (وينا)، لكن (وينا) كانت قد اختفت تمامًا!

أخيرًا، جلست على قمة رابية، وراقبت جماعة هذه المخلوقات العمياء الغريبة التى لا تصدق، التى تتلمس طريقها على غير هدى نحو الخلف والأمام، التى يصدر عنها ضجة عالية، ووهج النار يندفع نحوها. تدفق الدخان لولبى الشكل صاعدًا عبر السماء، وخلال الثغرات النادرة فى تلك المظلة الحمراء، تألقت النجوم الصغيرة النائية كأنها تنتمى إلى كون آخر. تقدم اثنان أو ثلاثة من الـ (مورلوك) يمشون باضطراب ليصطدموا بى، فدفعتهم بعنف بعيدًا عنى بضربات من قبضتى، وكنت أرتعد وأنا أقوم بهذا.

راودنى إحساس بأننى معظم تلك الليلة كنت تحت تأثير كابوس مروع وأخذت أعض نفسى وأصرخ لعلى أستيقظ من النوم. ضربت الأرض بيدى، وقمت واقفًا وجلست من جديد وتجولت فى أماكن متعددة، ثم جلست ثانية. ثم أخذت أفرك عينى وأبتهل إلى الله أن يجعلنى أظل مستيقظًا. ثلاث مرات رأيت الـ (مورلوك) يحنون رؤوسهم فى ألم مبرح ويندفعون إلى داخل أتون النار. لكن ضوء النهار الأبيض انبلج فى السماء، أخيرًا، فوق احمرار النار الخابية وفوق كتل الدخان الأسود المتصاعدة وجذوع الأشجار المبيضة التى يجللها السواد، وفوق هذه المخلوقات الباهتة متناقصة العدد.

أخذت أبحث من جديد عن أى أثر يرشدنى إلى (وينا)، لكننى لم أعثر لها على أثر واحد. كان واضحًا أنهم تركوا جسدها الصغير المسكين فى الغابة. لا أتمكن أن أصف مدى الشعور بالارتياح الذى انتابنى وأنا أفكر فى أنها نجت من المصير الرهيب الذى كان فى انتظارها على يد الـ(مورلوك). فيما أنا أعمل فكرى فى ذلك، كدت أندفع لأبدأ بالقيام بمذبحة للانتقام من هذه المخلوقات البغيضة العاجزة واليائسة التى تتناثر فى كل مكان حولى، لكننى سيطرت على انفعالاتى. وكانت الربوة، كما قلت، بمثابة جزيرة فى تلك الغابة. أمكننى أن أشاهد ـ عندما وصلت إلى قمتها، وخلال سحب الدخان ـ قصر الخزف الصينى الأخضر، ومن هذا المكان كان بإمكانى تحديد طريقى نحو تمثال أبى الهول الأبيض. وهكذا تركت باقى هذه الأرواح الملعونة تتخبط هنا وهناك وهى تئن وتنوح، فيما كان النهار يزداد صفاء وبهاء، ثبت بعض العشب بشريط حول قدمى، وعرجت متقدمًا فوق الرماد الذى يتصاعد منه الدخان ووسط السيقان السوداء التى كانت لا تزال تتذبذب بالنيران من الداخل، وسرت نحو المكان الذى خبئوا فيه آلة الزمن. مشيت ببطء، إذ كانت قوتى منهارة تقريبًا بالإضافة إلى أننى كنت أعرج، وأشعر بالتعاسة الشديدة للموتة الرهيبة التى لاقتها (وينا) الصغيرة. بدا لى أنها فاجعة صاعقة. الآن، فى هذه الحجرة العتيقة المألوفة، تراءى لى الأمر كحلم يدعو للحزن أكثر منه خسارة حقيقية. لكن ذلك الصباح تركنى وحيدًا تمامًا من جديد، دون رفيق، وحيدًا على نحو مروع. بدأت أفكر فى منزلى هذا، فى اجتماعاتنا حول هذه المدفأة، فى البعض

منكم.. تلا هذه الأفكار إحساس جارف بالحنين للعودة، أورثنى الألم.

لكن، وأنا أسير على الرماد الذى يتصاعد منه الدخان تحت سماء الصباح المشرق بالضياء توصلت إلى اكتشاف. فى جيب بنطلونى كانت لا تزال هناك بعض أعواد الثقاب على نحو طليق. لابد أنها تسربت من علبة الثقاب قبل أن يستولى عليها الـ (مورلوك).

- ١٠ -

وفى نحو الساعة الثامنة أو التاسعة صباحًا، بلغت نفس المقعد المصنوع من المعدن الأصفر والذى أشرفت منه على هذا العالم أمسية وصولى. فكرت فى استدلالاتى المتسرعة فى ذلك المساء، فلم أتمكن من أن أمنع نفسى من الضحك بمرارة على تلك الثقة التى كانت مستولية علىّ. تراءى لى نفس المشهد الجميل، النباتات والأعشاب والأشجار الوفيرة عينها، نفس القصور الجميلة والأطلال المهيبة، نفس نهر الفضة الجارى بين ضفتيه الخضراوين، وكان (الإيلوى) يرتدون ملابسهم الأنيقة البهيجة ويتحركون بين الأشجار. كان بعضهم يستحم فى نفس الموضع الذى أنقذت فيه (وينا) بالضبط، وشعرت بتذكرها وكأننى أصبت بطعنة ألم، فجأة وعلى البعد شاهدت السطوح المقببة فوق الطرق المؤدية إلى عالم ما تحت الأرض كأنها لطخات فوق المشهد العام. عندئذ أدركت ما هو سر الجمال الذى يظهر على قوم العالم العلوى. كانوا يقضون نهارهم فى سعادة وسرور، كان بهيجًا مثل نهار قطيع

مواش فى الحقل. وهم كقطيع الماشية أيضًا لا يعرفون أى أعداء، ولا يمكنهم تزويد أنفسهم بأية احتياجات. إلى أن يواجهوا مصيرهم المحتوم.

أحزننى مدى قصور الحلم الذى أصبح عليه العقل البشرى. لقد انتحر. أعد نفسه بثبات نحو الراحة وخلو البال، نحو مجتمع متزن يخيم عليه الأمان والاستمرارية كشعار، كان قد حقق آماله ليصل إلى هذا الوضع فى آخر الأمر. فى وقت ما، لابد أن الحياة والملكية وصلتا إلى الأمان التام تقريبا. اطمأن الأغنياء على ثرواتهم ورخائهم، ووثق الكادحون من حياتهم وعملهم. مما لا شك فيه أنه لم تكن ثمة مشكلة أى عاطلين عن العمل، ولا مشاكل اجتماعية تُركت دون حل وأدى هذا إلى مرحلة من الهدوء العظيم.

ثمة قانون للطبيعة، كثيرًا ما نهمل التفكير فيه هو أن تعدد وازدهار اتقاد الإمكانيات العقلية بمثابة تعويض عن التغيير والخطر والمتاعب التى تواجه الإنسان، إن حيوانًا فى حالة تكيف كامل مع بيئته هو مجرد آلة لا تفكر. فلا تلجأ الطبيعة إلى الذكاء إلا إذا ثبت أن العادة والغريزة لا جدوى منهما. ليس ثمة ذكاء حيث لا يوجد أى تغيير ولا أية حاجة إلى التغيير. إن تلك الحيوانات التى لا تشارك إلا جزئيًا فى الذكاء هى التى عليها أن تواجه تنوعًا هائلاً فى الحاجات والأخطار.

هكذا، فالرأى عندى أن إنسان العالم العلوى أصبح جميلاً وضعيفًا بينما اتجه إنسان عالم ما تحت الأرض إلى الصناعة الآلية فحسب. لكن تلك الحالة المثالية كان ينقصها أمر واحد متعلق

بالكمال الآلى، الاستمرارية المطلقة. من البين أن النظام الغذائى تحت الأرض تأثر بهذا وانهار مع مرور الأيام.

عادت الطبيعة الأم التى كانت تتضور جوعًا لبضعة آلاف من السنين، وبدأت من الأسفل. حيث عالم ما تحت الأرض الذى كان كل اهتمامه منصبًا على الآلات، التى ـ على الرغم من كمالها ـ كانت تحتاج إلى شىء من التفكير غير العادى، الذى لم يتعلق بالمبادرة والاستهلال، بل دعت إليه الضرورة.

وعندما لم يتمكنوا من الحصول على اللحوم الأخرى، التجئوا إلى اللحم البشرى وهو ما حرمته العادات والتقاليد القديمة فى عصرنا هذا. أقول لكم إن هذا ما رأيته أثناء مشاهدتى الأخيرة لعالم سنة ثمانمائة وألفين وسبعمائة وواحدة ٨٠٢٧٠١ . قد يكون تفسيرى خاطئًا قدر ما يمكن أن تبتكره فطنة العقل البشرى. على ذلك النحو تصورت الأمر حسب مفهومى الشخصى، وعلى هذا النحو أعرضه عليكم.

بعد إرهاقات وانفعالات ورعب الأيام الماضية، وعلى الرغم من حزنى على فقد (وينا)، كان هذا المقعد والمنظر الذى يوحى بالهدوء ودفء الشمس محببًا للغاية إلى نفسى.

كنت متعبًا للغاية، وناعسًا، وسرعان ما تحولت محاولتى لصياغة نظريات إلى الاستسلام لنعاس خفيف. وبمجرد تنبهى لهذا الأمر، أدركت ما أنا بحاجة إليه، فاستلقيت على الأعشاب واستغرقت فى نوم طويل وعميق.

استيقظت قبيل غروب الشمس. شعرت عندئذ بأننى فى مأمن ولن يمسك بى الـ (مورلوك) أثناء غفوتى، فتمطيت، وهبطت التل

نحو تمثال أبى الهول الأبيض. كنت أمسك بالقضيب الحديدى فى إحدى يدىّ، بينما اليد الأخرى أعبث بها بأعواد الثقاب فى جيبى.

حينئذ حدث ما لم أتوقعه على الإطلاق. فعندما اقتربت من قاعدة تمثال أبى الهول، وجدت مصاريع الأبواب البرونزية مفتوحة! وقد انزلقت إلى أسفل فى أخاديد لها.

عندئذ وقفت فجأة بالقرب منها، مترددًا فى الدخول.

شاهدت فى الداخل حجرة صغيرة، وعلى منصة فى ركن هذه الحجرة كانت تقبع آلة الزمن. كانت روافع التشغيل الصغيرة فى جيبى. وهكذا بعد استعداداتى وخططى لحصار أبى الهول، وجدت استسلامًا خانعًا. فألقيت بقضيبى الحديدى بعيدًا، وأنا أكاد أشعر بالأسف على عدم استعماله ضد الـ (مورلوك) .

خطر ببالى خاطر مفاجىء بينما كنت أنحنى للدخول من البوابة البرونز، على الأقل، أدركت أسلوب تفكير الـ (مورلوك) الساذج. فيما أنا أكتم رغبة قوية للضحك ساخرًا، وخطوت من خلال الإطار البرونزى ثم ارتقيت آلة الزمن. أصابتنى الدهشة عندما وجدت أنها زُيتت ونُظفت بعناية. حينئذ انتابنى الشك فى أن الـ (مورلوك) كانوا قد قاموا بتفكيك أجزاء منها، يحاولون بطريقتهم الغامضة فهم الغرض منها.

بينما كنت أرقب آلة الزمن وأتفحصها وأنا أحس بالسعادة من مجرد لمس أجزائها المبتكرة، حدث ما توقعته وخشيت منه، فقد ارتفعت ألواح البرونز منزلقة فجأة إلى أعلى وخبطت الإطار بصوت رنين عال وهكذا أغلقت البوابات البرونزية وأنا فى الداخل. لقد

أصبحت فى الظلام محاصرًا. هكذا دبر الـ (مورلوك) مؤامرتهم ووقعت فى الفخ، كما خيل إليهم. فضحكت فى نفسى بمرح. وسرعان ما سمعت غمغماتهم الضاحكة وهم يقتربون منى. وبهدوء بالغ حاولت أن أشعل عود ثقاب. كان علىّ أن أثبت الروافع فقط فى آلة الزمن ثم أختفى كشبح. لكن أمرًا واحدًا كنت قد أغفلته. لقد كان الثقاب من ذلك النوع البغيض الذى لا يشتعل إلا بحكّه على جانب علبة الثقاب. بوسعكم أن تتخيلوا كيف زايلنى كل هدوئى. راحت الوحوش الصغيرة تطبق علىّ. لمسنى أحدهم. ضربتهم ضربات ماحقة فى الظلام بالروافع، وبدأت أزحف بسرعة لأجلس على مقعد الآلة. ثم وضعت يد علىّ ثم تلتها أخرى. عندئذ كان علىّ أن أقاتل ببساطة ضد أصابعهم المصرّة على البحث عن روافعى، بينما كنت أتحسس باحثًا عن المواضع التى تُثبت فيها هذه الروافع. كادوا ينجحون فى الاستيلاء على إحدى الروافع منى. حين انزلقت من يدى، كان علىّ أن أنطح فى الظلام برأسى - وسمعت جمجمة أحد الـ (مورلوك) ترن - لأستعيدها. أظن أن هذه المعركة الأخيرة كانت أكثر التحامًا من ذلك القتال الذى دار فى الغابة.

وأخيرًا تمكنت من تثبيت الرافعة وضغطت عليها. وتحركت العقارب المعلقة فى لوحات التشغيل وانقشع الظلام عن عينىّ على الفور. وجدت نفسى فى ذات الضوء الرمادى والجلبة اللتين وصفتهما من قبل.

- ١١ -

حدثتكم من قبل عن الاضطراب والتشوش اللذين يصيبان كل

من يسافر فى الزمن. فى هذه المرة لم أكن جالسًا بشكل مريح على المقعد، بل كنت جالسًا جانبيًا غير مستقر. وظللت لفترة لا أستطيع تحديدها من الزمن، متشبثًا بالآلة وهى تتأرجح وتتذبذب، غير مدرك تمامًا بما حولى وإلى أين أنطلق. وعندما أرغمت نفسى على أن أنظر إلى العدادات من جديد، ذهلت حين أدركت أين وصلت. كان أحد العدادات يسجل مرور الأيام وعداد آخر يسجل آلاف الأيام، وآخر يحسب ملايين الأيام. عندئذ، بدلاً من تحريك الروافع إلى الاتجاه المضاد، دفعتها لتتقدم نحو الأمام، وحين ألقيت نظرة على هذه المؤشرات، وجدت أن عقرب آلاف الأيام كان يدور بنفس سرعة عقرب الثوانى فى ساعة يد، فى غياهب المستقبل.

فيما أنا أنطلق بسرعة إلى المستقبل، حدث تغير غريب على شكل الأشياء. فقد أصبح اللون الرمادى النابض بسرعة أكثر قتامة، حينئذ ـ مع أننى كنت لا أزال أسافر بسرعة مروعة ـ عاد تتابع النهار والليل الوامض، الذى كان يدل على انطلاق أكثر بطئًا عادة، وأصبح يبدى انطباعًا ظاهريًا أكثر تحديدًا. فى البداية، سبب لى هذا الحيرة الشديدة. ثم تباطأت تبدلات الليل والنهار أكثر فأكثر، كذلك صار مرور الشمس عبر صفحة السماء، إلى أن بدا أن هذه التبدلات تمتد خلال قرون. فى نهاية الأمر حوم شفق راسخ وأحاط بالأرض، وكان لا يشق هذا الشفق إلا عندما يتألق مذنب من وقت إلى آخر عبر السماء المظلمة. كان شريط النور الذى يشير إلى الشمس قد تلاشى منذ وقت طويل، فقد توقفت الشمس عن الغروب، وكانت ببساطة تصعد وتنخفض ناحية الغرب، وأصبح قرصها أعرض وأكثر احمرارًا. وتلاشى كل أثر للقمر. حلت نقاط

ضوء زاحفة، مكان تلك النجوم المحيطة والتى ازداد بطؤها، أخيرًا، قبل أن أتوقف بزمن قصير لم تعد الشمس الحمراء والبالغة الضخامة تتحرك عند الأفق، وأصبحت مثل قبة متقدة بحرارة باهتة، تعانى من وقت إلى آخر من خمود خاطف. تألقت ـ من جديد ـ ذات مرة ولمدة قصيرة بتوهج أشد، لكنها سرعان ما عادت إلى حرارتها الحمراء داكنة اللون. أدركت من تباطؤ مواعيد شروقها وغروبها انتهاء تأثير المد والجزر. وأخذت الأرض تدور بوجه واحد فقط نحو الشمس كما يواجه القمر الأرض فى زمننا الحالى وهو يدور حولها. توخيت الحذر البالغ، فقد تذكرت سقوطى السابق المندفع ووجهى إلى الأمام، رحت أقوم بعكس حركتى. استمرت العقارب الدائرة فى حركتها بشكل أبطأ فأبطأ إلى أن تراءت لى عقارب آلاف الأيام ثابتة، ولم تعد عقارب الأيام مجرد ضباب رقيق على قرصها. ظللت أبطىء رويدًا إلى أن صارت المعالم الخارجية المعتمة لشاطىء مقفر مرئية.

توقفت بسلاسة بالغة وجلست فى آلة الزمن، وأخذت أنظر حولى. لم تعد السماء زرقاء فى الاتجاه الشمالى الشرقى، بل كانت سوداء حالكة، وتألقت فى هذا السواد النجوم الشاحبة البيضاء بتألق ثابت. كانت السماء فى الأعلى حمراء قانية وبلا نجوم، وأصبحت السماء فى الاتجاه الجنوبى الشرقى أكثر إشراقًا وتحولت إلى لون قرمزى متوقد حيث يستقر قرص الشمس أحمر وبلا حركة. كانت الصخور حولى بلون محمر عميق، وكان أثر الحياة الوحيد الذى استطعت مشاهدته فى البداية هو تلك الخضرة اليانعة التى نمت بكثافة على كل نقطة بارزة على سطوح هذه

الصخور فى الاتجاه الجنوبى الشرقى. كانت نفس الخضرة العميقة التى يمكن أن يراها الإنسان فى طحالب الغابة أو على الفطريات التى تنمو فى الكهوف ,نباتات كتلك التى تنبت فى شفق دائم.

كانت آلة الزمن تستقر على شاطىء منحدر. بينما ترامى البحر بعيدًا نحو الجنوب الغربى، ليصعد فى أفق حاد مشرق أمام سماء كامدة. لم تكن هناك أية أمواج تتكسر على الشاطىء فى شكل رغوة، ولا أمواج عادية على صفحة المياه، فلم تكن ثمة نسمة ريح واحدة تهب، كان انتفاخ خفيف ـ كالزيت ـ فقط يرتفع وينخفض كتنفس طفيف لنائم، فأظهر أن البحر الأبدى كان لا يزال يتحرك وما زالت فيه نبضات الحياة. وعند الأطراف، عندما يتكسر الماء أحيانًا، امتدت قشرة كثيفة من الملح تبدو بلون أحمر وردى تحت السماء ذات الوهج النارى. أحسست بصداع فى رأسى، وأدركت أن تردد أنفاسى أصبح سريعًا للغاية. ذكرنى هذا الإحساس بتجربتى ـ التى لم تتكرر ـ فى تسلق الجبال، فاستنتجت من ذلك أن الهواء كان أكثر تخلخلاً مما هو عليه فى زمننا هذا.

وعلى البعد فى أعلى هذا المنحدر المقفر، سمعت صرخة ثاقبة، وشاهدت حشرة شبيهة بفراشة ضخمة بيضاء تنحرف وتخفق بجناحيها فى الفضاء، وبعد أن طارت فى دوائر اختفت فوق بعض التلال الصغيرة فى الخلف. كان صوتها مفجعًا إلى درجة أصابتنى بقشعريرة واستويت جالسًا بثبات على مقعد آلة الزمن. وبينما كنت أنظر حولى من جديد، أبصرت على مسافة قريبة منى للغاية ما تصورت أنه كتلة صخر مخضبة باللون الأحمر، أخذت تتحرك ببطء نحوى. ثم أدركت أن هذا الشىء كان مخلوقًا شبيهًا تمامًا بالسرطان

البحرى الهائل. هل يمكنكم أن تتخيلوا سرطانًا كبيرًا بحجم منضدة كبيرة، بأرجله المتعددة التى راحت تتحرك فى بطء وبغير تحديد، وفكيه الضخمين يتأرجحان، وهوائياته الطويلة كسياط سائقى العربات، وهى تتذبذب وتتلمس طريقها، وعينيه اللتين تطوفان بحثًا عن طريدة، تومضان فى اتجاهك من جانبى رأسه اللامعة والمصقولة كالمعدن، كان ظهره متجعدًا ومزخرفًا بانتفاخات كروية، وثمة قشرة متيبسة مخضرة تلطخ السطح وتتناثر هنا وهناك. كان بإمكانى أن أشاهد الزوائد العديدة لفمه معقد التركيب تهتز وتتحسس بينما كانت تتحرك.

وبينما كنت أحملق فى هذا الوحش المنذر بسوء الذى يزحف نحوى، شعرت بدغدغة فوق وجنتى كأنما حطت عليها ذبابة. حاولت طردها بيدى لكنها ما لبثت أن عادت بعد لحظة، ثم أتت على الفور واحدة أخرى على أذنى ،ضربت بقبضة يدى، وإذا بى أمسك بشىء شبيه بخيط انسل فى عجالة من يدى. وبإحساس مفاجىء بالغثيان، التفت ورأيت أننى قبضت على قرن استشعار سرطان مخيف آخر يقف ساكنًا خلفى تمامًا. كانت عيناه الشريرتان تدوران فى محجريهما، وفمه يتحرك بحيوية بتأثير شهيته، وأخذت مخالبه الضخمة البشعة الملطخة بمادة طحلبية سميكة ولزجة، تنقض علىّ. وفى لمح البصر وضعت يدىّ على الرافعة وضغطت عليها، ففصلت بينى وبين هذه الوحوش بمدة تقدر بنحو شهر. لكننى كنت ما أزال على نفس الشاطئ، عندئذ شاهدت السرطانات بوضوح بمجرد توقفى. بدت عشرات منها تزحف فى كل مكان فى الضوء المعتم، بين وريقات من خضرة كثيفة.

ليس بوسعى أن أنقل لكم ذلك الإحساس الذى انتابنى بالإقفار الذى يخيم على العالم تحت سماء شرقها مخضب باللون الأحمر والسواد يكلل شمالها، وبحر الملح الميت، والشاطئ الحجرى، قفر إلا من هذه الوحوش الزاحفة الكريهة، والشكل المنتظم الأخضر لفطريات غريبة تبدو وكأنها سامة، والهواء المخلخل الذى يؤذى رئتى الإنسان ,كل هذه المشاهد تسهم فى خلق تأثير مروع. وتحركت إلى المستقبل مائة سنة أخرى، وكانت هناك نفس الشمس الحمراء ـ أكبر قليلاً، وأكثر خفوتًا إلى حد ما ـ ونفس البحر الميت والهواء البارد ذاته، ومجموعة القشريات الأرضية بعينها الزاحفة إلى الداخل والخارج بين الأعشاب الخضراء والصخور الحمراء. وفى الاتجاه الغربى من السماء شاهدت خطًا شاحبًا منحنيًا يبدو كقمر جديد هائل.

هكذا انطلقت فى غياهب المستقبل متوقفًا بين الفينة والفينة، يجذبنى إلى الأمام رغبتى فى معرفة سر مصير الأرض، مراقبًا بافتتان غريب الشمس وهى تتضخم وتصبح أكثر خفوتًا فى السماء نحو الغرب، وحياة الأرض القديمة فى حالة تدهور. أخيرًا، بعد ما يزيد على ثلاثين مليون سنة من هذا العالم، حجبت قبة الشمس الحمراء الهائلة ما يقرب من عشر السماوات القاتمة. ثم توقفت من جديد، ولاحظت عندئذ اختفاء العدد غير المحدود من السرطانات الضخمة الزاحفة، وبدا الشاطئ الأحمر مقفرًا إلا من النباتات الطحلبية الخضراء الباهتة والفطريات. وأصبح الآن مرقطًا ببقع بيضاء. وهاجمنى برد قارص. تساقطت رقاقات ثلجية بيضاء نادرة، دوارة من وقت إلى آخر. فى الاتجاه الشمالى الشرقى، دفن وهج

الثلج تحت ضوء نجوم السماء حالكة السواد، ورأيت قمة متموجة لربوات بيضاء مائلة إلى اللون الوردى. امتدت أهداب ثلج على طول حواف البحر، بكتل منساقة إلى مسافات أكثر بعدًا، لكن المدى الواسع الرئيسى لمحيط الملح، وقد خضب بلون أحمر دموى تحت غروب الشمس الأبدى، لم يكن متجمدًا.

تطلعت إلى ما حولى لأتبين إذا كانت قد بقيت ثمة آثار لحياة أى حيوان وظل رعب أكيد يتعذر تحديده يشدنى إلى مقعد آلة الزمن. لكننى لم أشاهد شيئًا يتحرك فى الأرض أو السماء أو البحر, وشهدت ـ وحدها ـ المادة السميكة اللزجة واللزقة الخضراء على الصخور بأن الحياة لم تنقرض. ظهرت فى البحر سلسلة من الرمال الضحلة وانحسر الماء عن الشاطئ. وخيل إلىّ أننى شاهدت شيئًا ما أسود يتخبط فى حركته هنا وهناك على هذه الضفة، لكنه توقف عن الحركة عندما نظرت إليه، فقررت أن عينى خُدعتا، وأن الجسم الأسود كان مجرد صخرة. كانت النجوم فى السماء مضيئة للغاية وبدا لى أنها لا تصدر ومضات خفيفة ومتقطعة إلا قليلاً جدًا.

لاحظت فجأة أن الخط الخارجى الدائرى للشمس فى الاتجاه الغربى كان قد تغير، وأن ثمة تجويفًا ـ كان على الأرجح خليجًا ـ كان قد ظهر فى المنحنى. ثم أخذ يكبر أمام عينى. ربما حملقت لمدة دقيقة وأنا مرتاع فى هذا السواد المروع الذى كان يزحف حثيثًا على النهار، ثم تبينت أن كسوفًا للشمس قد بدأ. كان إما القمر أو كوكب عطارد يمر عبر قرص الشمس. ومن الطبيعى أننى ظننت ـ فى البداية ـ أنه القمر، لكن أمورًا كثيرة حملتنى على الاعتقاد بأن ما

رأيته حقًا كان انتقالاً فلكيًا لكوكب داخلى يمر على مقربة شديدة من الأرض.

تكاثف الظلام بسرعة، وبدأت ريح باردة تهب فى هبات منعشة من ناحية الشرق، وتزايد وابل الرقاقات الثلجية البيضاء التى تتساقط فى الجو. ومن ناحية حافة البحر صدر تماوج وهمس. كان العالم صامتًا باستثناء هذه الأصوات غير النابضة بالحياة. كان عالمًا صامتًا من الصعوبة أن أنقل لكم عمق هذا السكون. كل أصوات الإنسان، وثغاء الغنم، وصراخ الطيور، وطنين الحشرات، والحركة التى تكوّن الخلفية التى تبرز وتوضح حياتنا ,كل هذا تلاشى. وما إن ازدادت كثافة الظلام، حتى تزايدت أعداد رقاقات الثلج الدوارة المتساقطة تلتمع أمام عينىّ، وأصبح برد الهواء أشد. وأخيرًا، اختفت ـ بسرعة ـ قمم التلال البيضاء البعيدة واحدة إثر الأخرى فى الظلمة الدامسة. تحول النسيم إلى ريح تصدر صوتًا شبيهًا بالأنين. رأيت الظل الأسود المركزى للكسوف ينساب نحوى. بعد فترة زمنية قصيرة، أصبحت النجوم الشاحبة المرافقة وحدها هى المرئية . أما كل شىء آخر فكان ظلامًا لا شعاعى. كانت السماء حالكة السواد تمامًا.

جثم على صدرى رعب هذا الظلام المروع. استحوذ علىّ البرد، الذى تخلل نخاع عظامى، والألم الذى شعرت به كلما تنفست. ارتعدت أوصالى، وتملكنى فجأة غثيان مهلك. ثم ظهرت حافة الشمس كقوس أحمر ساخن فى صفحة السماء. هبطت من آلة الزمن لأتمالك نفسى. أحسست بالدوار وبأننى غير قادر على مواجهة رحلة العودة إلى زمنى. فيما أنا أقف مصابًا بالغثيان

وبالارتباك، رأيت ثانية ذلك الشيء المتحرك على منطقة المياه الضحلة -لم يكن ثمة خطأ الآن في أنه كان بالفعل شيئًا متحركًا - أمام المياه الحمراء للبحر. كان شيئًا مستديرًا، ربما كان بحجم كرة قدم، أو لعله أكبر، وكان يسحب وراءه مجسات متدلية من جسمه، فبدا أسود أمام المياه المضطربة الحمراء بلون الدم، وكان يثب بخفة وتشنج ليس في اتجاه محدد. ثم أحسست بأنني سوف أفقد الوعي. لكن خوفًا مروعًا من البقاء عاجزًا وغير قادر على تدبير أموري في ذلك الشفق البعيد الرهيب دعمني وأمدني بالقوة، بينما كنت أزحف إلى مقعد آلة الزمن.

- ١٢ -

هكذا عدت من جديد إلى زمني، ولا بد أنني ظللت فاقد الوعي لمدة طويلة على مقعد آلة الزمن. فقد استأنف وميض تتابع النهار والليل، واستردت الشمس لونها الذهبي مرة أخرى، وعادت السماء زرقاء. ورحت أتنفس بحرية أكبر. وتدفقت مشاهد الأرض المتموجة إلى الأمام والخلف. ودارت العقارب بسرعة إلى الخلف على قرص الأرقام. وأخيرًا، شاهدت ظلال بيوت معتمة ثانية، دليلاً على البشرية المتدهورة ثم تغيرت هذه أيضًا وتلاشت، وجاءت غيرها. وما إن استقرت مؤشرات أقراص أرقام المليون على درجة الصفر، حتى أبطأت السرعة. بدأت أتعرف على فن عمارتنا كما أعهده، ودار عقرب الآلاف بسرعة إلى الخلف إلى نقطة البداية، وتتابع الليل والنهار ببطء ثم ببطء شديد. ثم أحاطت بي جدران المختبر المألوفة. عندئذ أبطأت آلة الزمن، تدريجيًا وبحذر بالغ. لاحظت

شيئًا صغيرًا بدا لى أنه غريب. أعتقد أننى أبلغتكم أن السيدة (ووتشيت) مديرة المنزل كانت قد سارت عبر الغرفة، قاطعة تلك المسافة كصاروخ، كما ظهرت لى عندما انطلقت برحلتى إلى غياهب المستقبل، قبل أن تصبح سرعتى هائلة. عندما عدت، مررت ثانية عبر تلك الدقيقة، حين تحركت هى فى المختبر. لكن كل حركة قامت بها بدت عندئذ عكس حركاتها السابقة تمامًا. فقد فتح الباب عند الطرف السفلى، وسارت بهدوء إلى أعلى المختبر وإلى الخلف فى معظم الأوقات، ثم اختفت خلف الباب الذى اجتازته من قبل. قبل ذلك الوقت تمامًا، خيل إلىّ أننى أرى (هيليير) للحظة، لكنه مر كوميض.

حينئذ أوقفت آلة الزمن، ورأيت حولى من جديد مختبرى القديم كما أعهده، وأدواتى ومعداتى تمامًا كما تركتها. ونزلت عن الآلة، وأنا أرتعد بشدة، وجلست على مقعدى الخشبى لأستريح لدقائق عديدة، كانت أوصالى ترتعش بعنف. ثم صرت أكثر هدوءًا. من حولى، كانت تفاصيل ورشتى القديمة المألوفة بالضبط كما كانت وها قد عدت إليها ربما تكون قد أخذتنى سنة من النوم هنا. كل ما حدث لى مجرد حلم!

وبالرغم من هذا، لم يكن حلمًا تمامًا ,لقد بدأت تشغيل آلة الزمن من ركن المختبر الجنوبى الشرقى. واستقرت من جديد فى الركن الشمالى الغربى، أمام الجدار الذي رأيتموها فيه. والمسافة بين الركنين هى نفس المسافة تمامًا من المرج الصغير الذى هبطت فيه آلة الزمن إلى قاعدة تمثال أبى الهول الأبيض، التى كان الـ (مورلوك) قد خبأوا آلتى داخلها، ومنها انطلقت فى رحلة العودة.

ظللت - لمدة من الزمن - عاجزًا عن التفكير. ولكن سرعان ما استويت واقفًا وسرت عبر الممر إلى هنا، وأنا أعرج، لأن عقب قدمى كان لا يزال يؤلمنى بالإضافة إلى أنه كان ملوثًا ومتقرحًا. رأيت مجلة (بول مول) على المنضدة عند الباب. وجدت أن التاريخ كان تاريخ اليوم بالفعل، وعنما نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى حوالى الثامنة. ثم سمعت أصواتكم وقرقعة وضجة الأطباق فترددت وشعرت بدوار وإعياء شديدين. ثم شممت رائحة لحم طيب شهى، وفتحت الباب عليكم. أنتم تعرفون الباقى. اغتسلت ثم جئت وتناولت عشائى، وها أنذا أروى لكم القصة.

واصل مسافر الزمن حديثه بعد فترة صمت: "إننى أعرف أن كل ما رويته لكم يبدو أمرًا لا يمكن تصديقه على الإطلاق، لكن الأمر الوحيد الذى لا يمكن تصديقه بالنسبة إلىّ هو أننى موجود هنا، فى هذه الغرفة القديمة المعهودة، وأتطلع إلى وجوهكم الصديقة أحكى لكم كل هذه المغامرات الغريبة". نظر إلى رجل الطب وقال: "لا. لا أتوقع منك أن تصدق هذا. خذه إن أردت كأنه أكذوبة، أو نبوءة. قل إننى نمت وحلمت بكل هذا فى الورشة. اعتبر أن تفكيرى وتأملى فى مصائر جنسنا قادنى إلى صياغة هذه القصة. اعتبروا أن إصرارى على صدقها كمجرد قالب فنى مثير لأعزز من أهميتها. لكن باعتبارها قصة فحسب، ما رأيكم فى وقائعها؟".

أمسك بغليونه وأخذ يطرقه بعصبية على القضبان المعدنية لسياج المدفأة، بطريقته المعهودة. عندئذ ساد صمت وجيز ثم بدأت المقاعد تصر والأحذية تحتك بالسجاد. رفعت عينى عن وجه

مسافر الزمن، وأخذت أتطلع حولى ناظرًا إلى وجوه الحاضرين. كانوا جالسين فى الظلام، وسبحت بقع صغيرة ملونة أمامهم. بدا رجل الطب مستغرقًا فى تأمل مضيفنا. كان المحرر يمعن النظر فى طرف سيجاره - سيجاره السادس - وكان يبحث فى جيبه عن ساعته. ظل الآخرون - على ما أتذكر - بلا حراك.

نهض المحرر، واقفًا وهو يتنهد، وقال واضعًا يده على كتف مسافر الزمن: "من المؤسف أنك لست كاتب قصص".

- "ألا تصدقها؟".

- "حسنًا".

- "لا أعتقد هذا".

التفت مسافر الزمن إلينا وقال: "أين أعواد الثقاب؟".

أشعل عودًا وتكلم بينما كان يضع غليونه فى فمه، نافثًا الدخان واستطرد: "لأخبركم بالحقيقة.. أنا نفسى لا أكاد أصدقها.. ومع هذا..".

نظر بتساؤل صامت إلى الأزهار البيضاء الذابلة على المنضدة الصغيرة والتى كان قد أخرجها من سترته فى السابق، ثم قلب يده التى تمسك بغليونه، فرأيت أنه كان ينظر إلى بعض ندوب تكاد تندمل عند مفاصل أصابعه.

نهض رجل الطب واقفًا، وعلى ضوء المصباح أخذ يفحص الأزهار البيضاء. قال: "إن مدقات الأزهار غريبة". مال العالم النفسانى إلى الأمام ليفحص الأزهار، مادًا يده لأخذ عينة منها.

قال الصحفى: "يا إلهى! إن الساعة بلغت الواحدة إلا الربع. كيف نصل إلى بيوتنا؟".

قال العالم النفسانى:"عند المحطة كثير من عربات الأجرة".

قال رجل الطب: "إنه لأمر غريب، لكننى على ثقة بأننى لا أعرف النظام الطبيعى لهذه الأزهار. أيمكن أن أحتفظ بها؟".

تردد مسافر الزمن. ثم قال على نحو فجائى: "لا، بالتأكيد".

قال رجل الطب: "من أين حصلت عليها حقيقة؟".

رفع مسافر الزمن يده إلى رأسه. تكلم كرجل يحاول أن يمسك بفكرة تحاول أن تتملص منه: "وضعتها (وينا) فى جيبى، عندما كنت مسافرًا فى الزمن". حدق فى أنحاء الغرفة: "لتحل علىّ اللعنات! إن لم تكن هذه الغرفة وأنتم وكل مظاهر الحياة اليومية أكبر مما تتسعه ذاكرتى. هل صنعت آلة حقًا أو مجرد نموذج آلة زمن؟ أو أن كل هذا مجرد أحلام؟ إنهم يقولون إن الحياة حلم، حلم ثمين ولكنه زهيد فى بعض الأوقات! لكننى لا أستطيع أن أحتمل حلمًا آخر يتناقض مع الواقع. إنه جنون. ومن أين أتى الحلم؟.. لابد أن ألقى نظرة على تلك الآلة. إن كانت هناك حقًا آلة!".

أمسك مسافر الزمن بالمصباح الموضوع على المنضدة بحركة سريعة، وحمله ـ وقد اصطبغ لهيبه بلون أحمر ـ دالفًا من الباب إلى الممر الداخلى. سرنا فى أثره. تحت نور المصباح المشتعل بارتجاج، كانت آلة الزمن موجودة بالفعل هناك، رابضة وقبيحة ومائلة، آلة مصنوعة من النحاس الأصفر والأبنوس والعاج والكوارتز الوامض

شبه الشفاف. صلبة عند لمسها ـ فقد مددت يدى وتحسست حاجزها المتكون من قضبان أفقية ـ وثمة نقط ولطخات بنية ـ تبدو كالطين ـ على عاجها وبقايا عشب وطحالب عالقة بالأجزاء السفلية منها ,وقد التوى أحد قضبانها باعوجاج. وضع مسافر الزمن المصباح على المقعد الخشبى، وتحسس بيده ذلك القضيب الملتوى. وقال: "لقد وضح الأمر الآن. إن القصة التى رويتها لكم حقيقية. إننى آسف لأننى أحضرتكم إلى هنا فى البرد". رفع المصباح، وفى سكون تام، عدنا إلى غرفة التدخين.

جاء معنا إلى القاعة، وساعد المحرر على ارتداء معطفه. نظر رجل الطب إلى وجهه، وأبلغه بشىء من التردد، أنه يعانى من الإجهاد فى العمل، فضحك مسافر الزمن ملء شدقيه، وإننى أذكره تمامًا وهو يقف فى فتحة الباب المفتوح، ويصيح عاليًا متمنيًا لنا ليلة سعيدة.

شاركت المحرر فى ركوب عربة أجرة. وكان رأيه أن الحكاية "كذبة مبهرجة"(٥٦).. أما أنا، فقد كنت فى واقع الأمر غير قادر على الوصول إلى أى رأى. كانت القصة مغرقة فى الخيال ولا تصدق بكل حذافيرها، بيد أن طريقة سرد القصة معقولة هادئة تمامًا مما يوحى بصدقها، قضيت معظم الليل مفكرًا فى هذه القصة الأغرب من الخيال.. صممت على أن أذهب فى اليوم التالى وأرى مسافر الزمن من جديد. أبلغونى بأنه فى المختبر، ولكونى من أصدقائه المقربين فقد اتجهت إليه مباشرة، لكن مع ذلك كان المختبر خاليًا.

---

(٥٦) مزوّق دون ذوق أو ترتيب.

تفحصت آلة الزمن لدقيقة من الزمن، مددت يدى ومسست الرافعة. عندئذ اهتزت الكتلة صلبة التكوين الرابضة كفرع شجرة فى مهب الريح. أزعجنى إلى أقصى حد عدم ثباتها ,ثم استغرقت فى تذكر الأحداث الماضية فى أيام الطفولة عندما اعتادت أمى أن تمنعنى من التطفل.

عدت من المختبر عبر الممر الداخلى ,وقابلنى مسافر الزمن فى غرفة التدخين.. كان قادمًا من البيت ,وكان يحمل آلة تصوير صغيرة تحت أحد إبطيه ,وحقيبة ظهر مصنوعة من مادة متينة تحت إبطه الآخر.. ضحك عندما رآنى وقدم إلىّ مرفقه لأصافحه، وقال: "أنا مشغول للغاية مع تلك الآلة التى تجثم فى الداخل هناك".

قلت: "لكن ليس فى الأمر أية خدعة! هل تسافر حقًا عبر الزمن؟".

نظر إلىّ وفى عينيه صدق. وتردد. ثم تجولت عيناه فى أرجاء الغرفة. وقال:

"حقًا وصدقًا ما أبلغتكم به. امنحنى فقط نصف ساعة. إننى أعرف لماذا حضرت وهذا عمل طيب للغاية وحسنًا فعلت. توجد بعض المجلات هنا لتتسلى بقراءتها. إن بقيت للغداء، فإننى سوف أبرهن لك هذه المرة ـ بدون أى شك ـ على سفرى فى الزمن، بالعينات التى سوف أحضرها معى وكل شىء. إن أنت سمحت أن أرحل الآن؟".

استجبت وأنا لا أكاد أفهم بالتحديد معنى كلماته، وأومأ برأسه وتابع السير إلى الأمام فى الممر الداخلى. وسمعت باب المختبر

ينصفق، وجلست فى مقعد، وتناولت جريدة يومية من على المنضدة. وتساءلت فى نفسى: ترى ما الذى سوف يفعله قبل فترة الغداء؟ عندئذ تذكرت فجأة، وأنا أقرأ إعلانًا، أن عندى موعدًا مع (ريتشاردسون) الناشر فى الساعة الثانية. تطلعت إلى ساعة يدى ورأيت أننى لن أستطيع أن أفى بارتباطى. نهضت واقفًا عن مقعدى وسرت فى الممر لأبلغ مسافر الزمن، بأننى سوف أرحل فى التو.

وما إن أمسكت بمقبض الباب حتى تنامى إلى سمعى صيحة استغراب. لم تكتمل بل قطعت عند نهايتها، ثم طقطقة وصوت وقوع شىء ثقيل، ودارت بسرعة هبة هواء من حولى عندما فتحت الباب، وانطلق من الداخل صوت زجاج ينكسر يسقط على أرضية الغرفة. لم يكن مسافر الزمن فى الداخل.. خيّل إلىّ أننى أرى شكلاً كالشبح غير واضح المعالم جالسًا على كتلة دوّارة من سواد ونحاس أصفر لدقيقة، شكلاً شفافًا تمامًا إلى حد أننى كنت أرى بوضوح كامل طاولة عمل متينة خلفه مع لوحات الرسومات فوقها، لكن هذا الشبح الوهمى اختفى عندما كنت أدعك عينىّ. كما اختفت آلة الزمن! كان الطرف الأقصى للمختبر خاويًا عدا دوامة تراب خفيفة أخذت تهدأ. وعلى ما يبدو كُسر لوح الزجاج المستخدم فى تقسيم نافذة المختبر. فى تلك اللحظة تمامًا شعرت بذهول لا يتصوره عقل. أدركت أن شيئًا غريبًا قد حدث، وظللت للحظات لا أتمكن من تبين ما قد تكون طبيعة هذا الشىء الغريب. فيما كنت أقف محملقًا. فتح باب الحديقة وظهر خادم.

تبادلنا النظرات. ثم بدأت أستجمع أفكارى. قلت: "هل السيد خرج من ذلك الطريق؟".

"كلا يا سيدى. لم يخرج أحد من هذا الطريق. لقد توقعت أن أجده هنا".

عند ذلك أدركت الأمر. مجازفًا بإصابة الناشر (ريتشاردسون) بخيبة أمل، آثرت البقاء هنا منتظرًا عودة مسافر الزمن ,منتظرًا قصته الثانية التى قد تكون أغرب من الأولى، إذ سوف يكون مزودًا بالعينات والصور الفوتوغرافية التى سيحضرها معه. لكننى الآن بدأت أخشى أننى لابد أن أنتظر حتى نهاية عمرى. إذ اختفى مسافر الزمن قبل ثلاث سنوات. وكما يعرف الكل، فإنه لم يعد أبدًا حتى الوقت الحاضر.

ليس بوسع الإنسان أن يختار، بل يمكنه أن يتساءل. هل سيعود مسافر الزمن فى يوم من الأيام؟ ربما - فى هذه المرة - اقتحم عصورًا موغلة فى القدم وسقط بين براثن متوحشى العصر الحجرى الهمجيين، فى الهاويات السحيقة للعصر الطباشيرى. أو بين الحيوانات العملاقة البشعة والوحوش الزاحفة للعصر الجوراسى. قد يتجول الآن - إذا صح لى أن أستعمل هذا التعبير - على صخور بحرية مرجانية وجيرية وصخور رسوبية أخرى مسكونة بديناصورات من نوع "البلصور" البحرى، أو إلى جانب البحور الملحية المقفرة للعصر الترياسى. هل اتجه إلى الأمام، نحو أحد العصور الأقرب لزمننا، حيث الإنسان ما زال محتفظًا بطبيعته البشرية، العصر الذى أمكن فيه حل مشاكل زماننا إلى الذرة التى بلغها الجنس البشرى، فأنا لا أستطيع أن أتصور، حسب ما أرى، أن هذه الأيام التى نعيشها حيث التجارب البدائية والنظريات المتجزئة والنزاعات والتوترات المتبادلة هى حقًا أوج عصر الإنسان! وهذا ما

أقوله حسب وجهة نظرى الشخصية: إنه، كما أعرفه ـ فقد تناقشنا أنا ومسافر الزمن فى هذه الأمور قبل وقت طويل من صناعته الشخصية لآلة الزمن ـ لم ير سوى أفول تقدم البشرية، رأى فى ركام المدنية النامية مجرد كومة سحيقة لا بد أن تتراجع وتنقض مدمرة لصانعيها فى النهاية. إذا كان الأمر كذلك، فلن يبقى أمامنا سوى أن نعيش فى وهم بأن الأمور لم تكن بهذا الشكل. لكن المستقبل، بالنسبة إلىّ، لا يزال أسود وخاويًا، جهالة واسعة تنيرها ذكرى قصته فى مواضع قليلة غير مخطط لها ولدى، وهذا ما يثلج صدرى، زهرتان بيضاوان عجيبتان ذبلتا الآن، وأصبحتا بنيتى اللون مفلطحتين وقصيفتين لتشهدا، حتى حين يختفى المنطق والقوة، بأن الامتنان والرقة المتبادلة لا يزالان يعيشان فى شغاف قلب الإنسان.

قصة الأيام القادمة

١ - راعى الحب

كان السيد رفيع المقام (موريس) مواطنًا إنجليزيًا يعيش فى عهد الملكة الفاضلة فكتوريا[1]. كان رجلاً ثريًا وناجحًا فى عمله وراجح العقل إلى حد كبير، وكان يداوم على قراءة جريدة "التايمز" ويحرص على الذهاب إلى الكنيسة. عندما بلغ منتصف العمر أو كاد، كان قد اكتسب شعورًا بالقناعة عن نفسه، واحتقارًا لكل من لا يسيرون على دربه ويتبعون خطاه. إلى أن استقر هذا الشعور على وجهه فى شكل تجهم وانقباض أسارير.

كان (موريس) من هؤلاء الناس الذين يقومون بكل ما هو حق وملائم ومعقول، فى كل وقت دون أن يحيد أبدًا عن منهجه هذا الذى رسمه لنفسه. لقد كان يرتدى دائمًا الملابس المناسبة وأكثرها أناقة، متبعًا الأسلوب الوسط ما بين المهندم ومعتدل الجودة. وهو دائمًا يتبرع بمبلغ من المال للجهات الخيرية المناسبة، على أن يوفق - بحكمته - ما بين التفاخر والتواضع، ولم يخفق أبدًا فى أن يقص

(١) ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا وإمبراطورة الهند (١٨١٩ - ١٩٠١) (المترجم).

شعر رأسه بالطول المناسب تمامًا لشخص مثله. كان يمتلك كل ما كان مناسبًا ولائقًا لرجل فى مثل مركزه، أما ما كان غير مناسب وغير لائق لرجل فى مثل مركزه، فإنه لم يسع إلى امتلاكه.

وكان من بين ممتلكات السيد (موريس) الأخرى المناسبة واللائقة، زوجة وأطفال، وكانت زوجته - بالطبع - أفضل مثال للزوجة وأطفاله أفضل الأبناء تربية وعددًا. ولم يكن لدى أى منهم أى ميل إلى التخيل والادعاء أو الاستهتار. وكانوا يرتدون - حسب ما يرى السيد (موريس) - الملابس المناسبة والموافقة تمامًا لهم، ولم تكن هذه أنيقة بإفراط أو واقية من تقلبات الطقس أو تدل على ولع مهووس بالموضة، ولكنها كانت الملابس الملائمة فقط. وكان السيد (موريس) وعائلته يقطنون منزلاً لائقًا له مظهر جميل وجذاب، شيد على نمط مقلد للطراز المعمارى للملكة (آن)، الذى ساد فى أواخر العصر الفكتورى. حيث الجص[٢] نصف الخشبى[٣] - المعد ليشابه الأصلى - ذو اللون البنى المحمر الداكن، والمكسو به الجمالونات[٤]، مع وجود ألواح منحوتة تحاكى خشب البلوط، وشرفة من الطين المحروق جزئيًا، قصد به تقليد الحجارة، ثم زجاج - يشبه الذى يوجد فى الكاتدرائيات[٥] - فى الباب الأمامى.

وكان أبناء السيد (موريس) يتلقون تعليمهم فى مدارس مميزة وذات سمعة طيبة، ثم التحقوا بمهن لائقة وجديرة بالاحترام. أما

---

(٢) خليط من الجير والرمل والماء يستخدم لطلاء الجدران والأسقف (المترجم).

(٣) له هيكل خشبى فيه فراغات تعبأ بمواد البناء (المترجم).

(٤) قمم مثلثة للزينة توضع فوق الأبواب أو النوافذ (المترجم).

(٥) كنيسة مركزية ضخمة (المترجم).

بناته ـ على الرغم من بعض الاعتراضات الحمقاء أو ما هو أشبه بها ـ فقد تزوجن من رجال فى مرحلة متأخرة من الشباب، ولكنهم كانوا مناسبين وموضع ثقة ولهم مستقبل زاهر.

وعندما جاء الوقت الملائم والموافق فى حياة السيد (موريس)، لكى يلبى نداء ربه، أسلم الروح. كان قبره ـ الذى صنع من الرخام ـ خاليًا من تفاهات الفن أو النقوش التمجيدية، ومع هذا كان جليلاً ويوقع فى النفس رهبة، ومسايرًا لمقتضيات العصر الذى عاش فيه.

لقد مر السيد (موريس) بتغييرات متعددة، بقدر ما قضت به العادات المقبولة فى مثل هذه الظروف. وقبل أن تبدأ هذه القصة بزمن طويل، كانت عظامه قد أصبحت بالفعل ترابًا وتشتت فى أركان الكون الأربعة. كما أن أبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده وأحفاد أحفاد أحفاده، صاروا أيضًا ترابًا ورمادًا تشتت بطريقة مماثلة.

ولم يتخيل السيد (موريس) أن يأتى اليوم الذى يتشتت فيه رماد عظام أحفاد أحفاد أحفاده وتذروه رياح الكون الأربع. ولو أن أى شخص أوحى إليه بهذه الفكرة لاستاء منها كثيرًا. إذ كان من تلك الفئة من الناس الجديرة بالإعجاب. التى لا تبدى اهتمامًا على الإطلاق بمستقبل الجنس البشرى. وقد كانت لديه بالفعل شكوك دامغة تعتمل فى نفسه، عن مستقبل الإنسانية، بعد أن يوارى الثرى.

كان من رأيه أنه من المستحيل، بل مما لا يثير أى اهتمام، تخيل حدوث أى شىء ذى أهمية، بعد موته. لكن الأمر لم يكن كذلك. فبعد أن مات حفيد حفيد حفيده وتحلل جسده وطواه النسيان. وبعد أن تقوض بيته المقلد نصف الخشبى، أسوة بباقى البيوت

الشبيهة به. وبعد أن توقفت جريدة (التايمز) عن الصدور نهائيًا. وأصبحت القبعة الرجالية الحريرية، أثرًا قديمًا مثيرًا للسخرية. وبعد أن تم حرق لوح شاهد القبر الحجرى ـ المثير للإعجاب والذى كان يليق بالسيد (موريس) ـ ليستخرج منه الجير اللازم لصناعة الملاط، وكذلك ذوى وانقضى كل ما وجده السيد (موريس) حقيقيًا ومهمًا، كانت الدنيا لا تزال قائمة، والناس يذرعونها جيئة وذهابًا، غير مكترثين بالمستقبل بل إنهم لا يرغبون بالتفكير فيه، ولا يشغل تفكيرهم أى شىء إلا مصالحهم الشخصية وممتلكاتهم، تمامًا كما كان السيد (موريس) والأمر الغريب، ومما كان ـ بالفعل ـ سوف يثير غضب السيد (موريس) لو أن شخصًا ما قد أبلغه بأن العالم يزخر بأعداد هائلة من الناس المبعثرين، تملأ جوانحهم نفحات الحياة، وتسرى فى عروقهم دماء السيد (موريس). مثلما سوف تتشتت حياة قارئ هذه القصة التى ينعم بها الآن، بعيدًا طولاً وعرضًا فى أنحاء هذا العالم، وتمتزج بآلاف السلالات الغريبة، التى لا يمكن للفكر أن يقتفى آثارها.

ومن بين الذين انحدروا من سلالة السيد (موريس)، شخص كاد أن يكون على المستوى ذاته من رجاحة العقل وصفاء الذهن، مثلما كان سلفه. كان هذا السليل، متين البنية وقصير القامة كما كان ذلك الرجل الذى عاش قديمًا فى القرن التاسع عشر، والذى انتقل إليه اسمه، فأصبح يدعى (موريس) وإن كان ينطقه (موارس)! وكان يرتسم على وجه صاحبنا نفس التعبير الذى ينم عن شىء من الاحتقار لمن حوله، وبمرور الزمن أصبح هذا الرجل ثريًا كسلفه، يمقت "البدع الجديدة"، ويهتم بالمستقبل والطبقات الدنيا فى

المجتمع، تمامًا كما كان يفعل (موريس) السلفى. ولكن هذا السليل لم يكن يقرأ جريدة (التايمز)، بل إنه - فى حقيقة الأمر - لم يكن يعرف أنه كانت توجد جريدة بهذا الاسم فى يوم من الأيام. إذ إن هذه المؤسسة المكرسة للثقافة قد انهارت فى مكان ما غير محدد وفى زمن غير معروف، داخل هوّة السنين السحيقة.

لكن لعل جهاز الحاكى، الذى ينصت إليه، أثناء قيامه بالتزين فى كل صباح، كان هو صوت (بلوفتز)[٦]، الذى كان يناقش الشئون الدولية. كان جهاز الحاكى فى حجم الساعة الهولندية[٧]، وفى أسفل واجهتها، ثمة مؤشرات كهربية لقياس الضغط الجوى، وساعة وتقويم يعملان بالكهرباء وجهاز آلى للتذكير بالمواعيد، وحيث كان يجب أن تكون الساعة توجد فتحة النفير. وعندما تكون هناك أنباء، فإن البوق يصدر ما يشبه "كركرة"[٨] الديك الرومى، "جالووب، جالووب"، ثم يأخذ فى إذاعة الأنباء بصوت عال وخشن، كما يفعل النفير. وكان يروى لـ (موارس) - فى نبرات أجشة قوية وعالية إلى أقصى حد - عن تفاصيل الحوادث التى وقعت طوال الليل، لمجموعة الأجهزة الطائرة التى تنقل الركاب عبر أنحاء العالم، وأنباء عن أحدث الوافدين إلى المنتجعات الفاخرة المقامة فى التبت، ووقائع جلسات كبرى الشركات الاحتكارية التى عقدت فى اليوم السابق، كل هذه الأخبار جاءته بينما كان يرتدى ملابسه.

---

(٦) يبدو أنه مذيع مشهور فى ذلك العصر (المترجم).

(٧) ساعات أثرية غالبًا تعلق على الجدار ولها أشكال متعددة (المترجم).

(٨) الصوت الحنجرى للديك الرومى (المترجم).

وإذا لم يرغب (موارس) فى سماع ما يبلغه به الحاكى، فما عليه إلا أن يمس زرًا معينًا، عندئذ سوف يختنق صوته قليلاً ثم يتحدث عن موضوع آخر. ولا ريب أن طريقة تزينه اختلفت اختلافًا بينًا عن الطريقة التى كان يتزين بها سلفه. ولا يمكن أن نقرر على نحو حاسم، أيهما كان سيصبح مصدومًا أكثر ويشعر بالمعاناة أشد، عندما يجد نفسه مرتديًا زى الآخر.

وبالتأكيد كان (موارس) يفضل أن يخرج إلى العالم ـ عاجلاً أو آجلاً ـ وهو عار تمامًا، عن أن يسير فى الشارع، مرتديًا قبعة رجالية حريرية ومعطف "الفراك"[١] وبنطلونًا رماديًا وساعة جيب تتدلى منها سلسلة، مثل التى كانت تملأ جوانح السيد (موريس) فى الماضى، باحترام الذات والتفاخر.

ولم يكن على السيد (موارس) أن يحلق ذقنه على الإطلاق. إذ تمكن أحد الفنيين البارعين ـ منذ زمن بعيد ـ من أن ينتزع كل جذر لشعرة فى وجهه. أما ساقاه فقد غلفهما بأردية خفيفة ذات لونين، أحمر وردى وأصفر محمر، وقد صنعت من مادة محكمة الإغلاق ضد الهواء، وباستخدام مضخة صغيرة صنعت ببراعة، كان يملؤها بالهواء، ومن ثم تبدو وكأن تحتها عضلات مفتولة. وكان يلبس فوق هذه الأردية ثوبًا مطاطيًا، وتعلوه سترة حريرية باللون الأصفر المحمر. وهكذا كان السيد (موارس) مكسوًا بالهواء، وهذا أمر باعث على الإعجاب، إذ إنه يكون محميًا من الحرارة اللافحة والبرودة القارصة، المفاجئة. وكان يرتدى فوق

(١) معطف رجالى يبلغ الركبتين (المترجم).

هذا كله عباءة خارجية قرمزية اللون، انحنت حافتها بطريقة غريبة.

وكانت قد انتزعت من رأسه فى مهارة فائقة كل جذور شعره ومن ثم أصبحت صلعاء تمامًا، وضع فوقها قلنسوة صغيرة رائعة ذات لون قرمزى متألق، مثبتة فى مكانها بالضغط وملئت بالهيدروجين، وبدت - بغرابة شديدة - مثل عرف الديك. وهكذا اكتملت زينة السيد (موارس)، وأدرك أنه يرتدى زيًا وقورًا وفاخرًا، وأصبح على أتم الاستعداد للقاء الناس الآخرين، دونما قلق أو توتر.

وكان (موارس) - إذا كان لقب (السيد) قد اختفى منذ عصور مضت - يعمل موظفًا بالاتحاد الاحتكارى لطواحين الهواء ومساقط المياه، وهى الشركة الكبرى التى تمتلك كل طاحونة هواء ومسقط مياه فى العالم كله.

وتتولى هذه الشركة ضخ كل المياه وتوفر الطاقة الكهربائية، التى تفى باحتياجات كل الناس فى هذه العصور المتأخرة.

وكان (موارس) يقطن فندقًا فاخرًا ضخمًا، يقع فى ذلك الجزء من (لندن) الذى يطلق عليه (الطريق السابع)، ويشغل شقة تتكون من عدد من الغرف بالغة الاتساع والتى توافرت فيها كل أسباب الراحة، فى الطابق السابع عشر.

أما الوحدة المنزلية التى تتألف من أعضاء العائلة وكذلك الحياة الأسرية، فقد اختفت منذ وقت طويل، مع التحسن والتقدم والإصلاح لقواعد العادات والتقاليد، وكذلك - بالطبع - الارتفاع المطرد فى الإيجارات وقيم الأراضى واختفاء خدم المنازل والتشعب

والتوسع فى فنون الطبخ وإعداد الطعام. كل هذا جعل من المحال إقامة مساكن منفصلة، مثل تلك التى كانت فى العصر الفكتورى، حتى لو أراد شخص ما هذه العزلة البدائية..

وعندما انتهى (موارس) من زينته توجه إلى واحد من بابى شقته، إذ كان لها بابان متقابلان على كل منهما سهم ضخم، يشير واحد منهما إلى اتجاه معين، ويشير الثانى إلى الاتجاه الآخر. عندئذ، لمس زرًا لفتح الباب، ثم دلف منه إلى ممر عريض، فى وسطه صف من المقاعد، يتحرك بسرعة رتيبة ناحية اليسار. وكان يجلس فوق بعض هذه المقاعد، رجال ونساء يرتدون ثيابًا ذات ألوان زاهية. ويومئ (موارس) برأسه تحية لأحد معارفه، حيث لم يكن من آداب السلوك فى ذلك العصر، أن يتحدث المرء قبل تناول طعام الإفطار. ثم استوى جالسًا فوق أحد هذه المقاعد، وما إن مرت بضع ثوان، إلا وقد بلغ أبواب المصعد، الذى استخدمه للهبوط إلى تلك القاعة العظيمة الفاخرة، حيث تقدم إليه وجبة الإفطار بطريقة آلية.

كانت هذه الوجبة تختلف اختلافًا بينًا عن الإفطار فى العصر الفكتورى[١٠]، فلم تعد هناك تلك الكتل الغليظة الخشنة من الخبز التى تكسى بالدهن الحيوانى، حتى تصبح لذيذة المذاق، ولا هذه الشرائح من اللحم ـ التى ما زالت محددة المعالم ـ والتى استخلصت من حيوانات ذبحت منذ عهد قريب، وقطعت بضربات متوالية وقددت بطريقة كريهة. ولا ذلك البيض الذى انتزع بقسوة من تحت

---

(١٠) خاص بفترة حكم الملكة فكتوريا (المترجم).

الدواجن على الرغم من احتجاجها. إن مثل هذه الأصناف من الأغذية، هى التى كانت تؤلف الوجبات العادية للعصر الفكتورى، إلا أنها كانت تثير مشاعر الاشمئزاز والنفور، فى أذهان هؤلاء المتحضرين الراقين، من ناس هذه العصور الأخيرة.

وبدلاً من ذلك، كان هناك معجنات وفطائر وكعك، طيبة المذاق ومتميزة بالتنويع والتشكيل المحبب للنفس. ولا يوحى ـ على الإطلاق ـ لونها أو شكلها، بتلك الحيوانات الداجنة التعيسة، التى استخلصت من مادتها أو من السوائل التى تجرى فى أنسجتها.

وتظهر هذه المأكولات فى أطباق صغيرة، تخرج من صندوق صغير يوجد عند أحد جانبى المائدة، ثم تنزلق على قضبان أفقية دوّارة. أما عن سطح المائدة فإذا حكمنا عليه بلونه وملمسه، فإنه يبدو ـ لمواطن يعيش فى القرن التاسع عشر ـ بأنه مغطى بنوع من "الدمقس"(١١) الأبيض الرقيق الناعم، ولكن الواقع أن المائدة كانت مكسوة بطبقة رفيعة من معدن مؤكسد، ويمكن تنظيفه على الفور بعد تناول الطعام. كانت ثمة مئات من هذه الموائد الصغيرة فى كل أرجاء القاعة، يجلس إلى معظمها مواطنون من ذلك العصر الأخير، منفردين أو فى مجموعات، وما إن جلس (موارس) أمام وجبة طعامه الشهية التى تنم عن الذوق الرفيع هذه، حتى استأنفت الفرقة الموسيقية ـ غير المرئية ـ عزفها، بعد فترة فاصلة، فملأت الجو بالنغمات الرخيمة.

---

(١١) نسيج غنى بالزخارف من القطن أو الحرير غالبًا (المترجم).

بيد أن (موارس) لم يظهر أى اهتمام كبير سواء بوجبة إفطاره أو بهذه الموسيقى، فقد كان زائغ البصر تتنقل عيناه على نحو متواصل فى كل أنحاء القاعة، كأنه فى انتظار ضيف تأخر عن موعده. لكنه آخر الأمر انتصب واقفًا بتلهف ملوحًا بيده، وكان قد ظهر فى وقت متزامن - عبر القاعة - شخص أسمر طويل القامة، يرتدى زيًا باللونين الأصفر والأخضر الزيتونى. وما إن اقترب هذا الشخص وهو يسير بين الموائد بخطوات بطيئة رتيبة، حتى وضح ما ارتسم على وجهه الشاحب من تعبير جاد صادق، بالإضافة إلى تلك الحدة فى نظراته. وعاد (موارس) إلى الجلوس وأشار إلى مقعد بجانبه، وقال: "خشيت ألا تأتى أبدًا".

ومما هو جدير بالملاحظة أنه على الرغم من انقضاء زمن طويل فإن اللغة الإنجليزية ظلت - إلى حد بعيد -على الصورة ذاتها التى كانت عليها فى إنجلترا خلال فترة حكم الملكة فكتوريا الفاضلة. وإن كان اختراع الحاكى وغيره من وسائل تسجيل الصوت واستبدال الكتب تدريجيًا بمثل هذه الابتكارات، لم يحافظ على بصر الإنسان من التدهور فحسب بل ساعد على رسم مستوى ثابت للغة، ومن ثم أسهم فى وقف سلسلة من العمليات التى تتضمن اختلاف اللهجات وتباين الحركات النطقية، وهو ما ظل مستمرًا حتى الآن وكان من المتعذر اجتنابه إلا بالتوصل إلى تلك الاختراعات.

فقال الرجل المرتدى الزى الأخضر والأصفر:

"يرجع السبب فى تأخرى عن الموعد، إلى أمر مثير للاهتمام، وهو أن سياسيًا بارزًا"، ثم تنحنح واستطرد قائلاً: "أصيب بإعياء

شديد بسبب الإرهاق فى العمل". وألقى نظرة سريعة ومباشرة على طعام الإفطار وجلس قائلاً: "ظللت مستيقظًا طوال الأربعين ساعة الماضية".

قال (موارس): "آه! أيها العزيز! تخيل هذا! إن لكم أيها المنومون المغنطيسيون عملاً شاقًا تؤدونه".

مد المنوم يده وتناول بعض "الجيلى"[١٢] الجذاب ذى اللون الأصفر المحمر وقال فى تواضع:

"لقد حدث بالمصادفة أن كثرت الطلبات على خدماتى".

"يعلم الله وحده كيف يكون حالنا دون معاونتكم".

رد عليه المنوم ـ وهو يستمتع بطعم ونكهة الجيلى ـ بقوله:

"أوه! إننا لسنا ضروريين إلى هذا الحد فقد ظل العالم يمارس حياته على أفضل وجه لبضعة آلاف من السنين دون معاونتنا. إذ لم يكن هناك منذ مائتى سنة ـ أو حتى مائة فقط ـ فرد واحد يؤدى هذه الوظيفة بطريقة عملية.. حقًا إنه كان هناك ألوف من الأطباء ـ ولكن أكثرهم كانوا غير بارعين على الإطلاق، ومفتقرين للعقل والفكر، ثم إنهم كانوا يلاحقون بعضهم كالغنم ـ بيد أنه لم يكن لأطباء العقل وجود، إلا بعض الرواد التجريبيين، الذين كانوا يتصرفون بشكل أخرق وبارتباك".

ثم أخذ يركز فكره فى "الجيلى".

---

(١٢) حلوى هلامية القوام تعد بغلى السكر وعصير الفاكهة. (المترجم).

واستأنف (موارس) الحديث فقال:

"وهل كان الناس آنذاك على مثل هذه الدرجة من سلامة العقل والحكمة؟"

فهز المنوم رأسه واستطرد قائلاً:

"فى ذلك الوقت لم يكن الناس يلقون أهمية كبيرة على ما إذا كانوا على قدر من الحماقة أو شىء من الهوس. فقد كانت الحياة بسيطة وسلسة.. لم تكن ثمة منافسات ذات شأن، ولم يتعرض الأفراد لأى نوع من الضغوط. كان من المحتم أن يصبح الكائن البشرى فى حالة عدم اتزان، قبل أن يحدث له أى شىء. وعندئذ ـ كما تعلم ـ كانوا يلقون بهم فى معتقل يطلقون عليه (مستشفى الأمراض العقلية)".

قال (موارس): "أعلم أنه فى تلك الروايات الخيالية التاريخية المشوقة، التى تجد من الجميع آذانًا مصغية، ثمة قصة إنقاذ إحدى الفتيات الجميلات من مستشفى للأمراض العقلية أو ما على شاكلته.. لست أدرى إذا ما كنت مهتمًا بمثل هذه الحكايات اللامنطقية!".

فقال المنوم المغنطيسى:"يجب أن أعترف أنى أوليها اهتمامى بالفعل. فإنه يروح عن النفس ويسعدها أن يتعرف الإنسان على تاريخ القرن التاسع عشر، بمغامراته المحفوفة بالمخاطر وتحضره غير الكامل، ورجاله أقوياء البنية ونسائه السذج. إننى أعجب لحد كبير بهذه القصص العنيفة أكثر من أى شىء آخر. لقد كانت تلك

عصورًا غريبة بالفعل بخطوط السكك الحديدية البالية الصدئة والملوثة بالسخام وقطاراتها الحديدية العتيقة التى تنفث الدخان الأسود ودورها الصغيرة الغريبة وعرباتها التى تجرها الخيول. أعتقد أنك لا تقرأ الكتب؟".

قال (موارس): "يا إلهى! بالطبع لا! لقد تعلمت فى مدرسة حديثة ولم نكن نستخدم مثل هذه الترهات التى عفا عليها الزمن. إنى أجد فى الحاكى كل رغباتى!"

قال المنوم المغنطيسى، وهو يمعن النظر إلى ما شملته المائدة بحثًا عن اختيار جديد من أصناف الطعام:

"بالطبع، بالطبع".

ثم استطرد، وهو يتناول صنفًا من المربى ذا لون أزرق داكن، يوحى بمذاق طيب:

"إن عملنا هذا، لم يكن يلقى الاهتمام الكافى فى تلك العصور، وأعتقد بأنه لو أن أحدًا قد أبلغ أهالى هذه العصور بأن طبقة من الناس سوف تظهر فى غضون المائتى سنة القادمة، وتشغل نفسها بطبع أفكار خاصة فى الذهن وطمس الأفكار البغيضة، والتحكم والتغلب على الدوافع الغريزية غير المرغوب فيها، وما إلى ذلك ومستعينة بالتنويم المغنطيسى، لما صدقوا الأمر واعتبروه مستحيلاً، إذ لم يكن يعلم إلا القليلون أن فى الإمكان أن يصدر أمر - خلال حالة غيبوبة ناتجة عن تنويم مغنطيسى - لينفذه المنوم بعد انتهاء هذه الحالة، حتى لو كان أمرًا بنسيان شئ ما أو الرغبة فى شئ

آخر. بيد أنه كان من بينهم من كان بوسعه أن ينبئهم بأن ذلك آت ولا شك.. مثل حدث فلكى كعبور(١٢) كوكب الزهرة".

"إذن، لقد كانوا على علم بالتنويم المغنطيسى".

"نعم يا عزيزى! ودون أدنى شك! فقد استخدموه فى علاج الأسنان بدون ألم وما شابه ذلك من الأغراض.. إن هذه المربى الزرقاء طيبة المذاق للغاية. ألا تعلم مم تتكون؟"

قال (موارس): "ليس لدىّ أدنى فكرة عن مكوناتها، لكنى أعترف بأنها ذات نكهة طيبة جدًا، تناول مقدارًا آخر منها".

استمر المنوم المغنطيسى يبدى إعجابه بالمربى ثم توقفا عن تبادل الحديث لهنيهة.

وبعدها قال (موارس) وهو يحاول أن تبدو كلماته بسيطة ومرتجلة دون إعداد مسبق:

"إن الحديث عن هذه الروايات التاريخية... يذكرنى.. بالموضوع.. الذى كان يشغل تفكيرى.. عندما طلبت منك.. أقصد عندما أعلنت عن رغبتى فى مقابلتك".

ثم توقف وتنفس الصعداء.

ورماه المنوم المغنطيسى بنظرة حادة ثم استمر فى تناول طعامه.

قال (موارس):

---

(١٢) مرور جسم فضائى أمام آخر، ويقصد هنا مرور كوكب الزهرة بين الأرض والشمس ويكون فى يونيو أو ديسمبر (المترجم).

"الحقيقة أن لى ابنة قد توفرت لها كل فرص التعليم الراقى. ولم تكتف بما كان يلقى عليها من محاضرات حول كل مهارة توجد فى هذا العالم. بل كان لديها أيضًا جهاز هاتف للاتصال البعيد، ومنه تعلمت الرقص وقواعد السلوك والمعاملات وآداب الحديث والفلسفة ونقد الفن - ثم رسم بيده إشارة توحى بأنها تعلمت كذلك الثقافة الكاثوليكية - كنت أنوى أن أزوجها بصديق طيب جدًا من أصدقائى - إنه (بندون) عضو لجنة الإضاءة - وهو شاب عادى وبعض أساليبه فى الحياة لا تلقى الاستحسان إلى حد ما، ولكنه شاب ممتاز حقًا.. ممتاز بالفعل..".

"حسن، وماذا بعد؟ كم عمرها؟".

"ثمانى عشرة".

"سن خطرة، أكمل..".

"حسن، يخيل لى أنها أشبعت رغبتها فى قراءة مثل هذه الروايات الخيالية التاريخية متجاوزة الحد الطبيعى والمعقول.. وبإفراط شديد. إلى الحد أنها تجاهلت كل ما تعلمته من قبل وأخذت تملأ عقلها بتفاهات لا تروى حول الحرب. حول جنود يتقاتلون، لا أدرى من هم، هل هم الأتروريون؟"(١٤).

"لا بل المصريون القدماء".

"نعم، الأرجح أنهم المصريون القدماء بالفعل.. سيوف يلوحون بها ويقطعون بها الرقاب. وأسلحة نارية وأشياء من هذا القبيل وإراقة

---

(١٤) شعب (أتروريا) وهى بلاد قديمة فى غربى إيطاليا (المترجم).

دماء بغزارة، يا له من أمر مروع! وشبان يركبون قذائف الطوربيد ويفجرونها ليصبحوا أشلاء متناثرة.. أعتقد أنهم الإسبان.. إلى غير ذلك من صنوف المغامرات الطائشة.. ثم سيطرت على ذهنها فكرة أن يكون زواجها عن حب.. وماذا يكون حال هذا التعيس (بندون)".

قال المنوم المغنطيسى: "ثمة حالات مشابهة صادفتها فى عملى.. ومن يكون الشاب الآخر؟".

احتفظ (موارس) لنفسه بمظهر الهدوء والاستكانة ثم قال: "لقد أحسنت بسؤالك عنه، إنه..."، وهنا قال بصوت خفيض ينم عن الخجل.." إنه واحد من الموظفين العاديين العاملين بالمنصة التى تهبط فوقها الأجهزة الطائرة القادمة من (باريس).. وهو على حد تعبير شخوص القصص الخيالية وسيم حسن الهيئة وفى مقتبل عمره، إلا أنه غريب الأطوار إلى حد بعيد. يؤثر الأزمان القديمة.. تخيل أنه يقرأ ويكتب! وهذا هو حال ابنتى أيضًا.. والغريب أنهما بدلاً من تبادل الأفكار بالهاتف كما يفعل راجحو العقل، فإنهما يكتبان ويتراسلان، لست أدرى ما الذى حدث لهما!".

"مذكرات؟".

"لا، ليست مذكرات.. آه تذكرت.. قصائد من الشعر"!

ورفع المنوم المغنطيسى حاجبيه ورد قائلاً:

"وكيف قابلته ابنتك؟".

"تعثرت قدمها بينما كانت تهبط من الجهاز الطائر القادم من (باريس).. فسقطت بين ذراعيه. وما هى إلا لحظات حتى حلت اللعنة!".

"وبعد".

"حسن، هذا هو كل شيء. يجب أن نضع حدًا لهذه الأمور.. هذا هو ما كنت أريد أن أستشيرك فيه. ما الذى يمكن عمله؟ وما الذى يمكننا أن نفعله؟ بالطبع إننى لست منومًا مغنطيسيًا، ومن ثم فإن معرفتى محدودة، ولكنك أنت؟"

وضع الرجل ذو الرداء الأخضر كلتا يديه فوق المائدة وقال:

"علم التنويم المغنطيسى ليس سحرًا وخارقًا للطبيعة".

"نعم لاشك فى هذا! ولكن مع هذا..".

"لا يمكن تنويم شخص مغنطيسيًا بدون موافقته. وإذا كانت ابنتك قد استطاعت أن تقاوم بشدة الإقدام على الزواج بـ (بندون) فإن بإمكانها فيما يبدو أن تقاوم أيضًا الاستسلام للتنويم المغنطيسى. ولكن بمجرد أن تنوم ـ ولو على يد شخص آخر ـ سوف ينقضى الأمر".

"وهل هذا فى مقدورك؟".

"أجل، بكل تأكيد، وسوف يكون بوسعنا ـ بمجرد أن تصبح سهلة الانقياد ـ أن نؤثر عليها بالإيحاء أن تتزوج بـ (بندون)، وأن ذلك هو قدرها أو أن نوحى لها بأن هذا الشاب الآخر مثير للاشمئزاز، وأنها حين تراه ستصاب بدوار وتفقد وعيها، أو أية أكذوبة صغيرة من هذه الأكاذيب. ويمكننا كذلك إذا ما استطعنا أن نوقعها فى غشية(١٥) أن نوحى لها بأن تنساه كلية".

---

(١٥) حالة عميقة من النوم المغنطيسى أو الإغماء التخشبى (المترجم).

"هذا ما أريده تمامًا".

"لكن المشكلة هى إيجاد الوسيلة التى يمكن بها دفعها إلى حالة من التنويم المغنطيسى. ولا ينبغى بطبيعة الحال أن تصدر عنك أية إشارات أو إيماءات. إذ لا ريب أنها قد بدأت تشك فى مخططاتك فى هذا الأمر".

وأسند المنوم المغنطيسى رأسه إلى ذراعه وأخذ يفكر مليًا.

ولكن (موارس) تحدث عن شىء غير متصل بالموضوع فقال: "من الموجع ألا يتمكن الإنسان من تدبير أمور ابنته".

فقال المنوم المغنطيسى: "يجب أن تعطينى اسم الفتاة وعنوانها، ثم أية معلومات أخرى تتعلق بهذا الموضوع. وبالمناسبة، هل يتضمن الأمر أية مسائل مالية؟".

قال (موارس) بعد تردد:

"ثمة مبلغ.. فى الحقيقة، مبلغ كبير من المال.. مستثمر فى شركة الطرق العامة. ورثته عن أمها. وأن هذا هو ما يثير حنقى حقًا".

قال المنوم المغنطيسى:

"تمامًا". ثم أخذ يستجوب (موارس) بدقة حول الموضوع بكل جوانبه واستغرقت المقابلة وقتًا طويلاً.

وفى غضون ذلك كانت (إليزابيث موارس)، وهذا هو اسمها الذى كانت تنطقه بصورة محرفة حيث كان يُنطق (إليزابيث موريس)، فى القرن التاسع عشر. تجلس فى مكان انتظار هادئ

يوجد تحت المنصة الهائلة المخصصة لهبوط الأجهزة الطائرة القادمة من (باريس)، وقد جلس إلى جانبها ذلك العاشق الوسيم رشيق القوام يتلو عليها قصيدة نظمها هذا الصباح أثناء نوبة عمله بمنصة الطيران وعندما انتهى من قصيدته خيم الصمت على العاشقين ردحًا من الزمن. ثم حدث أن اندفع من السماء ـ كما لو أن القدر أراد أن يمنحهما متعة خاصة ـ ذلك الجهاز الهائل الذى جاء طائرًا عبر الفضاء قادمًا من أمريكا هذا الصباح.

ظهر هذا الجهاز فى مبدأ الأمر على هيئة شكل مستطيل صغير، باهت الزرقة محاط بالسحب البعيدة الناعمة كالصوف، ثم سرعان ما كبر حجمه وابيضّ لونه أكثر وأكثر، حتى استطاعا تبين الصفوف المتراصة من الأشرعة كل على حدة، وقد بلغ عرض كل منها مئات الأقدام، ثم ظهر لهما ذلك الجسم الطويل النحيل الذى يعتمد على هذه الأشرعة، بل لقد وضح لهما فى آخر الأمر صف مقاعد الركاب المتأرجحة والمنقطة. وعلى الرغم من أن الجهاز الطائر كان فى حالة هبوط ,فقد خيل لهما أنه ينطلق عاليًا فى الفضاء، أما ظله المنعكس فوق أسقف مبانى المدينة فكان يقفز باتجاههما، وسمعا الصوت الحاد للهواء المندفع حول الجهاز، والصفير المدوى الذى يرتفع رويدًا والصادر عن أجهزة الإنذار، لتنبيه الواقفين على منصة الهبوط، وتحذيرهم باقترابها. وفجأة انخفضت حدة الصوت بمقدار عدة طبقات، وهبط الجهاز الطائر، وأصبحت السماء صافية وخالية، صار بإمكان (إليزابيث) أن تحول من جديد عينيها النجلاوين إلى (دنتون) الجالس إلى جوارها.

غير أن (دنتون) قطع الصمت الذى خيم عليهما وأخذ يقص فى لغة إنجليزية ركيكة متعثرة - كانا يعتقدان أنها تخصهما وحدهما، ولم يعلما أن العشاق قد استخدموا مثل هذه اللغة منذ بدء التاريخ - كيف أنهما سوف يقومان بدورهما بالقفز فى الهواء ذات صباح ليتخلصا من العقبات والمصاعب التى تحيط بهما، ويطيرا إلى مدينة يغمرها دفء الشمس وتمتلىء بكل صنوف المتع، تقع فى اليابان ويقطع لها المسافر نصف قطر الأرض.

وعشقت هذا الحلم، وإن كانت فكرة القفز قد راعتها، وعلى الرغم من كل توسلاته بأن يحققا ذلك خلال وقت قصير، فقد قاطعته بقولها:

"يومًا ما، يا حبيبى، يومًا ما".

وفى النهاية سمع أصوات صفارات مدوية تنبئه بالعودة إلى ممارسة أعماله فوق المنصة. وافترقا كما اعتاد العاشقون أن يفترقوا منذ آلاف السنين. وهبطت ممرًا يؤدى إلى مصعد وبذلك بلغت أحد شوارع مدينة (لندن) فى ذلك العصر المتأخر، وقد أحيط كله بطبقة من الزجاج المصقول للوقاية من تقلبات الطقس. وتخللته الأرصفة دائمة التحرك التى تمتد إلى جميع أنحاء المدينة. وباستخدام واحد من هذه الأرصفة المتحركة عادت (إليزابيث) إلى مسكنها فى فندق النساء حيث كانت تقيم، وقد كانت حجرات هذا الفندق على اتصال هاتفى بأفضل المحاضرين فى العالم. بيد أن شمس منصة الطيران كانت تغمر قلبها بالدفء، وبدت حكمة جميع هؤلاء المحاضرين - المميزين على مستوى العالم كله - جهالة وحماقة، مقارنة بالضوء الذى يملأ جوانحها.

وقضت منتصف ذلك اليوم داخل مبنى الألعاب الرياضية، وتناولت طعام الغداء مع فتاتين أخريين تصحبهما وصيفتهما، ذلك أنه كان ما يزال قائمًا بين الطبقات الراقية تقليد الاحتفاظ بوصيفة تحرس الفتيات اللائى فقدن أمهاتهن. وكان لدى هذه الوصيفة فى ذلك اليوم ضيف يرتدى زيًا يجمع بين اللونين الأخضر والأصفر، ذو وجه أبيض وعينين متقدتين، يتحدث بطلاقة مذهلة. ومن بين الموضوعات التى تحدث عنها، موضوع إحدى الروايات التاريخية الجديدة التى أذاعها مؤخرًا، رواية نشرها أحد كبار المؤلفين المعروفين وقد أسهب هذا الزائر فى امتداحها. وكانت أحداثها تدور بطبيعة الحال حول عصور الملكة فكتوريا المزدهرة، وكان من بين مبتكرات هذا المؤلف الجديدة المحببة للنفس، أن يبدأ كل فصل من الرواية بنبذة قصيرة، تقليدًا للعناوين الرئيسية للفصول التى جرى عليها تبويب الكتب عتيقة الطراز. مثال ذلك: "كيف أوقف سائقو عربات الأجرة فى (بمليكو)، باصات فكتوريا، والقتال الشرس الذى دار فى فناء القصر" و"كيف اغتيل بعنف شرطى البيكادللى أثناء قيامه بعمله". وقد أثنى الرجل ذو الرداء الأخضر والأصفر على هذا التجديد قائلاً:

"إن هذه العبارات البليغة لجديرة بالإعجاب، فهى تنقل لنا من الوهلة الأولى صورة تلك العهود الطائشة والمضطربة التى كان الإنسان والحيوان يتدافعان ويتزاحمان فيها فى طرقات قذرة وكريهة، وكان الموت يتربص بالإنسان عند كل ركن. هذه كانت مظاهر الحياة فى ذلك الوقت!

لا بد أن العالم كان يبدو آنذاك بالغ الروعة! كم كان عجيبًا! كان العالم لا يزال يضم أجزاء لم يستكشفها إنسان أبدًا، أما اليوم فقد كدنا نقضى على كل ما يثير الروع والدهشة وأصبحنا نعيش حياة بالغة المنهجية والانتظام.. حتى إن فضائل الشجاعة والصبر والإيمان، بل وكل الفضائل السامية كادت تذوى من حياة البشرية".

وهكذا استمر هذا الزائر يأخذ بتلابيب أفكار الفتيات حتى بدت لهن الحياة التى يعشنها فى مدينة لندن مترامية ومتشابكة الأطراف إبان القرن الثانى والعشرين ـ وهى الحياة التى كانت تتميز برحلات جوية إلى كل جزء من الكرة الأرضية ـ حياة مضجرة بائسة، بالقياس إلى حياة الماضى التى تكتنفها المبتكرات والمهارات.

فى البداية لم تشترك (إليزابيث)، فى هذه المناقشة، ولكن سرعان ما أصبح الحديث بالغ الجاذبية، ومن ثم قامت بإبداء بعض المداخلات المتحفظة فى خجل. غير أن ذلك الرجل بدا كما لو كان لا يشعر بوجودها. وهو مستغرق للغاية فى الشرح، ثم أخذ يتحدث عن أسلوب جديد من أساليب الترفيه عن الناس وإمتاعهم. وهو أن يتم تنويم الناس مغنطيسيًا، ثم ببث إيحاءات معينة فى براعة وإتقان يتوهمون أنهم قد عادوا إلى حياة العصور الماضية من جديد. وفى الماضى ينخرطون فى مغامرة رومانسية تبدو لهم وكأنها حقيقية، وعندما يوقظون من غيبوبتهم فى النهاية يتذكرون كل ما تراءى لهم وكأنه حقيقة واقعة.

واستطرد المنوم المغنطيسى فى حديثه قائلاً:

"إن هذا هو ما كنا نهدف إلى تحقيقه منذ سنين طويلة.. تخليق حلم مصطنع. وتوصلنا إلى الوسيلة فى نهاية الأمر. ولتتخيلن تلك الآفاق الجديدة التى يفتحها أمامنا هذا الاكتشاف، فلسوف يعزز من خبرتنا ويعيد لنا روح المغامرة ويقدم لنا مخرجًا من حياة تكتنفها الصراعات والأطماع التى نعيشها اليوم، فكرن فى هذا".

قالت الوصيفة فى لهفة:

"وهل بإمكانك أن تفعل ذلك؟"

فقال المنوم المغنطيسى:

"أخيرًا أصبح هذا الأمر ممكنًا. ولك أن تطلبى الحلم الذى ترغبين فيه".

وكانت الوصيفة هى أول من تقدمت من بينهن للتنويم، وعندما أوقظت أنبأتهن بأن الحلم الذى تراءى لها كان رائعًا.

واستسلمت الفتاتان الأخريان لأيدى المنوم المغنطيسى، وقد شجعهما على ذلك حماس المربية، فانغمستا فى رومانسية الماضى. ولم تدع أى منهما (إليزابيث) لكى تجرب هذه المتعة الجديدة، إلا أنها - بناء على رغبتها فى نهاية الأمر - أخذت إلى أرض الأحلام حيث لا توجد أى حرية للاختيار أو للإرادة. وهكذا وقع الأذى.

وذات يوم عندما توجه (دنتون) إلى ذلك المقعد الهادئ الواقع أسفل منصة الطيران، لم يجد (إليزابيث) فى مكانها المعتاد. فأسف لذلك وأحس بشىء من الغضب. ولم تأت كذلك فى اليوم التالى، ولا فى اليوم الثالث. وشعر بالخوف والقلق عليها، ولكى يخفف عن

نفسه مشقة هذا الإحساس، قرر أن يشرع فى نظم بعض السوناتات الشعرية[١٦] ليتلوها عليها عندما تعود من جديد.

ومضت ثلاثة أيام وهو يغالب تلك الخشية التى داخلته، مستعينًا بهذا الإلهاء، ولكن الحقيقة لم تلبث أن تراءت له واضحة ومثبطة للهمة. ربما تكون (إليزابيث) مريضة، ولعلها قضت نحبها، وإما أن تكون قد خانته فذلك ما لا يصدقه عقله ومضى أسبوع وهو على حاله هذه من البؤس والتعاسة. وتحقق له آنذاك أنها أصبحت أعز ما لديه فى الحياة، ولابد من البحث الجاد عنها، مهما كانت الصعاب التى سوف يواجهها، حتى يتم له العثور عليها من جديد.

وكانت لديه بعض الموارد المالية الضئيلة الخاصة مما شجعه على أن يعتزل وظيفته بمنصة الطيران ليكرس اهتمامه كله للبحث عن فتاته التى أصبحت ـ فى النهاية ـ دنياه بأسرها. ولم يكن يعرف مكان إقامتها، كما لم يكن يعلم غير القليل عن ظروف حياتها، إذ إنها قد صممت ـ رغبة منها فى أن تكتمل متعتها بمغامرتها الرومانسية ـ ألا يعلم (دنتون) عنها شيئًا، وألا يدرك ما بين مركزيهما الاجتماعيين من تباين. وتجلت طرقات المدينة أمامه فى كل الجهات شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. لقد كانت مدينة (لندن) ـ حتى فى العصر الفكتورى ذاته ـ متاهة من الطرق المتقاطعة والمتشابكة، هذه المدينة الصغيرة التى لم يكن يزيد عدد سكانها على أربعة ملايين. أما مدينة لندن التى كان (دنتون) يريد استكشافها أو لندن القرن الثانى والعشرين فكانت تضم ثلاثين مليونًا من السكان.

---

(١٦) قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتًا لها قافية واحدة (المترجم).

وفى البداية أخذ (دنتون) يبحث وهو مفعم بالنشاط والحماس مندفعًا، لا يأكل ولا ينام. وقضى فى هذا البحث الأسابيع والأشهر، وتحمل كل ما يمكن تخيله من صنوف الإرهاق واليأس والاهتياج البالغ والغضب. وبعد أن فقد الأمل بمدة طويلة، ظل ـ بفعل القوة الدافعة المجردة لرغبته ـ يذرع المدينة جيئة وذهابًا، يحدق بنظره فى وجوه المارة ويتطلع إلى الطرق يمنة ويسرة، فى الأرصفة المتحركة بلا انقطاع وفى المصاعد والممرات التى يضمها هذا "القفير"(١٧) اللانهائى الذى شيده الإنسان.

وابتسم له الحظ أخيرًا، فرآها.

حدث ذلك فى يوم من أيام أحد المهرجانات، وكان يتضور جوعًا، فدفع أجر الدخول الشامل ودلف إلى إحدى قاعات الطعام الهائلة التى تضمها المدينة، وأخذ يشق طريقه بين الموائد يمعن النظر فى الوجوه التى يمر بها، بحكم العادة. ثم وقف جامدًا، وقد فقد كل قدرة على الحركة، وقد اتسعت حدقتا عينيه وتباعدت شفتاه. فقد كانت (إليزابيث) تجلس على بعد عشرين ياردة أو أقل وهى تسدد النظر إليه مباشرة. كانت نظراتها إليه ثاقبة ثابتة وخلو من كل التعبير والإدراك كما لو كانت صادرة عن تمثال.

نظرت إليه لهنيهة ثم حدقت فى شىء آخر، متجاوزة إياه.

ولو لم يكن لديه من دليل لمعرفتها سوى عينيها لارتاب فيما لو كانت هذه هى فى الحقيقة (إليزابيث)، ولكنه كان يعرفها ـ على

---

(١٧) خلايا النحل التى تعج بالنشاط (المترجم).

وجه التأكيد ـ بحركة يديها وبهذه الخصلة الدقيقة من الشعر لولبية الشكل التى كانت تتحرك بخفة فوق أذنها كلما حركت رأسها. وعندما تحدث إليها شخص ما استدارت باسمة لذلك الرجل قصير القامة الذى كان يجلس إلى جوارها، وكان رجلاً نحيلاً يرتدى حلة تثير السخرية تبرز منها نتوءات حادة وكأنها أفعى غريبة ذات قرون ناتئة، كان هذا هو (بندون) الذى اختاره أبوها زوجًا لها.

ولفترة قصيرة ظل (دنتون) واقفًا ممتقع الوجه جاحظ العينين، ثم أحس بدوار رهيب فتهالك إلى إحدى الموائد الصغيرة معطيًا ظهره لها دون أن يجرؤ على النظر إليها من جديد. وعندما استطاع أن ينظر إليها أخيرًا، شاهدها و(بندون) وشخصين آخرين ينهضون تأهبا للانصراف. أما هذان الشخصان الآخران فكانا أباها ووصيفتها.

استمر (دنتون) على جلسته هذه كما لو أنه كان عاجزًا عن الحركة، حتى ابتعد الأشخاص الأربعة وتضاءل حجمهم، فانتصب واقفًا وقد تملكته فكرة واحدة أن يطاردهم ويلحق بهم. وبعد مرور وقت قصير، خشى أن يكون قد فقد كل أثر لهم.

ولكنه سرعان ما التقى بـ (إليزابيث) ووصيفتها مرة أخرى فى أحد الشوارع ذات الأرصفة المتحركة التى تتقاطع عبر كل المدينة. أما (بندون) و(موارس) فكانا قد اختفيا عن الأنظار.

ولم يستطع (دنتون) أن يتحلى بالصبر. وشعر أنه إذا لم يتحدث إليها على الفور، فالأفضل له أن يموت. فشق طريقه إلى الأمام إلى حيث كانتا تجلسان وجلس إلى جانبهما. ووجهه الممتقع

الشاحب متشنج بسبب توتره البالغ الذى يكاد أن يصل إلى حالة الهستيريا[١٨].

وقبض بيده على معصمها قائلاً:

"(إليزابيث)!".

فاستدارت إليه فى دهشة غير متصنعة. ولم تكن تعبيرات وجهها تنم عن أى شىء سوى الرهبة من ظهور رجل غريب أمامها فجأة. صاح ونبرات صوته تبدو غريبة حتى عنه:

"(إليزابيث)، حبيبتى!، أنت تعرفيننى بالتأكيد؟".

ولم يفصح وجه (إليزابيث) إلا عن شعور بالهلع. وأبعدت نفسها عنه. وانحنت الوصيفة ذات الشعر الرمادى إلى حد ما والملامح المتغيرة إلى ناحيته، لتتدخل بينهما!! فتفحصت (دنتون) بنظراتها الصارمة وسألته قائلة:

"ما هذا الذى كنت تقوله؟".

"هذه الآنسة تعرفنى..".

"عزيزتى! هل تعرفينه".

"كلا".

كانت نبرة (إليزابيث) بالغة الغرابة وهى تضغط بكفها على جبهتها وكأنها تكرر درسًا حفظته:

---

(١٨) اضطراب عصبى شديد يسبب فقدان السيطرة على الذات (المترجم).

"لا.. لست أعرفه. أعرف.. إننى لا أعرفه".

"ولكن.. ولكن.. كيف لا تعرفيننى؟ أنا (دنتون)! (دنتون)! الذى حدثته كثيرًا. ألا تتذكرين منصات الطيران؟ ومقعدنا الصغير فى الهواء الطلق والأشعار؟..".

فصاحت (إليزابيث):

"لا أعرفه، لا أعرفه. إن فى الأمر شيئًا ما.. ولكنى لست أدرى ما هو؟ كل ما أعرفه هو أنى لا أعرفه". وارتسمت فوق قسمات وجهها سمات معاناة شديدة وألم مبرح، وتنقلت نظرات الوصيفة الثاقبة بين الفتاة والرجل.

ثم قالت وقد ارتسم على شفتيها شبح ابتسامة باهتة:

"كما ترى أنها لا تعرفك".

قالت (إليزابيث):

"لست أعرفك، إننى متأكدة من هذا".

"ولكن يا عزيزتى ألا تذكرين... الأغانى... وأشعارنا الصغيرة.."

قالت الوصيفة:

"إنها لا تعرفك، ولا يليق بك -وقد وقعت فى خطأ- أن تستمر فى التحدث معنا بعد ذلك. ولا يجدر بك أن تضايقنا فى الطريق العام".

ارتسمت على وجه (دنتون) الشاحب والمرهق والمضطرب تعبيرات التماس وتضرع وتوسل يائسة:

"ولكن...".

قاطعته الوصيفة بقولها:

"لا يجب أن تكون لحوحًا بهذا الشكل أيها الشاب".

فصاح (دنتون):

"(إليزابيث)!".

وكان وجه (إليزابيث) ينم عن ألم جسدى مبرح وكرب نفسى. وصرخت عاليًا وهى تضغط بيدها على جبهتها:

"أواه، لست أعرفك!".

وظل (دنتون) فى مقعده مصعوقًا. ثم انتصب واقفًا وتأوه بأعلى صوت.

وأتى بحركة غريبة، إذ رفع يديه فى اتجاه السقف الزجاجى بالغ الارتفاع الذى يغطى الطريق العام وكأنه يتوسل له ويتضرع إليه، ثم استدار وراح يندفع بتهور وطيش من رصيف متحرك إلى آخر، وتلاشى بين حشود الناس التى كانت تتحرك فوق طرقات المدينة آنذاك. وظلت نظرات الوصيفة تلاحقه حتى اختفى ثم عادت إلى التطلع إلى الوجوه الفضولية التى تحيط بها.

وقبضت (إليزابيث) على يدها بشدة، وقد غلبها التأثر إلى الحد أنها لم تكترث بعيون الناظرين، وقالت:

"عزيزتى، من كان هذا الرجل؟ من كان هذا الرجل؟".

ورفعت الوصيفة حاجبيها فى تعجب. وتحدثت بصوت عال يمكن سماعه بوضوح:

"مخلوق أحمق. لم يقع عليه بصرى أبدًا من قبل".

"أتقولين أبدًا".

"نعم يا عزيزتى.. ولا تكدرى ذهنك بالتفكير فى أمر كهذا...".

ولم ينقض وقت طويل على هذه الحادثة حتى عثر المنوم المغنطيسى الشهير صاحب الزى الأخضر والأصفر على عميل جديد. وراح الشاب (دنتون) يذرع غرفة الكشف جيئة وذهابًا، وهو ممتقع الوجه ويعانى من أشد حالات الاضطراب.. أخذ يصيح:

"أريد أن أنسى.. بل يجب أن أنسى".

وراح المنوم المغنطيسى يرمقه فى هدوء، متفحصًا وجهه وملابسه وتصرفاته من حيث مشيته ووقفته وجلسته ثم قال:

"أن تنسى أى شىء - مبهج أو مؤلم - وتمحوه من ذاكرتك فإنك تفقد - فى نفس الوقت - جزءًا من نفسك. وعلى العموم فأنت أدرى بمصلحتك.. وبالمناسبة فإن أتعابى باهظة!".

"آه، لو كان بإمكانى أن أنسى!".

"إنها لمهمة يسيرة بالنسبة لك. لأن هذه هى رغبتك. ولقد سبق لى أن عالجت حالات أشد صعوبة منذ وقت قريب.. كان أملى فى النجاح ضئيلاً... فقد قمت بعملية ضد رغبة الشخص المنوّم مغنطيسيًا، وكان الأمر يتعلق بقصة حب.. مثل قصتك.. كانت هناك فتاة.. ولذا، فلتكن مطمئنًا".

واتجه الشاب إلى المنوم وجلس إلى جانبه. وكان سلوكه ينم عن هدوء مصطنع. ثم سدد نظره إلى عينى المنوم قائلاً:

"سوف أخبرك بكل شىء. لابد أنك تريد أن تعرف ما الذى حدث. إن الأمر يتعلق بفتاة اسمها (إليزابيث موارس)... حسن..!".

وتوقف عن الكلام فقد رأى علامات دهشة مباغتة ترتسم على وجه المنوم المغنطيسى. وتكشفت له حقيقة الأمر فى تلك اللحظة. فانتصب واقفًا. وبدا كما لو أنه يسيطر على الشخص الجالس إلى جانبه وأمسك بالقوة بالكتف الخضراء الموشاة بالذهب، ولبعض الوقت لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة من فرط انفعاله.

ثم صاح فى نهاية الأمر:

"أعدها لى.. أعدها لى"!.

فقال المنوم المغنطيسى وهو يتنفس بصعوبة:

"لا أدرى ما تعنيه!".

"أعدها لى!".

"من هى التى أعيدها؟".

"(إليزابيث موارس)!.. الفتاة".

وحاول المنوم أن يخلص نفسه من قبضته، ونهض واقفًا. واشتدت قبضة (دنتون).

فصاح المنوم المغنطيسى:

"دعنى!" ودفع صدر (دنتون) بذراعه، دفعة قوية.

وفى لحظة، تلاحم الرجلان فى صراع أخرق، فلم يحصل أى منها على أدنى تدريب فى لعبة المصارعة. فالألعاب والنشاطات الرياضية، فيما عدا ما يجرى من مباريات ـ بقصد عرض المهارات أو عقد المراهنات ـ كانت قد تلاشت من الأرض تمامًا. بيد أن (دنتون) لم يكن يتميز عن خصمه بأنه أكثر شبابًا فحسب بل وبقوته أيضًا. وأخذا يتأرجحان عبر الحجرة، واستطاع المنوم المغنطيسى أن يستلقى تحت خصمه، فسقط الاثنان معًا على الأرضية.

ولكن (دنتون) انتصب واقفًا من فوره، وأبدى أسفه على هذا الاهتياج الذى تملكه، غير أن المنوم المغنطيسى ظل طريح الأرض جامدًا، وعلى حين غرة انبثق الدم أحمر وغزيرًا من علامة بيضاء صغيرة فى مكان اصطدام جبهته بأحد المقاعد، الذى ليس له ظهر ولا مساند لليدين.

ومضت فترة و(دنتون) ما زال واقفًا بجانبه متحيرًا وفاقد العزم ومرتعدًا. فقد أحس داخل نفسه ـ المهذبة الرقيقة ـ شعورًا بالخوف من عواقب ما اقترفه. فاتجه ناحية الباب.. ولكنه قال بصوت مسموع: "كلا!" وعاد إلى وسط الحجرة من جديد.

وبعد أن قهر شعور النفور الغريزى الذى لابد أن ينتاب المرء الذى لم يقع بصره ـ طوال حياته ـ على أحد أعمال العنف، إلى جانب خصمه وضع يده فوق صدره فى مكان القلب، ثم أخذ يتفحص الجرح بإمعان ونهض فى هدوء وتطلع لما حوله وراحت جوانب الموقف تتضح له رويدًا.

وعندما استعاد المنوم المغنطيسى رشده بعد فترة وجيزة، أحس بصداع صعب الاحتمال، وكان يستند بظهره إلى ركبتى (دنتون) الذى أخذ يمسح وجهه بإسفنجة.

ولم ينبس المنوم المغنطيسى ببنت شفة، بل أشار على الفور بحركة من يده أنه يكتفى بهذا القدر من عملية مسح وجهه بالإسفنجة ثم قال:

"دعنى أنهض".

رد (دنتون) قائلاً:

"ليس بعد".

"لقد اعتديت علىّ أيها النذل!".

"نحن هنا بمفردنا والباب موصد بإحكام".

ومرت لحظات من التفكير.

قال (دنتون):

"إذا توقفت عن مسح وجهك بالإسفنجة فستظهر بجبهتك كدمة هائلة".

فقال المنوم المغنطيسى عابسًا:

"لك أن تستمر فى مسح وجهى بالإسفنجة".

وخيمت عليهما لحظات صمت أخرى، فرضت نفسها.

قال المنوم المغنطيسى:

"ربما كنا نعيش فى العصر الحجرى الذى يسود فيه العنف والصراع!".

فقال (دنتون):

"لم يكن فى العصر الحجرى من كان يجرؤ على الوقيعة بين رجل وامرأة".

وأطرق المنوم المغنطيسى هنيهة يفكر مليًا ثم سأله:

"وماذا تنوى أن تفعل إذن؟".

"بينما كنت فى غيبوبتك عثرت على عنوان الفتاة فى مجموعة أوراقك، ولم أكن أعرفه من قبل... وقد خابرتها بالهاتف وسوف تأتى على الفور.. وحينئذ...".

"سوف تصحبها وصيفتها".

"لا بأس فى ذلك".

"لكن قل لى.. إننى لا أستطيع أن أتصور. ما الذى تنوى فعله؟".

"لقد بحثت أيضًا عن سلاح. كم يبدو أمرًا عجيبًا أن تكون الأسلحة فى هذه الأيام قليلة للغاية ,لو علمت أن أهل العصر الحجرى لم يكونوا يقتنون فى الغالب أى شىء سوى السلاح. لقد عثرت أخيرًا على هذا المصباح. وخلعت أسلاكه وكل وصلاته به. وهأنذا أمسك به هكذا".

ورفعه فوق كتفى المنوم. ثم استطرد قائلاً: "بهذا أستطيع أن أسحق رأسك بسهولة. وهذا هو ما سوف أفعله إن لم تنفذ ما آمرك به..".

قال المنوم المغنطيسى مقتبسًا عن "كتاب الرجل الحديث فى أعظم المبادئ الأخلاقية":

"العنف ليس علاجًا!".

فقال (دنتون):

"العنف آفة غير مرغوب فيها".

"حسن".

عليك أن تخبر هذه الوصيفة بأنك سوف تأمر الفتاة بزواج ذلك الحيوان الصغير الذى يشبه البقر الوحشى ذى الشعر الأحمر والعينين الشبيهتين بعينى ابن مقرض[١٩] أعتقد أن هذا هو الوضع السليم".

ثم استطرد: "أجل هذا هو الوضع السليم. وعليك عندما تتظاهر بذلك أن تستعيد ذاكرتها عنى".

"إن هذا يتعارض مع أخلاقيات المهنة!".

"اسمعنى جيدًا! إننى إن لم أرتبط بهذه الفتاة. فالموت عندى أفضل من الحياة. وليس فى نيتى أن أحترم تصوراتك الحقيرة. ولو أنك ارتكبت أى خطأ فلن تعيش خمس دقائق أخرى لا غير. ليس هذا الذى أحمله سوى بديل بدائى مؤقت لما يجب أن يكون عليه السلاح، وقد يكون من الموجع حقًا - حسبما أرى - أن أقتلك..

---

(١٩) حيوان صغير من اللواحم أشبه بابن عرس (المترجم).

ولكنى سأقوم بذلك.. إنى أعلم أن مثل هذه الأمور مستغربة فى هذه الأيام. لا لشىء إلا لأنه ليس فى حياة أهله إلا أشياء نادرة جديرة بأن يرتكب العنف من أجلها".

"ستراك الوصيفة مباشرة بمجرد وصولها إلى هنا".

"سوف أتوارى فى هذه الفجوة بجدار الغرفة التى توجد خلفك".

وأطرق المنوم المغنطيسى مفكرًا ومتأملاً ثم قال:

"أنت شاب مصمم وعاقد العزم. ولكنك مجرد نصف متحضر. لقد حاولت القيام بالتزامى الأخلاقى تجاه عميلى. ولكن يبدو أنك ـ فى حالتنا هذه ـ تريد أن تأخذ الأمور على عاتقك وتتحمل المسئولية".

"هل سوف تنفذ أوامرى بدون مواربة....؟".

"وهل أجازف بحياتى من أجل أمر تافه كهذا..".

"وما الذى سوف يحدث بعد هذا؟".

"الحقيقة أن ليس ثمة ما هو أبغض عند المنوم المغنطيسى أو الطبيب من أن يتعرض لظروف تسبب ضررًا لسمعته. أو أن يجلب العار للمشاعر الأخلاقية للمجتمع. وعلى الأقل فلست بدائيًا أو همجيًا... إن الأمر سوف يسوءنى بلاشك، إلا أننى لن أحمل فى نفسى ـ بعد مرور يوم أو نحو ذلك ـ أية ضغينة..".

"شكرًا لك.. والآن بعد أن فهم كل منا وجهة نظر الآخر، أرى أنه ليس هناك داع، لأن تبقى طريح الأرضية".

٢ ـ الريف المهجور

قالوا إن التغير الذى حدث للعالم فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٠٠ قد فاق ذلك التغير الذى طرأ على العالم خلال الخمسمائة سنة السابقة. كان هذا القرن ـ أى القرن التاسع عشر ـ يمثل بزوغ حقبة جديدة فى تاريخ الإنسانية. إنها حقبة المدن العظمى وخاتمة النظام العتيق للحياة الريفية.

ففى بداية القرن التاسع عشر كان الأكثرية من الناس ما زالوا يعيشون فى الريف وفق ما جرت عليه دروب حياتهم خلال أجيال لا تعد ولا تحصى. وكانوا ـ آنذاك ـ يقيمون فى مدن وقرى صغيرة.

ويشتغلون بالزراعة إما مباشرة أو بوظائف تقوم على خدمة الزراعيين. ولم يكونوا يسافرون بعيدًا عن مساكنهم إلا نادرًا، وكانوا شديدى الحرص على أن تكون منازلهم على مقربة من مقار أعمالهم، حيث إن وسائل النقل السريعة لم تكن قد اخترعت بعد. وكان ذلك العدد القليل الذى كان يسافر، يقطع رحلاته إما سيرًا على الأقدام، وإما فى مراكب شراعية كبيرة بطيئة، وإما على ظهور خيول تمشى الهوينى، لم تكن قادرة على قطع أكثر من ستين ميلاً فى اليوم. تخيل ذلك.. ستون ميلاً فى اليوم! وهنا وهناك، قد يحدث أن تنمو مدينة ما ـ فى هذه العصور البطيئة الكسولة ـ مقارنة بجاراتها، لكونها ميناء على شاطىء البحر أو مركزًا حكوميًا، إلا أن كل مدن العالم التى كانت تضم أكثر من مائة ألف نسمة، كانت فى الواقع قليلة للغاية تعد على الأصابع. كانت هذه هى الحال فى بداية القرن التاسع عشر. بيد أنه ما إن انتهى هذا القرن حتى

كانت مخترعات السكك الحديدية والبرق والسفن البخارية والآلات الزراعية المعقدة، قد قلبت الموازين فى هذه الأمور، بحيث لا يوجد أى أمل فى عودتها من جديد. وسرعان ما قامت وانتشرت - على نطاق واسع - المتاجر كبيرة الحجم ودور التسلية المتباينة، والعديد من المرافق الضرورية التى تزخر بها المدن الكبرى، وما إن ظهرت هذه كلها إلى حيز الوجود حتى جرت المنافسة بينها وبين إمكانيات المراكز الريفية التى تعتمد على الموارد المحلية المتواضعة. انجذبت البشرية بشكل ساحق، إلى المدن الكبيرة، وفضلوا الحياة فيها. وترتب على زيادة الآلات انخفاض الطلب على الأيدى العاملة، وشهدت الأسواق المحلية كسادًا شاملاً، وحققت المراكز الكبيرة نموًا وتطورًا سريعين على حساب الحياة الريفية.

وكان تدفق السكان على المدن هو الموضوع الدائم الذى يستحوذ على فكر كتاب العصر الفكتورى. وقد لوحظت هذه الظاهرة فى كل من بريطانيا العظمى ونيوانجلند والهند والصين. ففى الأرجاء كافة كانت ترى عدة مدن متضخمة فى طريقها إلى أن تستبدل بالنظام العتيق. غير أن عددًا قليلاً من الناس هم من أدركوا أن مثل هذا التطور لم يكن سوى نتيجة يتعذر اجتنابها لتقدم وسائل المواصلات وسبل النقل، ومن ثم فقد وضعت مشاريع بالغة التفاهة والحقارة والسذاجة، للتغلب على ذلك السحر الغامض الذى يعمل على جذب الناس إلى حياة المدن، ودفعهم للبقاء فى الأراضى الزراعية وعدم مغادرتها.

ومع ذلك فإن هذه التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر لم تكن سوى بدايات لنظام جديد.

وكان ينقص المدن الكبرى الأولى التى نشأت فى كنف العصر الجديد أنها كانت غير ملائمة على الإطلاق ,إذ كانت تبدو معتمة بسبب الضباب والدخان، لا تراعى فيها المقتضيات الصحية ومحدثة للصخب والضوضاء، بيد أن اكتشاف طرق حديثة فى فن البناء ووسائل التدفئة كان له بالغ الأثر فى تغيير كل هذه الأوضاع وما بين عامى ١٩٠٠ و ٢٠٠٠ أخذ التطور يسير بثبات ونظام بسرعة أكبر، حتى إن التقدم المستمر والمتسارع للمخترعات التى ابتكرها البشر فى الفترة ما بين عامى ٢٠٠٠ و ٢١٠٠ قد جعل عصر حكم الملكة فكتوريا الفاضلة يبدو وكأنه رؤى لا يصدقها العقل لحياة هادئة وجو من الرضا والطمأنينة.

ولقد كان ابتكار السكك الحديدية مجرد خطوة أولى فى تطوير وسائل النقل، التى أحدثت تغييرًا جذريًا فى الحياة الإنسانية ,وما إن جاء عام ٢٠٠٠ حتى كانت السكك الحديدية والطرق العادية قد اختفت تمامًا. وتحولت السكك الحديدية ـ بعد أن انتزعت قضبانها ـ إلى سلسلة طويلة وضيقة من التلال التى تكسوها الأعشاب، وأخاديد محفورة فى سطح الكرة الأرضية، أما الطرق القديمة وهى تلك الدروب البدائية التى كانت تعبد بأحجار الصوان والأتربة وتشكل بمدقات يدوية أو تمهد بواسطة اسطوانات حديدية دوّارة لها سطح خشن وغير مصقولة، وتتبعثر فيها أنواع متباينة من النفايات ذات الرائحة الكريهة، وتتخللها الحفر وبرك الطين التى

يصل عمقها إلى عدة بوصات، وذلك من أثر حوافر[٢٠] الخيل وعجلات المركبات، فقد استبدلت بطرق جديدة عالية الجودة، صنعت من مادة عرفت باسم "ايدهاميت" وهذه المادة سميت باسم حامل براءة اختراعها، لتحتل مركزًا مرموقًا على غرار الكشوف التاريخية الكبرى التى لعبت دورًا بالغ الأهمية فى تاريخ العالم كالطباعة والبخار.

وربما اعتقد (ايدهام) ـ عندما اكتشف هذه المادة ـ أنها مجرد بديل رخيص الثمن لمادة المطاط الهندى، التى كان ثمن الطن منها يبلغ بضعة شلنات. ولقد كان من المستحيل أن يتخيل المرء مدى الأهمية التى ستتحقق باستخدام هذا الاختراع، وأدت عبقرية شخص يدعى (وارمنج) ـ وحدها ـ إلى إمكانية استخدام هذه المادة، لا فى صناعة إطارات العجلات فقط، بل وأيضًا فى تعبيد الطرق وهو الذى قام بتصميم تلك الشبكة الجبارة من الطرق العامة التى امتدت إلى جميع أنحاء العالم بسرعة هائلة.

وقد كانت هذه الطرق العامة مقسمة إلى أجزاء طولانية، فالمستطيل الخارجى الذى يقع على جانبى الطريق، خصص للدراجات الهوائية ومركبات النقل التى تقل سرعتها عن خمسة وعشرين ميلاً فى الساعة، والمستطيل الأوسط خصص للسيارات التى تسير بسرعة لا تتجاوز مائة ميل، أما المستطيل الداخلى، فقد رأى (وارمنج) ـ رغم ما لقيه من تهكم بالغ ـ أن تختص به المركبات التى تسير بسرعة مائة ميل فى الساعة أو ما يفوق هذا.

---

(٢٠) غطاء صلب يكسو الأصابع والجزء الأسفل من القدم للحصان (المترجم).

وكان مصير هذه المستطيلات الداخلية ـ التى صممها (وارمنج) ـ أن بقيت دون استغلال مدة عشر سنوات. لكن قبل أن يموت شهدت هذه المستطيلات ازدحامًا أكثر من أى طرق أخرى، إذ أخذت تجوبها المركبات ضخمة الحجم وخفيفة الوزن، ذات العجلات التى تصل أقطارها إلى عشرين وثلاثين قدمًا، فى سرعة أخذت تتعاظم بثبات عامًا بعد عام حتى قاربت المائتى ميل فى الساعة. وبعد أن حققت هذه الثورة أهدافها، نشبت ـ بالتوازى معها ـ ثورة مماثلة غيرت جذريًا تلك المدن العظمى التى استمرت فى النمو دون توقف. وجاء الوقت للتشوش العقلى والقذارة التى سادت العصر الفكتورى أن تتلاشى أمام توسع العلوم التطبيقية. واستبدلت التدفئة الكهربية بالوقود المشتعل (فى عام ٢٠١٣ كانت النيران التى لا تمتص الدخان المتصاعد منها تمامًا تعد إزعاجًا لا يحتمل) كما كسيت طرقات المدينة وميادينها العامة كلها بطبقة ملساء رقيقة زجاجية اكتشفت حديثًا. واستمرت عمليات إقامة معظم أسقف مبانى مدينة لندن. وألغيت بعض التشريعات التى كانت تعكس قصر نظر وحمق واضعيها التى كانت تحرم إقامة المبانى الشاهقة. وسرعان ما أصبحت لندن لها مبانى شاهقة تشق أجواز الفضاء بعد أن كانت مجرد رقعة صغيرة تضم بضعة مبانٍ منخفضة وبدائية الطراز. وأصبح القيام بشئون التهوية من المسئوليات الملقاة على عاتق المجالس البلدية، إلى جانب إدارة مرافق المياه والإضاءة والصرف الصحى.

إلا أن الحديث عن كل هذه التغيرات التى طرأت على وسائل الراحة التى توافرت للإنسان خلال المائتى سنة الماضية، واختراع

الطيران الذى طالما تمناه الإنسان منذ أمد بعيد، وكيف أن أسلوب الحياة العائلية قد استبدل بأسلوب آخر من الحياة فى ظل عدد لا حصر له من الفنادق، وكيف أن من كانوا يهتمون بالعمل الزراعى فى ذلك الوقت فضلوا العيش فى المدن، وقطع الرحلة جيئة وذهابًا بين المدينة ومزارعهم، وكيف أنه لم تقم فى إنجلترا فى النهاية غير أربع مدن، تضم كل منها عدة ملايين من الناس، وكيف أنه لم يبق مسكن واحد مأهولاً فى كل ربوع الريف.. إن الحديث عن هذا كله يأخذنا بعيدًا عن قصتنا الأساسية التى تدور حول (دنتون) و(إليزابيث)، فقد عاد العاشقان إلى الوصال بعد الفراق ولكنهما لم يستطيعا الزواج. وكان هذا نتيجة خطأ (دنتون) وحده، فلم يكن يملك مالاً كافيًا، وكذلك (إليزابيث) إذ لم تكن تستطيع الحصول على ميراثها من أمها إلى أن تبلغ الحادية والعشرين من عمرها، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال بعد فى الثامنة عشرة. ويقدر لها حين تبلغ الحادية والعشرين عامًا أن تؤول إليها ممتلكات أمها جميعًا، فقد كان هذا هو العرف السائد فى ذلك العصر. وما كان ليخطر ببالها أبدًا أن بوسعها أن تقترض شيئًا من المال بضمان ميراثها المنتظر، أما (دنتون) فقد كانت نفسه الرقيقة العاشقة تمنعه من أن يوحى إليها بمثل هذه الفكرة. وهكذا تعقدت العلاقة بينهما وأصبحت شبه يائسة. فقد كانت (إليزابيث) تقول بأنها تعيسة للغاية وأن (دنتون) هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يفهمها، وأنها حين تبتعد عنه تشعر بأنها جد بائسة. وكان (دنتون) يجيبها قائلاً إن قلبه يشتاق إليها ليل نهار. وكان العاشقان يحرصان على اللقاء كلما لاحت لهما الفرصة لكى يتناقشا فى أحزانهما.

وذات يوم التقيا عند مقعدهما الصغير أعلى منصة الطيران. وكانت هذه هى النقطة المحددة التى كان يبدأ عندها - فى العصر الفكتورى - الطريق العام الممتد من (ومبلدون) إلى الأرض المشاع[٢١]. ومع هذا كانا يجلسان على ارتفاع خمسمائة ياردة من هذه النقطة، إذ كان مقعدهما يطل على مدينة لندن من ارتفاع كبير. ومن الصعوبة أن نحاول أن ننقل هذا المشهد لقارئ يعيش فى القرن التاسع عشر. فقد نطلب منه أن يتصور "قصر البللور" والفنادق العملاقة التى شيدت بلندن حديثًا، ثم يتخيل محطات السكك الحديدية الكبرى فى عصره، وقد تضخمت بناياتها وامتدت جميعها إلى أبعاد هائلة داخل كل المدينة العظيمة بحيث أصبحت تشغل مساحة المدينة بالكامل. ثم إذا قيل - لقارئ القرن العشرين - بعد ذلك إن السقوف العلوية هذه كانت فى يوم ما تحمل "غابة" هائلة من المراوح الهوائية الدوّارة، لبدأ يتخيل - ولكن بشكل غير واضح - ذلك المشهد الذى كان مألوفًا للغاية لهذين العاشقين.

وفى حقيقة الأمر، أن المدينة كانت تبدو فى عيونهما أشبه ما تكون بالسجن، ولطالما تحدثا معًا - ربما لمئات المرات - عن كيفية الفرار من هذا السجن، لينعما بالسعادة معًا. ولكن هذا يعنى هروبهما قبل أن تنتهى السنوات الثلاث المقررة لاستلام (إليزابيث) الميراث. وكان أن اتفق الشابان على أن الانتظار ثلاث سنوات أخرى ليس مستحيلاً فقط بل إنه أمر فظيع وكريه. وقال (دنتون) - فى هذا الصدد - فى نبرات تدل على أنه يتمتع بكامل الصحة والعافية:

---

(٢١) أى الخاصة بالمجتمع ككل (المترجم).

"ربما لقينا حتفنا قبل مرور الثلاث سنوات"!

وتماسكت أيديهما الشابة الغضة المليئة بالحيوية فى قوة. وتبادرت إلى ذهن (إليزابيث) فكرة أخرى جد مثيرة للعاطفة والشعور، لم تملك إزاءها إلا أن تتساقط عبراتها من عينيها النجلاوين على خديها اللذين يمتلآن بالحيوية، قالت:

"ولعل أحدنا يلقى....".

واختنق صوتها، إذ لم يكن بمقدورها أن تنطق بالكلمة التى يروّع لها كل شخص فى ريعان شبابه ويشعر بالسعادة ومع هذا فأن تتزوج وتكون فقيرًا فى مدن ذلك العصر كان - لمن اعتاد أن يحيا فى بحبوحة من العيش - أمرًا فظيعًا ومروعًا. لقد تردد فى العصور الزراعية البائدة التى انقضت بانقضاء القرن الثامن عشر، مثل سائر معروف عن "الحب فى الكوخ"، والواقع أن فقراء الريف كانوا يقطنون فى ذلك العصر أكواخًا تغطيها الأزهار، لها النوافذ على شكل القلب، تصنع من سيقان النباتات والجص، ومقامة وسط جو منعش ونقى وأراض خضراء يانعة، وبين أسيجة من الشجيرات المتشابكة، وفى الجو أنغام تغريد الطيور، وتحت قبة السماء التى تتغير باستمرار. لكن ذلك كله قد أصابه التبدل (والحقيقة أن هذا التغيير قد بدأ بالفعل خلال القرن التاسع عشر). ونتج عن ذلك أسلوب جديد للحياة بين الفقراء الذين يعيشون فى الأحياء الحقيرة بالمدن الكبرى.

كانت الأحياء الفقيرة من المدينة أثناء القرن التاسع عشر لا تزال تقع تحت قبة السماء، وكانت عبارة عن مساحات من الأراضى

الطينية أو ذات التربة غير المناسبة، التى كانت عرضة لخطر الفيضانات أو دخان الأحياء الأكثر حظًا وثراء، وهى لا تزود بالكميات الكافية من المياه، كما أن المرافق الصحية فيها لم تصل إلا إلى المستوى الذى ترى الطبقات الثرية عنده أنها أصبحت فى مأمن من الأمراض المعدية. ومع هذا فإن نمو المدينة فى القرن الثانى والعشرين طابقًا فوق آخر، أدى إلى اندماج المبانى معًا إلى تنسيق مختلف. فكان الأثرياء من سكان المدينة يقطنون سلسلة عظيمة من الفنادق الفاخرة، وذلك فى أعلى الطوابق والقاعات من بنية المدينة، أما السكان العاملون فى المصانع فكان مأواهم فى أسفل بالطابق الأرضى مترامى الأطراف وما دون مستوى الأرض أيضًا، هذا ما نود قوله عن المكان الذى يعيشون فيه.

ولم يكن سكان هذه الطوابق السفلى يختلفون إلا قليلاً ـ من حيث وسائل حياتهم وأنماط سلوكهم ـ عن أسلافهم فى الماضى، ممن كانوا يعرفون فى عصر الملكة فكتوريا باسم (الشرقيين)، وإن كانوا قد طوروا لأنفسهم لهجة متمايزة خاصة بهم. وكان أبناء هذه الطوابق السفلى يعيشون ويموتون دون أن يصعدوا إلى الأسطح إلا نادرًا حين تضطرهم ظروف عملهم إلى ذلك. ولما كان هذا هو أسلوب الحياة الوحيد الذى عرفه معظمهم منذ ولادتهم، فلم يكونوا يجدون فيه حرمانًا كبيرًا أو مدعاة للتعاسة، ولكن الانغماس فى هذا البؤس كان لابد أن يبدو لشخصين مثل (دنتون) و(إليزابيث) أمرًا مروعًا أشنع من الموت.

قالت (إليزابيث):

"ولكن هل ثمة سبيل آخر أمامنا؟".

واعترف (دنتون) بأنه لا يدرى. فهو إلى جانب رهافة حسه، لم يكن متأكدًا عما يكون عليه شعور (إليزابيث) إزاء الإيحاء لها بفكرة الاقتراض بضمان ما سيئول إليها من ميراث أمها.

قالت (إليزابيث) إن مواردها المالية لا تكفى مجرد نفقات السفر من لندن إلى باريس، وإن الحياة فى باريس ـ كما هو الوضع فى أية مدينة من مدن العالم ـ سوف تكون مرتفعة التكاليف للغاية وصعبة لا تطاق.

وأوشك (دنتون) أن يصرخ بأعلى صوته: "آه لو كنا نعيش فى ذلك الزمن يا حبيبتى، آه لو كنا نعيش فى الماضى". ذلك لأنهما كانا ينظران إلى ما كان موجودًا فى القرن التاسع عشر ـ حتى منطقة "وايت تشابل" ـ نظرة رومانسية غير حقيقية.

وفجأة انفجرت (إليزابيث) باكية ثم صاحت قائلة:

"أليس هناك أى مخرج لنا؟ وهل يجب علينا بالفعل أن ننتظر هذه السنوات الثلاث الطوال؟ تخيل ثلاث سنوات كاملة، ستة وثلاثين شهرًا! إذ إن قدرة الإنسان على الصبر لم تقو مع مرور السنين".

عندئذ كاد (دنتون) فجأة أن يفضى لها بشىء كان قد خطر على باله منذ وقت قصير. وكان هذا هو آخر ما توصل إليه تفكيره، وقد بدا له هذا الخاطر متهورًا للغاية مما جعله يعبر عنه بشىء من التفكه. ولكن أن تصوغ الفكرة فى شكل كلمات كان ولا يزال هو

السبيل الوحيد لجعلها أكثر واقعية وقدرة على الحدوث مما لو بقيت فى الذهن. وهذا ما حدث له.

قال:

"تخيلى! لو ذهبنا إلى الريف؟".

وتطلعت إليه (إليزابيث) ببصرها لتتحقق ما إذا كان جادًا فى نيته للقيام بهذه المغامرة!

وتساءلت:

"الريف؟".

"نعم، هناك بعيدًا، فيما وراء التلال".

"وكيف نعيش؟ وأين نقيم؟"

قال: "هذا ليس أمرًا مستحيلاً. فقد كان هناك فى الماضى من اعتادوا الحياة بالريف".

"ولكن فى ذلك الوقت كانت هناك منازل".

"فى الوقت الحاضر هناك أطلال القرى والمدن. ولم تعد هناك بالطبع أى المنازل التى كانت مشيدة على الأراضى الزراعية الطينية ,ولكن المساكن التى كانت فى كنف المراعى ما زالت قائمة، وقد أبقتها شركة الأغذية إذ لن تستفيد شيئًا من إزالتها. إننى متأكد من هذا. فضلاً عن أنه من الممكن رؤية هذه المساكن من الأجهزة الطائرة كما تعلمين. وباستطاعتنا أن نتخذ من إحدى هذه الدور سكنًا لنا، وأن نقوم بإصلاحها بأنفسنا.. لو تعلمين.. إن الأمر

ليس بهذا السوء الذى يبدو بها. ويمكننا أن ندفع نقودًا لبعض من يخرجون يوميًا لتفقد المحاصيل وقطعان الماشية كى يجلبوا لنا الطعام".

ووقفت (إليزابيث) أمامه وقالت:

"فى الواقع، كم يبدو الأمر غريبًا أن يستطيع شخص ما أن يقوم بهذا العمل..".

"ولم لا؟".

"لا أحد يجرؤ على ذلك".

"ليس هذا بسبب مقنع".

"سوف تكون.. أوه! هذه تجربة خيالية وغريبة. لو كان من الممكن تحقيقها".

"ولم لا تكون ممكنة؟"

"ثمة أشياء عديدة. فكر فى كل ما لدينا وفيما سوف نفقده".

"وماذا لو فقدناه؟ ففى نهاية الأمر هذه الحياة التى نعيشها زائفة وليست واقعية للغاية".

وأخذ (دنتون) يبسط فكرته هذه، وما إن أصبحت كلماته مفعمة بالحماس والنشاط حتى زالت سمة الغرابة عن اقتراحه الأول.

وأطرقت (إليزابيث) فى تفكير وتأمل عميقين. وقالت:

"سمعت بوجود اللصوص والمجرمين الهاربين فى الريف".

وأومأ (دنتون) برأسه، وتردد فى الإجابة معتقدًا أن ما سيقوله بالغ السذاجة، وتضرج وجهه خجلاً. لكنه قال:

"أستطيع أن أوصى شخصًا أعرفه بصنع سيف لى، ندافع به عن أنفسنا!".

وتطلعت إليه وقد اتقدت عيناها حماسًا ونشوة. لقد سمعت من قبل عن السيوف، وشاهدت واحدًا منها فى أحد المتاحف. وفكرت فى تلك العصور القديمة التى كان الإنسان يرتدى السيف فى غمده كتقليد عادى فى حياته اليومية. وبدا اقتراحه فى نظرها كأنه حلم مستحيل، ولعل هذا هو ما جعلها متلهفة لمعرفة مزيد من التفاصيل. واستمر (دنتون) يشرح - وهو يختلق أكثر مما يقوله من حقائق - ويبين لها كيف أنه سيكون فى استطاعتهما العيش فى ربوع الريف كما كان يفعل سكان العالم القديم. وأخذ حماسها يتعاظم مع كل كلمة يقولها، لأنها كانت من ذلك النوع من الفتيات اللائى تستهويهن المغامرات والبطولات الخيالية.

ولقد كان هذا الاقتراح فى نظرها عندما أفضى به (دنتون) لها حلمًا مستحيلاً، ولكن الحديث عنه فى اليوم التالى بتفاصيل أكثر أصبح إلى حد ما ممكنًا.

قال (دنتون):

"علينا فى أول الأمر أن نأخذ معنا طعامنا. وبإمكاننا أن نحمل طعامًا يكفينا عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا". فقد كان هذا العصر هو عصر الغذاء الصناعى المحفوظ، ولم يكن هذا الاقتراح اقتراحًا

أخرق بعيد المنال بالصورة التى قد تتراءى لأبناء القرن التاسع عشر.

"ولكن.. أين ننام حتى نعد لنا دارًا؟"

"إننا فى فصل الصيف".

"ماذا تعنى؟".

"كان هناك زمن لم يكن بالعالم أى مسكن، وكان بنو البشر أجمعون ينامون فى الهواء الطلق".

"ولكن نحن! هل نعيش فى العراء، بلا جدران ولا أسقف؟".

فقال:

"عزيزتى، إن لديك فى (لندن) كثيرًا من الأسقف الجميلة التى يبدع الفنانون فى زخرفتها ويرصعونها بالأنوار المتألقة.. ولكنى شهدت سقفًا يفوق أسقف لندن جمالاً".

"أين مكان هذا السقف؟"

"إنه سقف سوف نعيش تحته معًا لا يشاركنا فيه أحد".

"أتعنى..؟"

"عزيزتى.. إنه شىء أهمله العالم وأغفل عنه..السماء وما تزخر به من نجوم".

كان الأمر يزداد فى نظرهما اقترابًا من التحقق وأكثر إغراء للنفس كلما تحدثا عنه. وفى مدى أسبوع أو يكاد، بدا الأمر ممكنًا

تماماً، وما إن مضى أسبوع آخر حتى أصبح هذا فى نظرهما قدراً محتوماً لا مرد له. وتملكهما الحماس لحياة الريف. وقالا إن ضجيج المدينة البغيض يحيط بهما من كل جانب ويطبق فوق صدريهما. وتعجبا من أن هذا الحل البسيط لكل متاعبهما لم يخطر على بالهما من قبل.

وفى صباح أحد أيام منتصف الصيف. كان يقف فوق منصة الطيران موظف صغير شغل وظيفة (دنتون) التى لن يذهب للعمل بها بعد اليوم.

وكان (دنتون) و(إليزابيث) قد تزوجا سراً، وقررا بعزم ثابت هجر هذه المدينة، التى أقاما بها، كما عاش بها أسلافهما من قبل طيلة سنوات حياتهم. كانت (إليزابيث) تلبس رداء من القماش الأبيض ذا طراز قديم وكان هو يحمل حزمة من المؤن مثبتة خلف ظهره بانحراف، ويحمل فى يده وتحت عباءته القرمزية ـ فى شىء من الخزى ـ سلاحاً بدائياً ذا مقبض على شكل صليب، مصنوع من الصلب المقسى عن طريق التسخين.

ويمكنك أن تتخيل مثل هذه الظروف الحياتية: لقد اختفت فى ذلك العصر تلك الضواحى المنتشرة بغير نظام، التى كانت قائمة فى العصر الفكتورى، بطرقها المثيرة للاشمئزاز، ودورها الحقيرة وحدائقها السخيفة الصغيرة، التى تنمو بها مختلف الشجيرات ونباتات "إبرة الراعى"[٢٢]، واختفت أيضاً تلك الدور العبثية التى

---

(٢٢) نبات ذو أشواك له أزهار بنفسجية اللون (المترجم).

كانت مرتعًا للخيلاء والغرور، واستبدلت بأبراج شاهقة فى العصر الجديد، أما الطرق الآلية ومصادر الماء والكهرباء الرئيسية التى تكتلت كلها فى النهاية، فأصبحت كالجدار أو الجرف الصخرى الذى يرتفع إلى أربعمائة قدم، ثم ينحدر بشدة بشكل مباشر. ولقد كانت تنتشر حول المدينة نباتات الجزر واللفت السويدى وحقول الشلجم(٢٣) التابعة لشركة الأغذية، وكانت هذه الخضراوات تستخدم كأساس لصناعة آلاف الأصناف المتباينة من الطعام، أما الأعشاب الضارة وشجيرات "الوشيع" المتشابكة فقد اقتلعت بالكامل ويرجع الفضل إلى شركة الأغذية وما قامت به من حملات إبادة شاملة فى القضاء التام على هذه الأعشاب الضارة التى كان تطهيرها بصفة مستمرة عامًا بعد عام، يتطلب نفقات باهظة متزايدة فى ظل نظام الزراعة المبذر البدائى الفاسد فى الماضى، ووسط الحقول مترامية الأطراف كان يمكن مشاهدة صفوف متراصة من أشجار العليق الشوكى والتفاح ذات السيقان البيضاء، كما كانت فى بعض الحقول مجموعات من شجيرات "مشط الراعى" الشوكية بحرابها البارزة التى تميزها. كما كان بمقدورك أن ترى الآلات الزراعية الهائلة وقد جثمت فى مختلف الحقول وتعلوها مظلات صامدة للماء. وكانت مياه أنهار (واى) و(مول) و(واندل) يتشابك بعضها ببعض بوساطة قنوات مستطيلة الشكل، وكان عند كل مرتفع مناسب من الأرض توجد نافورة لمياه الصرف الصحى التى أزيلت منها روائحها الكريهة. تروى كل الأرض المزروعة من حولها، وتحيل أشعة الشمس إلى قوس قزح.

---

(٢٣) نبات له جدار غض لونه أصفر وأبيض وهو أحد أنواع الخضراوات (المترجم).

ومن المدخل المقوس العملاق بجدار المدينة الضخم كان يخرج طريق (إيدهاميت) المؤدى إلى (بورتس ماوث) وقد احتشدت به وقت الصباح المشمس، قوافل هائلة يقلها العاملون بشركة الأغذية فى ثيابهم الزرقاء إلى حيث عملهم ,وكان (دنتون) و(إليزابيث) يبدوان مقارنة بهذه القوافل الجبارة المندفعة كنقطتين صغيرتين تتحركان بصعوبة بالغة. وعلى طول الطرق الخارجية كانت السيارات الصغيرة البطيئة وعتيقة الطراز تطن وتجلجل وهى تقوم برحلات لا يتجاوز مداها عشرين ميلاً أو نحو ذلك خارج المدينة، أما الطرق الداخلية فكانت تكتظ بآليات سريعة أكبر حجمًا وهى تلك المركبات أحادية العجلة التى يمكنها أن تحمل نحو عشرين شخصًا، ثم السيارات الصغيرة متعددة العجلات وذات العجلات الأربعة التى تنوء بالأحمال الثقيلة، ثم عربات المحاصيل الزراعية الضخمة الفارغة التى ستعود من جديد قبل مغيب الشمس، وكلها ذات محركات خفاقة تحملها عجلات لا تصدر عنها أصوات، وتسير وسط لحن دائم وعلى نحو جامح، تعزفه الأبواق وأجراس التنبيه.

وعلى طول أطراف الطريق الخارجى البعيدة كان (دنتون) و(إليزابيث) يسيران فى صمت، وقد عُقد قرانهما مؤخرًا، وبغرابة، كان كل منهما يشعر بالخجل فى مواجهة الآخر.

وما أكثر الأشياء التى كانت تتنامى إلى سمعهما صائحة، بينما كانا يسيران بتثاقل وإجهاد، ذلك أن مشهد الماشى على قدميه فى طريق من طرق إنجلترا عام ٢١٠٠ كان لا يقل غرابة عن رؤية سيارة

عام ١٨٠٠.. ولكنهما مضيا فى رحلتهما إلى الريف بعزم لا يلين، ولم يكترثا بمثل هذه الصيحات.

وفى الأمام ـ بينما كانا يتجهان جنوبًا ـ بدت لهما مرتفعات من الأرض ذات منحدرات مكسوة بالعشب زرقاء اللون، ثم تحول لونها إلى الاخضرار باقترابهما من موقعها الذى كان يعلوه صف من المراوح الهوائية الجبارة، التى كانت تمثل إضافة للمراوح الهوائية القائمة فوق أسطح أسقف المدينة وكانت تبدو هذه المرتفعات ومنحدراتها وكأنها متململة من هذه الظلال الطويلة لدوّارات الريح. وعندما انتصف النهار كانا قد اقتربا من الموقع إلى حد سمح لهما برؤية رقع صغيرة بيضاء باهتة متناثرة هنا وهناك. ولم تكن هذه إلا قطعان الأغنام لقسم اللحوم فى شركة الأغذية. فى غضون ساعة أخرى كانا قد اجتازا منطقة المحاصيل الجذرية والتربة الطينية، والسياج الوحيد الذى يحيط بها، وحينئذ كانا قد تجاوزا المنطقة التى يسرى عليها قانون التعدى على أرض الغير، وهنا انتهى الطريق الممهد المكتظ بالسيارات، إلى تقاطع، وأمكن لهما أن يتركاه وراءهما ويمضيا مشيًا على الأقدام وسط المروج متجهين إلى جانب التل.

ولم يحدث أبدًا أن انفرد مثل هذين الشابين من أبناء العصور المتأخرة ـ معًا ـ فى مثل هذا المكان الموحش المهجور.

كانا يتضوران جوعًا ويشعران بتقرح أقدامهما ـ ذلك أن المشى كان رياضة نادرة ـ وما لبثا أن جلسا فوق العشب المقصوص قصًا قصيرًا جدًا والخالى من أى نباتات ضارة.

وتطلعا للمرة الأولى إلى تلك المدينة التى قدما منها، وهى تتألق بشكل واسع فى عظمة وروعة فى الغبش الأزرق لوادى "التايمز".
وأحست (إليزابيث) بشىء من الرهبة وهى ترى الأغنام طليقة ترعى بعيدًا فوق منحدر التل، إذ إنها لم تقترب أبدًا من حيوان ضخم مطلق السراح من قبل. غير أن (دنتون) أعاد الطمأنينة إليها. وحينئذ كان يحوّم فى السماء الزرقاء فوق رأسيهما طائر أبيض الجناحين.

ولم يتحدثا إلا قليلاً حتى تناولا طعامهما، عندئذ انفكت عقدة لسانيهما. وتحدث (دنتون) عن السعادة المؤكدة التى تنتظرهما، وعن حماقة أن يظلا ـ حتى ذلك الوقت ـ فى ذلك السجن الفاخر الذى شيدته تلك العصور المتأخرة، وتحسر على الأزمنة الرومانسية القديمة التى مضت وانقضت من العالم. ثم امتلأت جوانحه بالتفاخر والتباهى، فرفع السيف الذى كان ملقى على الأرض بجانبه فتناولته (إليزابيث) منه وتلمست حده بأصابع مرتجفة، وقالت:

"وهل بإمكانك أنت.. أن ترفع هذا وتضرب به إنسانًا؟".

"ولم لا؟ إذا دعت الحاجة إلى ذلك".

فقالت:

"ولكن ذلك أمر مروع. فهذا السيف ذو حد جارح.. ثم ـ وهنا انخفض صوتها ـ سوف يكون هناك نزيف دم!".

"لا بد أنك قرأت الكثير عن ذلك فى الروايات العاطفية القديمة".

"أجل، هذا ما قرأته عن ذلك الزمن العتيق. ولكن الأمر مختلف، وإلى حد علمى أن ذلك الذى كان يراق لم يكن دمًا حقيقيًا، بل نوعٌ من المداد الأحمر.. أو يمكنك أن تقدم على القتل؟"

ونظرت إليه نظرة شك ثم أعادت إليه السيف. وبعد أن استراحا لبعض الوقت تناولا بعض الطعام، نهضا واتخذا طريقهما صوب التلال. ومرا بالقرب من قطيع ضخم من الأغنام التى حدقت فيهما ثم أخذت تصدر أصوات ثغاء[٢٤]، إذ لم يكن هذا بالمشهد المألوف، ولم تكن (إليزابيث) قد وقع بصرها من قبل على مثل هذه الأغنام، وارتعدت فرائصها عندما تخيلت أن مثل هذه الكائنات الحية الوادعة تدعو الضرورة لذبحها ليُتخذ منها طعام. وعندئذ تنامى إلى سمعها عواء كلب الراعى عن بعد، ثم ظهر أحد الرعاة وسط أعمدة المراوح الهوائية الدوّارة، وهبط جانب التل متجهًا إليهما.

وعندما اقترب منهما صاح بأعلى صوته سائلاً عن وجهتهما.

وتردد (دنتون) لعدة لحظات ثم أبلغه باختصار أنهما يبحثان عن بيت متهدم بين منحدرات التلال ليأويا إليه.

وحرص (دنتون) على أن يتحدث بطريقة اعتيادية، وكأن من عادة الناس أن يعيشوا فى بيوت متقوضة، فحدجه الراعى بنظرات تنم عن الشك. قائلاً:

"أتكون قد ارتكبت جريمة".

(٢٤) صياح الخروف أو الماعز (المترجم).

قال (دنتون):

"كلا على الإطلاق كل ما فى الأمر أننا لم نعد نريد الإقامة فى المدينة. لماذا يجب أن نعيش فى المدن".

فازدادت ريبة الراعى أكثر من أى وقت مضى وقال:

"ولكنكما لن تستطيعا الحياة هنا فى الريف".

"لقد قررنا أن نقوم بهذه المحاولة".

وأخذ الراعى ينقل بصره بينهما. الواحد تلو الآخر ثم قال:

"سوف تعودان إلى المدينة فى الغد. فالحياة هنا فقط تحت أشعة الشمس تبدو بهيجة ورائعة. هل أنتما متأكدان أنكما لم تقترفا أى جريمة؟ الحق أن الرعاة لا يلقون قبولاً كبيرًا لدى رجال الشرطة؟"

ونظر (دنتون) إليه فى ثبات. وقال:

"إننا لم نخالف القانون، ولكننا فقراء للغاية وذلك ما دفعنا إلى أن نسعى للعيش خارج المدينة، وإننا لنشعر بكراهية شديدة من ارتداء تلك الأردية المصنوعة من "إلكنفا[٢٥] الأزرق".

"كما لا نطيق أداء الأعمال الرتيبة الوضيعة وهدفنا هو أن نعيش هنا حياة بسيطة مثل التى كان يحياها الناس قديمًا".

وكانت تبدو على وجه الراعى الملتحى أنه مهتم بسعادة الآخرين. وحدق فى (إليزابيث) ولاحظ جمالها الرقيق فقال:

---

(٢٥) قماش غليظ من القطن أو الكتان (المترجم).

"لقد كان هؤلاء بسطاء السريرة".

فقال (دنتون):

"وإننا لمثلهم".

فافتر ثغر الراعى عن ابتسامة وقال:

"إذا ما سرتما هنالك على طول قمة التل الممتدة أسفل المراوح الهوائية، فستجدان فى الجانب الأيمن بعض الأطلال. كان هذا ـ فى الماضى ـ موقع مدينة تسمى (ابسون). وليس هناك أى مساكن، فقد استخدم القرميد[٢٦] المنتزع منها فى بناء حظيرة مسيجة للأغنام. وإذا واصلتما السير فسوف تجدان ـ عند حافة أرض نباتات الدرنات[٢٧] ـ كومة أخرى من الأطلال، وهذه كانت تحتها مدينة (ليثرهيد)، وهنا يلتف التل على طول حدود الوادى. وهناك تجدان غابات من أشجار (الزان). وعليكما تتبع قمة التل إلى أن تبلغا أماكن قفر. إنه على الرغم من حملات اجتثاث الأعشاب الضارة، فقد بقى هناك الكثير من النباتات الطفيلية التى لا فائدة منها كالسرخس والسنبل البرى. ويمتد إلى هذه الأنحاء أسفل المراوح الهوائية طريق ريفى ضيق وطويل مرصوف بالحجارة، وهو طريق عام أنشأه الرومان منذ ألفى سنة تقريبًا. اتجها بعد ذلك إلى يمين هذا الطريق واهبطا إلى الوادى ثم استمرا فى السير على طول ضفة النهر. وعندئذ سوف تصلان إلى طريق تصطف على

---

(٢٦) كتلة صغيرة مستطيلة من الطين المحروق تستخدم لمادة بناء (المترجم).

(٢٧) جذور يمكن أكلها (المترجم).

جانبيه بعض البيوت التى ما زالت أسقفها سليمة. وهناك تستطيعان العثور على مأوى".

فأعربا له عن شكرهما.

واستطرد الراعى قائلاً: "إن ذلك المكان هادئ مقفر ليس به أى ضوء بعد سدول الليل. وعلى حد علمى، يختبئ فيه عدد من اللصوص، إن هذه المنطقة منعزلة وساكنة تمامًا، لا يتحرك فيها أى شىء. ولن تجدا فيها حواكى رواة القصص أو قاعات عرض أفلام الفن السينمائى أو أجهزة الأخبار. ليس فيها أى شىء من ذلك. وإن أحسستما بالجوع فلن تجدا طعامًا وإن أصبتما بمرض فليس هناك طبيب".

وتوقف الراعى عن الكلام فقال (دنتون) وهو يتحرك ليواصل رحلته:

"على أية حال سوف نجرب الإقامة هناك"، وبغتة أتى إلى ذهنه خاطر، وهو أن يتفقا مع الراعى - بعد أن يعرفا المكان الذى يوجد فيه - على أن يبتاع لهما احتياجاتهما من المدينة.

وعند حلول المساء بلغا القرية المهجورة التى بدت مساكنها بالغة الضآلة وذات طراز غريب غير مألوف. بدت القرية ترفل فى ثوب ذهبى بتأثير الشمس الغاربة. ولكنها كانت مهجورة لا حياة فيها. وأخذا يتنقلان من منزل مهجور إلى آخر، وهما يتعجبان من بساطتها وطرازها العتيق، كانا يهدفان إلى اختيار مكان يصلح لإقامتهما وعثرا فى نهاية الأمر وفى ركن غرفة تقوض جدارها

الخارجى، على زهرة برية دقيقة زرقاء اللون، وقد غفل عنها عمال إزالة الأعشاب الضارة من الحقول التابعون لشركة الأغذية.

اختارا الإقامة فى هذه الدار. ولكنهما لم يلبثا بها مدة طويلة فى هذه الليلة، إذ كانا قد اتخذا قرارًا بتناول طعامهما بين أحضان الطبيعة، وبخاصة أن هذه الدور أصبحت كئيبة ومعتمة بعد أن انحسرت عنها أشعة الشمس التى غربت وبعد أن نالا قسطًا من الراحة توجها إلى قمة التل من جديد وسط سكون الليل ليشهدا بأعينهما السماء المرصعة بالنجوم، وهو المشهد الذى طالما أوحى للشعراء الأقدمين بقصائدهم. وراح (دنتون) يتحدث عن هذا المشهد الرائع، وعندما هبطا التل فى النهاية كانت السماء شاحبة بسبب بزوغ الفجر. ولم يناما إلا قليلاً فقد استيقظا فى الصباح على غناء طائر "الدّج" المغرد الذى كان يجثم فوق غصن شجرة.

وهكذا بدأت حياة الاغتراب التى اختارها هذان الشابان اللذان ينتميان إلى القرن الثانى والعشرين. وقد انشغلا للغاية ذلك الصباح بالكشف عن الموارد المتاحة فى ذلك المسكن الجديد الذى قررا على نحو حاسم الإقامة فيه بتقشف. وتفقدا المكان بغاية البطء، كما لم يبتعدا كثيرًا إذ إنهما كانا يسيران دائمًا متشابكى الأيدى، وفى آخر الأمر عثرا على بعض قطع الأثاث. وفيما وراء القرية كان يوجد مخزن علف الأغنام الشتوى الذى تمتلكه شركة الأغذية. واستطاع (دنتون) أن يحمل بنفسه كميات كبيرة إلى بيته الجديد كى يتخذا منها فراشًا. كما عثرا فى بعض الدور المجاورة على عدد من

المقاعد والمناضد الصغيرة القديمة التى تآكلت بفعل الفطر، غير أنها بدت لهما خشنة بدائية غير بارعة الصنع، ثم إنها كانت من الخشب! وأخذا يرددان كثيرًا مما تحدثا فيه بالأمس. وعندما أقبل المساء وجدا زهرة أخرى. وفى وقت متأخر من المساء شاهدا بعض رعاة شركة الأغذية منطلقين بحذاء وادى النهر تحملهم عربة ضخمة متعددة العجلات، ولكن (إليزابيث) و(دنتون) فضلا الاختفاء عن أنظارهم لأن وجودهم - على حد قول (إليزابيث) - يفسد عليهما متعة البقاء فى هذا المكان الذى ينتمى إلى العالم القديم.

انقضى أسبوع وهما يعيشان على هذه الحال. وطوال هذا الأسبوع، كانت السماء صافية فى الصباح والليالى مزدانة بالنجوم المتألقة يغزوها شيئًا فشيئًا هلال القمر.

إلا أن تلك الأبهة التى أحاطت بهما عندما قدما إلى هذا المكان، أخذت تذوى رويدًا، يومًا بعد آخر عن غير إدراك منهما. وتحول (دنتون) - بعد أن كان فصيحًا وبليغًا وطلق اللسان - إلى شخص متقلب، وأصبح حديثه يفتقر إلى الموضوعات المثيرة للمشاعر، وظهرت علامات الإرهاق الذى أصابهما من جراء رحلتهما الطويلة سيرًا على الأقدام من (لندن) فى تصلب أطرافهما، بالإضافة إلى إصابتهما بنوبات بسيطة من البرد غير قابلة للتعليل. وشعر (دنتون) بإحساس بالتعطل عن العمل ,وذات يوم وجد فأسًا صدئة فى مكان ما بين أكوام النفايات المتخلفة عن الزمن البائد، فأخذ يشن بها هجومًا متشنجًا ومباغتًا على أعشاب الحديقة الكثيفة، على الرغم من أنه لم يكن لديه نبتة يزرعها أو بذور ينثرها. وعاد إلى

(إليزابيث) بوجه يتصبب عرقًا بعد نصف ساعة فقط من استغراقه فى هذا العمل.

قال وهو غير متفهم لأثر ممارسة العمل والتدريب:

"لا شك أنهم كانوا عمالقة فى ذلك الزمن الماضى".

وفى هذا اليوم قادتهما خطواتهما عبر منطقة التلال، إلى بقعة ظهرت منها المدينة بعيدًا فى قلب الوادى وماضة متلألئة. قال (دنتون):

"ترى كيف تسير الأمور فى المدينة هناك؟"

عندئذ حدث تغير فى الطقس فصاحت (إليزابيث):

"تعال، انظر تلك السحب. ولاحظ أنها كانت تتدفق قرمزية داكنة اللون فى الشمال والشرق، ثم أصبحت رقعًا متناثرة فى اتجاهها نحو أعلى نقطة فى القبة السماوية. وسرعان ما حجبت هذه السحب قرص الشمس الغاربة بينما كانت تتسارع إلى قمة التل. وفجأة اشتدت الريح، فترنحت أشجار الزان وأصدرت صوتًا كالهمس. فارتعدت (إليزابيث). ثم اتقد الفضاء بالبرق على البعد كسيف استل فجأة، وزحف هزيم الرعد البعيد فى كل جوانب السماء، وبينما هما يقفان فى دهشة انهمرت فوق رأسيهما الهطول الأول من مطر العاصفة. وما هى إلا لحظات حتى انحسر آخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة وراء ستار من وابل البرد المتساقط، وأبرقت السماء من جديد وسُمع هزيم الرعد كأشد ما يكون. وعبست الدنيا من حولهما لتصير مظلمة وغريبة. فأخذ ريبيا

المدينة، وهما متشابكا الأيدى، يهبطان التل والدهشة تملأ جوانحهما، متوجهين إلى دارهما وقبل أن يصلا إليها كانت (إليزابيث) تبكى فى هلع، والبرد المتساقط قد أحال المكان الذى تكتنفه الظلمة من حولهما إلى بساط أبيض هش نابض بالحياة بفضل حبيبات البرد الدقيقة للغاية المتساقطة.

وهكذا بدأت ليلة غريبة ومخيفة لهما، فلأول مرة فى حياتهما المتمدينة يطبق عليهما ظلام حالك، كانا مبتلين مرتجفين، والبرد المتساقط يملأ بهسيسه(٢٨) المكان، ومن خلال الأسقف المتقوضة لذلك المسكن الخرب منذ زمن طويل كان الماء يتساقط فى تدفق مسموع ثم يشكل فوق شقوق الأرض بركًا ونهيرات.. كانت الدار تئن وتتوجع تحت وقع ضربات الريح العاصفة، وبين فترة وأخرى ينفصل جزء من الجص وينزلق فوق الجدار ويهوى إلى الأرض متحطمًا، وبين آن وآخر يتقلقل قالب من القرميد عن موضعه من السقف ويسقط بصوت مجلجل مهشمًا فوق "دفيئة"(٢٩) خالية بالأسفل. وارتجفت (إليزابيث) قليلاً ثم هدأت، فأحاطها (دنتون) بعباءته الرقيقة الزاهية. وهكذا جثما وسط الظلمة وصوت الرعد يعلو ويزداد اقترابًا، ووميض البرق يشع بوهج نارى، ملقيًا فى لحظات خاطفة أضواء ناصعة على الحجرة المليئة ببخار الماء، وقطرات المطر المتساقطة من السقف.

---

(٢٨) صوت صافر حاد (المترجم).

(٢٩) بناء زجاجى مغلق يستخدم لزراعة النباتات التى تحتاج إلى درجات حرارة ورطوبة يمكن التحكم فيها (المترجم).

ولم يحدث لهما أبدًا أن وقفا فى الهواء الطلق إلا عندما تكون الشمس مشرقة. فقد كانا يقضيان جل أوقاتهما فى الطرق المغطاة والقاعات والحجرات الدافئة ذات الهواء المتجدد، داخل مدينة هذا العصر المتأخر. وتصورا فى تلك الليلة أنهما قد انتقلا إلى عالم آخر تسوده الفوضى والاضطراب الناتج عن الضغط الجسدى والذهنى والتوتر، حتى كادا أن يفقدا الأمل فى مشاهدة طرق المدينة من جديد.

وبدا لهما أن هذه العاصفة سوف تستمر إلى ما لا نهاية، فاستسلما للنعاس وسط قصف الرعد وسرعان ما خفت العاصفة ثم توقفت ومع آخر نقرات المطر الخفيفة المتساقطة، تنامى إلى أسماعهما صوت غير مألوف.

صاحت (إليزابيث):

"ما هذا؟".

وتردد هذا الصوت من جديد. وكان صوت نباح كلاب. وكانت هذه الكلاب قد هبطت إلى الطريق المهجور ثم تجاوزته، ومن خلال النافذة تألق ضوء القمر الذى أخذ يتعاظم ملقيًا شعاعًا أبيض فوق الجدار أمامهما، وعاكسًا عليه ظل إطار النافذة وإحدى الأشجار فى صورة ظلية سوداء.

وما إن انبلج الفجر الشاحب على الأشياء من حولهما حتى اقترب نباح الكلاب المتقطع من جديد ثم توقف، وأرهفا السمع وبعد برهة تنامى إلى سمعهما تحركات بخطى سريعة خفيفة الوقع تنتقل حول الدار ونباح خافت مختنق، ثم عاد كل شىء ساكنًا مرة أخرى.

وهمست (إليزابيث): "صه" وأشارت إلى باب الحجرة. وسار (دنتون) خطوات قطع فيها نصف المسافة ناحية الباب، ثم توقف مرهفًا سمعه، ثم عاد وهو يتظاهر باللامبالاة فوق قسمات وجهه وقال:

"لا بد أن هذه كانت كلاب الرعى التابعة لشركة الأغذية. ولن تمسنا بأى أذى".

واتخذ مقعده إلى جانبها من جديد وهو يقول:

"يا لها من ليلة تلك التى قضيناها بالأمس". وكان يحاول أن يخفى عنها أنه كان يرهف سمعه بشدة.

ومضت فترة صمت طويلة قبل أن تقول (إليزابيث):

"ولكنى أكره الكلاب".

فقال (دنتون):

"الكلاب لا تؤذى أحدًا، وفى الأيام الماضية - فى القرن التاسع عشر - كان كل شخص يقتنى كلبًا".

"ذات مرة سمعت قصة خيالية تحكى أن كلبًا قتل رجلاً".

رد عليها (دنتون) فى لهجة دالة على الثقة:

"لم يكن من هذا النوع من الكلاب. إن بعض هذه الحكايات الخيالية تنطوى على مبالغات".

وفجأة سمعا نباحًا مكتومًا ثم وقع أقدام سريعة وخفيفة على الدرج، وصوت لهاث. انتصب (دنتون) واقفًا واستل سيفه من بين

القش الرطب الذى كانا يتخذانه فراشًا. ثم ظهر عند عتبة الباب كلب هزيل من كلاب الرعاة وتوقف هناك. ومن خلفه وقف كلب آخر يحملق فيهما. ومرت لحظة تواجه فيها الإنسان والحيوان متحيرين.

لما كان (دنتون) جاهلاً بعادات الكلاب فقد خطا خطوة مفاجئة إلى الأمام. وصاح وهو يلوح فى حركة خرقاء بسيفه:

"اذهبا من هنا".

وقفز الكلب إلى الأمام وهو يزمجر. فتوقف (دنتون) فجأة قائلاً:

"ابتعد أيها الكلب!".

وتصاعدت الزمجرة لتصبح نباحًا.

قال (دنتون):

"ابتعد أيها الكلب"! زمجر الكلب الثانى ونبح. وانضم إليهما ثالث من أسفل الدرج. وسمع صوت نباح كلاب أخرى فى الخارج وبدا لـ (دنتون) أنها كثيرة العدد.

قال (دنتون) دون أن يحول نظره عن الكلاب:

"يا له من أمر مزعج، لا ريب أن الرعاة لن يخرجوا من المدينة قبل بضع ساعات أخرى، وهذه الكلاب بالطبع لن تطيع أوامرنا".

وصرخت (إليزابيث):

"لا يمكننى سماعك".

ونهضت وأسرعت إليه.

وحاول (دنتون) مرة أخرى ولكن النباح كان يحجب صوته. وكان لصوت الكلاب الصاخب أثر غريب على أعصابه، فقد بدأ يحس ببعض المشاعر الغامضة التى لم تنتبه منذ أمد بعيد، وتغيرت ملامح وجهه من أثر صرخاته العالية. وعاود المحاولة، ولكن نباح الكلاب استمر وكأنه يهزأ به، وقفز واحد من بينها خطوة إلى الأمام، ووقف متيبسًا ومنتصبًا ومكشرًا عن أنيابه. وعلى نحو مفاجىء استدار (دنتون) ليطارد هذه الكلاب وهو يتلفظ ببعض العبارات بلهجة سكان الطوابق السفلى من المدينة، وهى كلمات لم تكن (إليزابيث) تعرف معناها، عندئذ توقف النباح بغتة وتحول إلى زمجرة متقطعة. ولمحت (إليزابيث) رأس الكلب الأمامى المزمجر وأسنانه البيضاء وأذنيه المسحوبتين إلى الخلف، ثم التمع نصل السيف. ثم قفز هذا الكلب فى الهواء ولكن (دنتون) دفعه إلى الخلف بقوة.

ولم يمض إلا وقت قصير حتى كان (دنتون) يطلق صيحات عالية ويدفع الكلاب أمامه ووميض السيف يلتمع فوق رأسه، وهو يلوح به فى حركات عشوائية فى كل الاتجاهات. ثم اختفى أسفل الدرج. وهبطت (إليزابيث) خلفه ست درجات حتى تلحق به. وعند منبسط الدرج لاحظت وجود قطرات من الدم. فتوقفت إذ سمعت جلبة الكلاب وصيحات (دنتون) مبتعدة خارج المنزل، فأسرعت إلى النافذة.

كانت هناك تسعة كلاب تشبه الذئاب منتشرة فى اتجاهات مختلفة. وكان أحدها يتلوى ألمًا أمام مدخل الدار، أما (دنتون) فكان

يركض عبر أرض الحديقة وهو يصرخ. وقد شعر بمتعة الصراع الذى ظل هامدًا فى داخل الإنسان حتى وإن وصل إلى أعلى مراتب الحضارة. عندئذ، أدركت (إليزابيث) أمرًا لم يلاحظه (دنتون) فى هذا الوقت، وهو أن الكلاب تفرقت فى عدة طرق ثم سرعان ما عادت وهجمت عليه وهو فى موقع مكشوف.

حينئذ أدركت حقيقة الموقف وأوشكت أن تناديه لولا أنها أحست لحظيًا بالدوار والضعف الشديد، ثم شعرت بقوة دافعة غريبة فجمعت أطراف تنورتها البيضاء وركضت إلى أسفل الدرج. وفى رواق الدار عثرت على الفأس الصدئة التى كانت تبحث عنها. فأمسكت بها وخرجت مسرعة.

وبلغت المكان الذى يقف فيه (دنتون) بعد فترة ليس بقصيرة. فقد كان أحد الكلاب يتدحرج أمامه وهو يكاد أن يكون مشطورًا نصفين، ولكن كلبًا آخر أمكنه أن ينشب أنيابه فى فخذه، بينما أمسك ثالث بقوة بياقته من الخلف، وأطبق رابع بأسنانه على نصل السيف وهو يتذوق طعم دمه، بينما تفادى (دنتون) وثبة كلب خامس بذراعه اليسرى.

ولعل حالها كانت أشبه بحال ابنة القرن الأول منها بحال ابنة القرن الثانى والعشرين. إذ اختفت من نفسها رقة الثمانية عشر ربيعًا التى عاشتها بالمدينة أمام هذه الحاجة البدائية، فهوت بالفأس فى صرامة وقوة، حتى شقت رأس أحد الكلاب وارتد آخر إلى الخلف متأهبًا للوثب ولكنه أطلق نباحًا قصيرًا ثم توقف مذعورًا عندما شاهد هذا الخصم غير المتوقع يشارك

فى المعركة. وأضاعت (إليزابيث) لحظتين ثمينتين لتربط تنورتها.

وتمزقت ياقة عباءة (دنتون) وسقطت إثر تمايله إلى الخلف، وذاق هذا الكلب أيضًا حد الفأس، ولم يعد يضايق (دنتون) بعد أن أغمد سيفه فى فخذ هذا الحيوان.

ثم صاحت (إليزابيث):

"احتم بالجدار!" وفى غضون ثلاث ثوان كان القتال قد انتهى، ووقف عاشقانا جنبًا إلى جنب، بينما لاذ بالفرار خمسة كلاب مطأطئى الآذان والذيول فى خزى، بعد هذه المعركة الخاسرة ووقفا لحظة متقطعى الأنفاس شاعرين بنشوة النصر، عندئذ ألقت (إليزابيث) بالفأس التى كانت تمسك بها، وأخفت وجهها بين كفيها ثم سقطت على الأرض فى نوبة مفاجئة من البكاء. ونظر (دنتون) فيما حوله ثم غرس الطرف الحاد للسيف فى الأرض حتى يكون فى متناول يده، وانحنى على (إليزابيث) يخفف من اضطرابها.

وهدأت - فى النهاية - انفعالاتهما بالغة الحدة وأمكنهما أن يتحادثا من جديد. واستندت هى إلى الجدار بينما اعتلاه هو حتى يراقب عن كثب أية كلاب قد ترجع لمعاودة الهجوم. وعلى أية حال فقد ظل هناك كلبان ينبحان أعلى سفح التل نباحًا مثيرًا للإزعاج.

وكانت آثار العبرات لا تزال تلوح فى وجنتيها، وإن تلاشى من نفسها شعور الحزن بعد أن قضى (دنتون) نصف ساعة يردد على

مسامعها ثناءه على شجاعتها التى كانت سببًا فى إنقاذ حياته، بيد أن إحساسًا بخوف جديد بدأ يتسلل إلى عقلها من أمر آخر.

قالت: "إن هذه كلاب شركة الأغذية، ومن ثم سوف يسببون لنا المتاعب".

"إننى أخشى هذا الأمر. وليس ببعيد أن يرفعوا علينا دعوى بتهمة التعدى".

وسادت فترة صمت ثم قال:

"فى الأزمنة القديمة كانت مثل هذه الحوادث تقع يومًا بعد يوم".

فقالت: "تبًا لليلة الماضية!.. لن يكون بمقدورى أن أقضى ليلة أخرى كهذه".

وأخذ (دنتون) يتأمل وجهها، وقد بدا شاحبًا هزيلاً ومرهقًا بسبب شدة حاجتها للنوم. ثم عزم فجأة على أمر ما. إذ قال:

"يجب أن نعود إلى المدينة".

ونظرت (إليزابيث) إلى جثث الكلاب فاقشعر بدنها. وقالت:

"لا يمكننا الاستمرار فى البقاء هنا".

مد (دنتون) بصره من خلف ظهره ليطمئن إلى أن الكلاب لا تزال بعيدة عنهما، وردد قوله:

"يجب أن نعود إلى المدينة".

ثم استطرد قائلاً:

"لقد تمتعنا بالسعادة لبعض الوقت.. غير أن عالمنا أصبح غاية فى التحضر. وزمننا هو عصر المدن. ومزيد من هذه المتاعب التى صادفناها هنا سوف تقتلنا".

"ولكن ما عسانا أن نفعل؟ وكيف يمكننا الحياة فى المدينة؟"

وارتسمت أمارات الحيرة على وجه (دنتون)، وضرب بعقب قدمه الجدار الذى كان جالسًا فوقه وقال:

"ثمة شىء لم أجرؤ على ذكره من قبل" ثم سعل واستطرد: "ولكن..".

"وما هو هذا الشىء؟".

"بوسعك أن تحصلى على المال بضمان الميراث الذى سيئول إليك عندما تبلغين السن القانونية".

فتساءلت فى لهفة:

"وهل بوسعى هذا حقًا؟".

"بالتأكيد. يا لك من طفلة ساذجة!".

وهنا انتصبت (إليزابيث) واقفة وقد أشرق وجهها. وقالت:

"ولماذا لم تخبرنى بهذا الأمر من قبل؟ وما كنا قد قضينا كل هذا الوقت هنا فى الريف".

ولكن (دنتون) رمقها بنظرات خاطفة، وافتر ثغره عن ابتسامة لم تلبث أن تلاشت سريعًا وقال: "رأيت أن تأتى الفكرة من طرفك أنت.

إذ لم أشأ أن أطلب منك أى مال. ثم إننى قد ظننت ـ فى البداية ـ أن الحياة هنا ستكون ملائمة لنا".

بعد هذا سادت فترة صمت.

قال (دنتون): "كانت الحياة هنا جميلة حقًا"ـ وهنا عاود النظر من جديد خلف ظهره ـ واستطرد: "حتى وقعت كل هذه الأحداث".

فقالت: "أجل...سعدنا فى تلك الأيام الأولى.. الأيام الثلاثة الأولى".

والتقت أعينهما لبعض الوقت يحاول كل منهما أن يعرف شعور الآخر حول هذا الموضوع ثم انزلق (دنتون) بكل هدوء من فوق الجدار وأمسك بيدها قائلاً:

"لكل جيل أسلوب من الحياة خاص به. لقد اتضحت لى الأمور الآن. حياة المدينة هى الحياة التى اعتدنا عليها منذ أن ولدنا. أما إذا كان علينا أن نختار لحياتنا أسلوبًا آخر.. حضورنا إلى الريف كان حلمًا. وها نحن نستيقظ من هذا الحلم".

قالت: "كان حلمنا بهيجًا سارًا فى البداية".

وسادت بينهما فترة طويلة من الصمت. ثم قال (دنتون): "إذا كنا نريد أن نبلغ المدينة قبل قدوم الرعاة إلى هذا المكان، فعلينا أن نبدأ رحلتنا على الفور، ويجب أن نحضر طعامنا من البيت ونتناوله ونحن سائرون فى الطريق".

وحدق (دنتون) فيما حوله من جديد، ثم غادر الاثنان المكان مفسحين لجثث الكلاب متسعًا كافيًا، وسارا عبر الحديقة حتى بلغا البيت وتناولا جراب الطعام وهبطا سلالم الدرج المخضبة بالدماء من جديد، ولكن (إليزابيث) توقفت فى الفناء وقالت: "امهلنى دقيقة. ثمة شىء أريده من هنا" ثم دخلت الحجرة التى نمت بها الزهرة الزرقاء الوحيدة وانحنت تلمسها بيدها.

قالت: "أريد هذه الزهرة".

ولكنها أردفت قائلة: "لكننى لا أستطيع قطفها".

ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تطبع على أوراق تويجاتها قبلة رقيقة.

وساد بينهما صمت طويل فرض نفسه وهما يقطعان حديقة الدار الخالية حتى بلغا الطريق العام القديم، وأخذا وجهتهما بتصميم لا يلين صوب المدينة البعيدة، تلك المدينة المعقدة التى تدار آليًا فى ذلك العصر المتأخر، والتى بدت وكأنها قد ابتلعت البشر كلهم!

٣ ـ طرق المدينة

من أعظم المبتكرات ـ ولعلها أكثرها أهمية ـ التى كانت بمثابة نقط تحول فى تاريخ البشرية تلك السلسلة من مخترعات النقل الآلية التى بدأت بالسكك الحديدية وانتهت بعد قرن أو يزيد بالسيارة والطريق العام المرصوف. إن مثل هذه المخترعات الآلية

بالإضافة إلى تكوين الشركات المساهمة محدود المسئولية، واستبدال العمال الزراعيين بعمال مهرة يستخدمون آلات زراعية مبتكرة، ستؤدى حتمًا إلى تجمع الجنس البشرى فى مدن بالغة الضخامة منقطعة النظير، مما سوف يحدث تغيرًا جذريًا فى الحياة الإنسانية، أصبح مما يثير الدهشة أن عقول المفكرين لم تتمكن من توقع هذه النتائج بوضوح كاف. ولا يبدو أنه قد اقترحت مجرد دعوة لاتخاذ عدة خطوات لتلافى الويلات التى قد يؤدى إليها هذا التغير الجذرى، بيد أن مفكرى القرن التاسع عشر لم يفكروا على الإطلاق فى أن الممنوعات والعقوبات الأخلاقية ومفاهيم الملكية والمسئولية والرخاء والجمال، وهى التى أضفت على دول العالم القديم - التى كانت معظمها دولاً زراعية - الازدهار والبهجة، سوف تفشل وسط هذا الطوفان من الفرص الجديدة والحوافز المستحدثة. لم يخطر أبدًا على عقليات القرن التاسع عشر أن المواطن الذى كان فى حياته العادية ذا طبيعة متعاطفة قد يتحول - عندما يصبح مالكًا لأسهم - إلى وحش جشع وطماع، وأن المعاملات التجارية قديمًا فى الريف والتى كانت تتسم بالعقلانية وباحترام كلمة الشرف، قد تتحول - بعد أن اتسعت - إلى أدوات تدمير وهلاك، وأن مشاعر الإحسان التى سادت فى الماضى صارت إفقارًا وتجويعًا فى العصر الحديث. وأن وظائف الماضى أصبحت فى العصر الحديث مجهدة ومرهقة، بل لم يستطع أحد إدراك الحقيقة الواضحة، بأن تعديل واجبات الإنسان وحقوقه والتوسع فيهما قد أصبحا ضرورة عاجلة واضطرارية. كانت كلها أشياء لا تسعد المواطن ولا تجعله فى بحبوحة من العيش، إذ كانت تستند

على نظام قديم وبائد من التعليم والعادات المتأصلة فى المجتمع، والمولعة باستعادة الماضى فى كل مناحى أفكارهم. كان من المعروف أن تكدس الناس فى المدن لابد أن تنتج عنه أخطار مروعة لا مثيل لها، تتمثل فى تفشى الأوبئة القاتلة، ومن ثم بُذلت جهود مضنية للنهوض بالصحة العامة، إلا أنه قد غاب عن مفكرى القرن التاسع عشر أن أمراض لعب القمار والربا والترف والاستبداد لن تلبث أن تصبح أمراضًا سائدة، وتؤدى إلى عواقب مروعة. وهكذا نمت هذه المدن المكتظة التعيسة فى القرن الواحد والعشرين بشكل يوحى بأن ذلك التطور غير عضوى وقد تم دون تدخل الإبداع البشرى الخلاق.

كان المجتمع الجديد ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية ,ففى القمة كان يتربع أصحاب الأملاك وافرو الثراء، الذين حصلوا على الأموال بمحض الصدفة وليس بالتخطيط ورسم السياسات، الذين كانوا يمتلكون السلطة والسيطرة ولكن ليس لديهم الإرادة والهدف، وهذا ما يمثل تجسيدًا لصور "هاملت" فى العالم، أما القاع فقد كان مقرًا لأعداد هائلة من العمال الذين يكدحون لدى الشركات الاحتكارية العظمى، وفيما بين أصحاب الأملاك والعمال تقوم الطبقة المتوسطة الضئيلة، وتتألف من الموظفين ذوى الوظائف المتباينة التى لا تعد ولا تحصى، رؤساء العمال والمديرين والأطباء والمحامين والفنانين والدارسين، ثم ذوى الثروة المحدودة، وكان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بشىء من الرخاء غير الآمن وهم عرضة فى كل وقت لتحكم المديرين الكبار.

ولقد سبق أن روينا قصة حب وزواج بطلاها من أبناء الطبقة المتوسطة، وشرحنا تلك العقبات التى اعترضت طريقهما وكيف تمكنا من التغلب عليها، وكيف حاولا العيش وفق أساليب الحياة التى سادت فى الماضى وذلك وسط ربوع الريف المحيط بمدينة (لندن)، وكيف عادا من جديد إلى مدينتهما بخيبة أمل. ولما لم يكن للزوج (دنتون) أية موارد مالية فقد قامت (إليزابيث) باقتراض بعض المال بضمان السندات التى أوقفها والدها (موارس) عليها حتى بلوغها الحادى والعشرين من العمر.

ولا ريب فى أنها كانت تدفع على المبلغ المقترض فائدة مرتفعة بسبب عدم كفاية ذلك الضمان، ثم إن تقدير العشاق للمال ومنطقهم فى حسابه إنما يكون عادة غير متعمق ومتفائلاً. ولكن ثمة أيامًا بالغة السعادة كانت تنتظرهما بمجرد عودتهما. وكانا قد صمما على ألا يطلبا العيش فى مدينة تكثر بها دور اللهو أو يبددا أيامهما بالاندفاع فى رحلات فضائية عبر أنحاء العالم، بل كانا على الرغم من خيبة ظنهما فى المرة السابقة يشعران بالحنين إلى الماضى. فقاما بتأثيث غرفتهما الصغيرة بأثاث على الطراز الفكتورى القديم، كما عثرا على متجر فى الطابق الثانى والأربعين من مبنى بالطريق السابع، وكان هذا المتجر لا يزال يبيع الكتب المطبوعة التى راجت فى الزمن القديم. وكانا يشعران بمتعة عندما يتفاخران بمقدرتهما على قراءة الكتب المطبوعة بدلاً من الإنصات إلى الحاكى. وعندما رزقا بطفلة صغيرة جميلة، لتزيد الرباط بين قلبيهما، لم ترغب (إليزابيث) فى أن تلحقها بدار حضانة نهارية،

كما كانت العادة فى ذلك العصر، بل طالبت بإصرار على أن تقوم بتربيتها بنفسها. وكان إيجار مسكنهما قد ارتفع نتيجة لهذا الإجراء الغريب، ولكنهما لم يأبها بذلك. إذ كان هذا يعنى مجرد اقتراض مبلغ صغير آخر من المال.

وسرعان ما بلغت (إليزابيث) سن الرشد وأجرى (دنتون) مقابلة عمل كريهة مع والدها. وتلت ذلك مقابلة أخرى أشد مقتًا مع مقرض المال لقاء فائدة، رجع (دنتون) بعدها إلى منزلهما شاحب الوجه ورأت (إليزابيث) بمجرد عودته أن تلقى إليه بخبر مثير حول كلمة "اذهب" التى لفظتها لها ابنتهما بنغمة صوت معينة مبتكرة، ولكن (دنتون) كان غافلاً عنها. وعندما بلغت ذروة حكايتها عن ابنتها قاطعها قائلاً:

"كم تظنين قد بقى لدينا من المال بعد أن سددنا كل ديوننا؟".

فحدجته (إليزابيث) بنظرة وتوقفت عما صاحب حديثها من أرجحتها لطفلتها المعجزة الناطقة بكلمة "اذهب" بهذه الطريقة المبتكرة.

"إنك لا تقصد..."

"أجل، وهناك ما هو أسوأ، لقد عشنا حياتنا على نحو جامح ومتهور، فانظرى إلى الفائدة المرتفعة التى وافقنا على دفعها. وهناك شىء آخر.. لقد هبطت بشدة قيمة الأسهم التى تمتلكينها. ووالدك لم يهتم بهذا الأمر. قال إن هذا ليس من شأنه، بعد كل ما فعلناه له، إنه سوف يتزوج مرة أخرى.. ومجمل القول، إنه لم يبق لدينا - بالكاد - سوى ألف جنيه فقط!"

"ألف جنيه فقط؟"

"نعم ألف جنيه لا غير".

عندئذ جلست (إليزابيث). وحدجته بنظرة لهنيهة بوجه شاحب ثم جالت بعينيها فى أرجاء الغرفة بأثاثها القديم الغريب الذى يرجع طرازه إلى العصر الفكتورى الوسيط، لوحات الكنفا(٣٠) الأصلية، وأخيرًا توقف بصرها على تلك الكتلة الإنسانية الرقيقة التى تحتضنها بين ذراعيها.

ونظر (دنتون) إليها وهو مغتم ومكتئب، ثم استدار وذرع الحجرة جيئة وذهابًا فى خطوات سريعة للغاية وما لبث أن صاح عاليًا:

"يجب أن أحصل على عمل... لست إلا وغدًا متعطلاً عن العمل... كان يجب علىّ أن أفكر فى هذا الأمر من قبل، فما كنت إلا أنانيًا أبله... رغبت أن أقضى اليوم بطوله معك".

وتوقف عندما لاحظ شحوب وجهها، وفجأة اقترب منها وقبّل الوجه الصغير الذى كان يستكين إلى صدرها.

وقال وهو يقف إلى جانبها:

"لا بأس يا عزيزتى، لن تشعرى بالوحدة بعد الآن، ابنتنا "دنجز" بدأت تتحدث إليك. كما تعلمين فى استطاعتى أن أحصل على عمل فى القريب العاجل.. ذلك أمر بسيط... قد يكون الأمر فى البداية مثل الصدمة ولكن كل شئ سيكون على الوجه الأكمل. نعم وبكل

---

(٣٠) لوحات مرسومة بالألوان الزيتية على الكنفا (المترجم).

تأكيد. على الوجه الأكمل. ولسوف أخرج من جديد بعد أن أستريح قليلاً، لأرى ما يمكننى عمله... وفى الوقت الحاضر من الصعب أن نفكر بأى شىء..".

قالت (إليزابيث): "من الصعب أن نغادر هذه الحجرات ولكن..."

"لن يكون ثمة داع لذلك... ولتثقى بى".

"ولكن إيجارها مرتفع".

غير أن (دنتون) طرح هذا الموضوع جانبًا، وأخذ يتحدث عن العمل الذى يمكن أن يؤديه. إذ لم تكن قد اتضحت فى ذهنه بعد صورة دقيقة لهذا العمل، ولكنه كان واثقًا للغاية من أن هناك وسيلة ما تضمن بقاء أسرته فى رخاء ورفاهية ضمن الطبقة الوسطى السعيدة، التى كان أسلوبها فى الحياة هو الأسلوب الوحيد الذى يعرفانه.

قال (دنتون): "إن مدينة لندن تضم ثلاثة وثلاثين مليون شخص، ولابد أن واحدًا من هؤلاء يحتاج إلى".

"هذا أمر مؤكد".

"ولكن المشكلة تكمن فى الواقع بـ (بندون)، ذلك الرجل قصير القامة شديد السمرة الذى أراده والدك زوجًا لك. لقد أصبح الآن رجلاً ذا سلطة.. ولا يمكننى العودة إلى وظيفتى السابقة بمنصة الطيران، بعد أن أصبح رئيس كتبة منصة الطيران".

قالت (إليزابيث):

"لم أكن أعرف ذلك...".

"لقد تولى هذا المنصب منذ أسابيع قليلة. ولو كان الأمر على خلاف ذلك لكانت أمورنا سهلة ميسرة، فقد كانوا معجبين بعملى على منصة الطيران. بيد أن أمامى عشرات من الأعمال التى يمكننى الاضطلاع بها.. أجل عشرات الأعمال، لا تقلقى يا عزيزتى، سوف أستريح لوقت قصير، ثم نتناول وجبة الغداء وأبدأ بعد ذلك فى القيام بجولاتى. إننى على معرفة وثيقة بالكثيرين الذين يمكنهم مساعدتى... أجل، الكثيرين".

وبعد أن نال (دنتون) قسطًا من الراحة، قصد بصحبة (إليزابيث) قاعة الطعام العامة وتناولا وجبة الغداء، ثم خرج (دنتون) ليبحث عن عمل. ولكنهما سرعان ما أدركا أن العالم لا يزال يفتقر إلى شىء يزيد الراحة ويحفظ العمل الذى كان ينقصه منذ عصور موغلة فى القدم، وهو العمل ذو السمعة الحسنة الآمن الجدير بالاحترام المريح الذى يسمح بفراغ كاف للحياة الخاصة، ولا يتطلب أية قدرات استثنائية ولا يتطلب بذل أى إجهاد عنيف، أو التعرض لأية مخاطر محتملة، أو تحمل تضحيات من أى نوع فى سبيل الحصول عليه. وقلب (دنتون) وجهات النظر فى عدد من المشروعات البراقة، وقضى أيامًا كثيرة متنقلاً بين أرجاء المدينة مترامية الأطراف بحثًا عن الأصدقاء ذوى النفوذ والسلطة وكان هؤلاء مسرورين لرؤيته ويظهرون كل الثقة والتفاؤل بما يقولون حتى يأتى وقت الحديث عن خطط مقترحة محددة عندئذ يصبحون حذرين وغامضين. فيتركهم بعد وداع فاتر، ويأخذ فى التفكير فيما

كان عليه سلوكهم، فيستبد به الغضب فى طريق عودته ثم يتوقف عند مكتب للهاتف. وأنفق جزءًا من ماله فى نزاع مفعم بالحيوية ولكن لا فائدة منه. وكلما مرت عليه الأيام زاد قلقه وغضبه. وأصبح من الصعب عليه أن يخفى أحاسيسه هذه عن (إليزابيث) بادعاء التعاطف وعدم الاهتمام إلا ببذل مجهود كبير، ولكن (إليزابيث) - بشدة حبها له -أدركت ما يعانيه واستطاعت ذات يوم أن تنتشله من هوّة اليأس هذه، باقتراح سبب لهما بعض الحزن، على الرغم من التمهيد الطويل والعقد الذى استهلت به هذه الفكرة. ولم يكن (دنتون) لينتظر من (إليزابيث) إلا البكاء والقنوط عندما يصل بهما الأمر إلى بيع المقتنيات الثمينة للعصر الفكتورى التى أدخلت على قلبيهما السرور من قبل بشرائها مثل تلك القطع الفنية الفريدة، وأغطية الأثاث والحصائر المصنوعة من الخرز وستائر النسيج المضلع، والأثاث المكسو بطبقة زيتية رقيقة ولوحات محفورة من الصلب ذات الأطر الذهبية، واللوحات المرسومة بالقلم الرصاص، والزهور الشمعية المنسقة فى أصص، والطيور المحنطة إلى غير ذلك من النفائس القديمة. بيد أنها هى التى كانت صاحبة الاقتراح. وبدا كما لو كانت السعادة قد ملأت جوانحها بهذه التضحية بالإضافة إلى تقبلها أيضًا فكرة الانتقال إلى حجرات للإقامة أكثر انخفاضًا بعشرة طوابق أو اثنى عشر طابقًا عن حجراتهما الحالية. وقالت:

"لست أبالى بشىء ما دامت (دنجز) معنا وعلى أية حال إنها تجربة جديدة!".

فقبّلها (دنتون) فرحًا وقال إنها أشد بسالة وشجاعة مما كانت عليه عندما قاتلت كلاب الرعاة ,ودعاها باسم (بواديكيا)[٣١]، ولكنه لم يذكر لها أن عليهما أن يدفعا إيجارًا باهظًا للغاية من أجل ذلك الصوت الرقيق الذى كانت (دنجز) تحيى به الضجيج المستمر.

وكان (دنتون) يرى ألا تكون (إليزابيث) موجودة عندما يتم بيع الأثاث القديم الثمين ,الذى كان يحتل من نفسيهما موقعًا عظيمًا, إلا أن (إليزابيث) هى التى قامت بمساومة التاجر الذى جاء للشراء, بينما كان (دنتون) يطوف بالمدينة فوق أرصفتها المتحركة، وكان يشعر بالأسف والحزن، وداخلته المخاوف مما قد يخبئه له القدر فى المستقبل إلا أنه ما لبث أن دب فيه النشاط من جديد بمجرد أن انتقلا إلى مسكنهما الجديد المؤثث، والمطلى باللونين الوردى والأبيض فى فندق جد متواضع، وانتابته موجة نشاط عارمة ,ولكن بعد أسبوع فقط شعر بخمول، ومن ثم انطوى على نفسه فى حجرته فى استياء صامت. وكانت (إليزابيث) مشرقة فى تلك الأيام وكأنها النجم المتألق.

وفى النهاية لم يجد (دنتون) متنفسًا لتعاسته إلا الدموع. وذات يوم خرج إلى طرق المدينة من جديد ولشدة ما كان ذهوله حين وجد عملاً يقوم به.

وكان مقياسه الوظيفى قد هبط باطراد حتى بلغ فى النهاية أدنى مستويات العمال. وقد كان يطمح فى أول الأمر أن يتولى

---

(٣١) ملكة بريطانيا إبان حكم الامبراطور الرومانى (نيرون). وقد قامت بالثورة ضد الرومان المحتلين لبلدها وانتصرت فى عدة معارك (المترجم).

منصبًا رسميًا كبيرًا فى إحدى الشركات لمنصة الطيران أو المراوح الهوائية أو المياه، أو أن يشغل وظيفة أو أخرى فى إحدى المنظمات العامة للاستعلامات - وهى المنظمات التى حلت محل الصحف - أو المشاركة فى أى عمل مهنى آخر. بيد أن هذه كلها كانت أضغاث أحلام البداية، ثم تحول من هذه الفكرة إلى فكرة المضاربة فى البورصة، مما أدى إلى ضياع ثلاثمائة جنيه ذهبية من مبلغ الألف جنيه الذى تمتلكه (إليزابيث) فى ليلة واحدة فى سوق الأوراق المالية. وكم كان سروره عظيمًا عندما أتاحت له وسامته الحصول على وظيفة بائع تحت الاختبار فى جمعية (سوزانا) للقبعات، التى كانت تتجر فى أغطية الرأس للسيدات وأدوات الزينة الخاصة بالشعر والقبعات، ذلك أنه على الرغم من أن المدينة كانت تغطيها الأسقف بالكامل إلا أن النساء مازلن يرتدين قبعات أنيقة وجميلة فى المسارح وأماكن العبادة العامة.

وكم يكون مسليًا لو استطاع شخص ما أن يواجه أحد أصحاب المتاجر التى كانت قائمة فى شارع (ريجنت) خلال القرن التاسع عشر، بالتطورات التى طرأت على هذه المؤسسة التى يقوم فيها (دنتون) بمهام وظيفته. كان الطريق التاسع عشر لا يزال يسمى فى بعض الأحيان، باسم شارع (ريجنت) بيد أنه أصبح طريقًا يزخر بالأرصفة المتحركة ويبلغ عرضه نحو ثمانمائة قدم. وكان الشريط الأوسط غير متحرك، وعن طريق درج، يؤدى الطريق إلى طرق أخرى تحت الأرض وإلى المنازل التى كانت قائمة على الجانبين. وكانت تقوم على الجانبين سلسلة صاعدة من الأرصفة المتحركة

باستمرار، والتى تزيد سرعة كل منها على تلك القريبة منها بخمسة أميال فى الساعة، ويمكن للشخص أن يخطو من رصيف إلى آخر حتى يبلغ الرصيف الخارجى - الأكثرها سرعة - لكى يقطع المدينة من أولها إلى آخرها. وكانت مؤسسة جمعية (سوزانا) للقبعات قد شيدت واجهة كبيرة على الطريق الخارجى تمتد على جانبيها سلسلة ضخمة من الشاشات الهائلة الزجاجية البيضاء المتداخلة، التى تعرض صورًا مكبرة للغاية لجميلات العصر الشهيرات اللاتى على قيد الحياة وهن يرتدين أحدث مبتكرات القبعات. وكان هناك دائمًا تجمع كبير للجمهور الذى يقف بالشريط الأوسط غير المتحرك ليشاهد فيلمًا سينمائيًا ضخمًا يعرف التغيرات فى الموضة، وعلى طول الواجهة، التى تمتد إلى أربعمائة قدم، وعبر طريق الأرصفة المتحركة ثبتت لافتة مزركشة بجدائل زيتية، أخذت تلتمع وتومض بآلاف من الألوان والظلال ومختلف حروف الطباعة والنقوش، كتب عليها:

"قبعات (سوزانا)! قبعات (سوزانا)!".

وقد وضعت على امتداد الطريق حواكٍ هائلة تطغى بصوتها على كل أصوات تصدر عن مستخدمى الأرصفة المتحركة، وتهدر فى وجه المارة قائلة: "قبعات"، بينما راحت أجهزة ترابط فى أماكن متفرقة من الطريق تنصح المارة بالتوجه إلى متجر (سوزانا) وتتساءل قائلة: "لماذا لا تشترى قبعة لفتاتك؟".

ومن أجل مساعدة المارة الذين يصادف أن يكونوا من الصم - ولم يكن الصمم بالظاهرة غير المألوفة فى لندن فى ذلك العصر -

كانت ثمة منشورات مصورة ذات أحجام متباينة تلقى من السقف فوق الأرصفة المتحركة ذاتها أو على يد أحد المارة، أو الرأس الصلعاء لذلك الذى يسير أمامك، أو على كتفى إحدى السيدات.. أو أن ينبثق فجأة لهب أمام قدمك على شكل إصبع، ويكتب هذا الإصبع المتحرك أحرفًا غير متوقعة من نار تقول: "القبعات رخيصة اليوم". أو أن تخط ببساطة "قبعات". ولكن على الرغم من كل هذه الجهود فإنه فى خضم الضجيج المتكاثف الذى كان يكتنف المدينة، ولكثرة ما كان يغشى العين ويصم الأذن من وسائل الإعلان، قد يمر المرء من هذا المكان آلاف المرات دون أن يتنبه إلى وجود شركة تدعى "جمعية (سوزانا) للقبعات".

وإذا أراد شخص ما أن يدخل هذا البناء فعليه أن يهبط الدرج الواقع فى الطريق الأوسط ويسير خلال ممر عام تقف فيه بعض الفتيات الجميلات اللاتى كن على استعداد لارتداء قبعات عليها بطاقات تشرح مميزاتها، وعرضها أمام المشترين، فى مقابل أجر قليل. أما المدخل فعبارة عن قاعة فسيحة الأرجاء تنتشر بها رءوس من الشمع مزينة وفق أحدث خطوط الموضة، تدور فى رشاقة فوق قواعد، ثم ينتقل المرء من هذه القاعة عبر مكتب الدفع النقدى، إلى عدد لا يحصى من الحجرات الصغيرة التى يعمل بكل منها بائع، وتحتوى كل منها على ثلاث أو أربع قبعات والدبابيس الخاصة بها، هذا بالإضافة إلى آلات العرض والمرايا والهواتف والوسائل الآلية التى تنقل بوساطتها القبعات من المخزن المركزى، ثم المقاعد الوثيرة فى قاعات الانتظار حيث الوجبات الشهية والمرطبات. وأصبح

(دنتون) أحد هؤلاء الباعة العاملين. وكان من بين مهام وظيفته أن يقوم بخدمة أى زمرة متدفقة ومتلاحقة من السيدات ممن يخترن الوقوف بحجرته، وأن يظهر لهن - بقدر استطاعته - الدماثة واللباقة عند التعامل معهن، كما يقدم لهن بعض المرطبات ويدير دفة الحديث فى أى موضوع يروق لهن. ويحرص على توجيه الحديث ببراعة ودون إلحاح إلى موضوع القبعات. ومن واجبه كذلك أن يقترح عليهن تجربة مختلف طرز القبعات، وأن يبين لهن بأسلوبه الرقيق وحسن تصرفه - دون أى تملق فظ - مدى الانطباع الجيد لهذه القبعات التى يريد بيعها. وكان يستعين على هذا بعدد من المرايا التى اتخذت لها - فى براعة - زوايا مناسبة بحيث تلائم مختلف ألوان البشرة وقسمات الوجوه، وكانت عملية البيع تعتمد إلى حد بعيد على الاستخدام الجيد لهذه المرايا.

وقد أقبل (دنتون) على هذه الأعمال التى لم يمارسها من قبل وغير الملائمة له تمامًا بنفس راضية، بل وبحماسة وحيوية، الأمر الذى كان حريا بأن يثير دهشته قبل ذلك بعام واحد، إلا أن جهوده ذهبت سدى. فلم تلبث كبيرة المديرات، التى سبق أن انتقته لهذه الوظيفة، وأثنت على أدائه للعمل أن عدلت عن موقفها على نحو مفاجئ، وأعلنت لسبب مجهول أنه أحمق، فقامت بطرده بعد أن قضى ستة أسابيع كبائع. ومن ثم فقد كان على (دنتون) أن يستأنف بحثه غير الفعال عن مورد آخر للرزق.

ولكن هذا البحث الثانى لم يستمر طويلاً. فقد كان رصيدهما من المال آخذًا فى التدهور مما اضطر معه أن يقررا - خشية أن

ينفد المال سريعًا ـ الافتراق عن طفلتهما العزيزة (دنجز) فيلحقانها بدار عامة للحضانة النهارية من تلك الدور التى تفيض بها المدينة. وكانت هذه هى العادة المتبعة فى ذلك العصر. فلقد أدى تحرر المرأة فى المجال الصناعى، وما نتج عنه من تفكك أسرى أن أصبحت دور الحضانة هذه ضرورية للجميع، إلا من كانوا فى بحبوحة من العيش أو ذوى التفكير غير العادى. وكان الأطفال يتمتعون داخل هذه المنظمات بميزات صحية وتعليمية لم تكن لتتوافر لهم ـ أبدًا ـ فى أى مكان آخر. وكان لدور الحضانة النهارية العديد من المستويات التى تتفاوت رفاهية وترفًا، وفى أقل المستويات نرى دور الحضانة الملحقة بشركة العمل التى تنفق على تربية الأطفال، على أن تكون هذه الأموال دينًا واجب السداد على ذويهم ـ الذين يعملون بالشركة ـ بعد بلوغ الأطفال سنًا معينة.

ولكن (دنتون) و(إليزابيث) كرها دور الحضانة هذه إلى أقصى حد، إذ إنهما ـ كما شرحنا ـ كانا شابين غريبين من طراز عتيق، تمتلئ رأساهما بأفكار القرن التاسع عشر، ولكن فى نهاية الأمر، حملا طفلتهما إلى إحدى هذه الدور بعد كثير من الإحجام. واستقبلتهما هناك امرأة حنون ترتدى زيًا رسميًا خاصًا على قدر كبير من النشاط والرشاقة والدقة وعندما أجهشت (إليزابيث) بالبكاء عند ذكر أمر افتراقها عن طفلتها. ولبعض الوقت دهشت المرأة العطوف لهذا التصرف غير العادى لكنها أظهرت من مشاعر الأمل والطمأنة ما جعل (إليزابيث) تظهر لها امتنانها وعرفانها بالجميل ثم قادتها السيدة إلى حجرة فسيحة يتولى الإشراف عليها

عدد من المربيات، وتضم مئات من الصغيرات اللائى تبلغن الثانية من أعمارهن، وقد جلسن فى مجموعات حول اللعب التى تغطى أرضية الحجرة. وكانت هذه حجرة الأطفال الذين يبلغون سنتين من العمر، وتقدمت من (دنجز) مربيتان فأخذت (إليزابيث) تراقب سلوكهما تجاه (دنجز) فى قلق، لقد كانتا عطوفتين، ولم يكن ثمة شك فى هذا، ولكن...

وما لبث أن حان وقت الانصراف، وفى هذا الوقت كانت (دنجز) قد استقرت فرحة ومبتهجة فى أحد أركان الحجرة على الأرضية وقد امتلأ ذراعاها، وكادت أن تغطى جسمها كله اللعب التى لم تعتد عليها، حتى ظهرت ـ عندما ابتعد عنها والداها ـ وكأنها غير مبالية بأى شىء يتعلق بكل العلاقات الإنسانية.

وقد منعا من وداعها حتى لا يزعجاها.

وعند الباب حدقت (إليزابيث) إلى الوراء للمرة الأخيرة، وروعت عندما شاهدت (دنجز) وقد ألقت ثروتها الجديدة من اللعب جانبًا فوقفت مذهولة. لهثت (إليزابيث) فجأة وقد صدمت، ولكن المربية الأم دفعتها للأمام ثم إلى الباب وكادت أن تغلقه خلفها.

ثم تطلعت المربية إلى (إليزابيث) بنظرات تنم عن الرقة والحنان على غير المتوقع وقالت لها:

"عزيزتى! يمكنك العودة فى القريب لرؤية ابنتك". إلا أن (إليزابيث) تفرست فيها لهنيهة بوجه خال من التعبير. فكررت المربية قولها:

"تستطيعين العودة فى القريب". فإذا بـ (إليزابيث) ترتمى بين ذراعى المربية الأم وهى تذرف الدموع.

وكانت مثل هذه اللحظات الانفعالية هى التى جعلت (دنتون) غارقًا فى حب (إليزابيث)، ولم تمض ثلاثة أسابيع أخرى حتى أصبح (دنتون) و(إليزابيث) مفلسين تمامًا، ولم يتبق أمامهما إلا فرصة واحدة، ألا وهى الالتحاق بشركة العمل. ولم يمض أسبوع واحد بعد موعد استحقاق إيجار الغرفة الجديدة الذى لم يُدفع، حتى تم الحجز على ممتلكاتهما الباقية، وأُلقى بهما خارج الفندق دون الحد الأدنى من اللياقة.

وسارت (إليزابيث) على طول الممر متجهة إلى الدرج الصاعد إلى الشريط الأوسط غير المتحرك من الطريق. ولم تستطع أن تفكر لشدة إحساسها بالتعاسة والأسى. وكان (دنتون) قد تخلف عن اللحاق بها لينهى نقاشًا مزعجًا وغير مقبول مع حمال الفندق، ولكنه هرول خلفها وقد احمر وجهه من فرط الانفعال وأخذ يتصبب عرقًا. وبمجرد أن لحق بها أبطأ من خطواته وهبطا معًا من الدرج الصاعد إلى الشريط الأوسط الثابت وقد خيم عليهما صمت مطبق، وما إن وجدا مقعدين شاغرين حتى جلسا عليهما.

قالت (إليزابيث):

"ألسنا فى حاجة إلى الذهاب إلى هناك على الفور؟".

فقال (دنتون):

"كلا... حتى نشعر بالجوع".

ولم يتبادلا كلمة واحدة بعد ذلك.

غير أن نظرات (إليزابيث) كانت غير مستقرة وزائغة. وإلى اليمين كانت تهدر الأرصفة المتحركة المتجهة شرقًا، وإلى اليسار تتدفق الأرصفة المتحركة فى الاتجاه العكسى، كان كلاهما يعج بالناس. وعلى سلك ممتد فوق رؤوس المارة كان يتحرك بسرعة عدد من الرجال الذين يرتدون زى المهرجين رائحين غادين يحمل كل منهم فوق ظهره وصدره حرفًا ضخمًا واحدًا، بحيث يكونون جميعًا عبارة:

"أقراص (بوركنجى) المهضمة".

وشوهدت امرأة ضعيفة ضئيلة الجسم ترتدى ثوبًا خشنًا بشعًا من الكنفا الأزرق، وهى تلفت نظر فتاة صغيرة إلى واحد من هؤلاء الرجال الذين يحملون الإعلانات المتحركة قائلة:

"انظرى هذا هو أبوك".

قالت الفتاة:

"أيهم؟".

فأجابتها:

"المطلى أنفه باللون الأحمر".

فأجهشت الفتاة بالبكاء. وكادت (إليزابيث) أن تبكى هى الأخرى.

قالت المرأة وهى تحاول أن تخفف عن ابنتها:

"لاحظى كيف يهز قدميه بمهارة بالغة.. انظرى".

وفى الواجهة اليمنى كان يدور بسرعة بالغة قرص هائل يتألق بالضوء الباهر بمختلف الألوان الغريبة، وتنبعث منه أحرف مضيئة تقول:

"هل أنت مصاب بالدوار بتأثير ذلك؟".

ثم تمضى فترة توقف مؤقت يليها الإعلان التالى:

"خذ قرص (بوركنجى) المهضم".

وارتفع بعد ذلك صوت مزعج صاخب يقول: "إذا كنت تحب أدب الزهو والتفاخر، فاطلب هاتفيًا (برجلز) أعظم مؤلف فى التاريخ. أعظم مفكر فى التاريخ. على استعداد أن يدرس لك الفلسفات الأدبية والأخلاقية حتى تمتلئ بها رأسك. هو صورة صادقة لسقراط ما عدا مؤخرة رأسه التى تشبه شكسبير. وله ستة أصابع فى كل قدم ويتشح برداء أحمر اللون ولا ينظف أسنانه أبدًا! أنصت إليه".

وارتفع صوت (دنتون) وأصبح مسموعًا خلال فترة انقطاع هذا الصخب:

"ما كان يجب علىّ أبدًا أن أتزوجك. لقد أهدرت مالك ودمرت حياتك وسببت لك التعاسة والبؤس. إننى بحق وغد ونذل.... آه تبًا لهذا العالم!".

حاولت (إليزابيث) أن تتكلم إلا أنها أخفقت لعدة لحظات، ثم أمسكت يده بشدة ثم قالت فى النهاية:

"هذا غير صحيح".

وفجأة تحولت الرغبة التى لم تكتمل إلى حزم وعقد النيّة على أمر فانتصبت واقفة قائلة:

"هل سوف تأتى معى؟".

فوقف بدوره وقال:

"ليس ثمة حاجة بنا إلى الذهاب على الفور".

"لم أقصد هذا الأمر ولكنى أريد منك أن تأتى معى إلى منصات الطيران، فى المكان الذى التقينا فيه، هناك حيث المقعد الصغير، هل تتذكره؟".

تردد (دنتون) لهنيهة ثم قال بشك:

"وهل تستطيعين ذلك"؟

فأجابته قائلة:

"إنه أمر ضرورى".

استغرق تردده عدة لحظات، وتحرك لينفذ إرادتها.

وهكذا قضيا نصف اليوم الأخير من أيام حريتهما جالسين فى الهواء الطلق فوق المقعد الصغير الذى يوجد تحت منصات الطيران كما كانت عادتهما منذ خمس سنوات، مرت سريعًا وهناك أبلغته بما لم يكن فى وسعها أن تخبره به فى خضم صخب الطرقات العامة، حدثته بأنها لا تشعر بأى ندم حتى فى الوقت الحاضر على زواجهما، وأنه مهما كانت الحياة تدخر لهما من إزعاج وبؤس، فإنها

تشعر بالرضا التام بكل ما حدث لها. وكان الطقس عطوفًا بهما، فالمقعد تدفئه أشعة الشمس، وإلى فوق مستوى رأسيهما الأعلى، تحلق الطائرات اللامعة رائحة غادية.

وفى النهاية ومع الاختفاء التدريجى لقرص الشمس الغاربة وراء الأفق كان الوقت الذى بقى لهما قد انتهى، فتعاهدا على الولاء والوفاء وتعانقت أيديهما ثم نهضا ورجعا إلى طرق المدينة، وعلى وجهيهما أمارات الحزن والإحباط والإرهاق وكانا يتضوران جوعًا ومرتديين ملابس بالية. وسرعان ما وصلا إلى إحدى اللافتات ذات اللون الأزرق الفاتح التى تدل على وجود مكتب لشركة العمل. وظلا فى الطريق الأوسط غير المتحرك فترة من الوقت يتفحصان هذه اللافتات، وفى نهاية الأمر هبطا الدرج ودخلا إلى حجرة الانتظار.

وفى الأصل كانت شركة العمل منظمة خيرية تهدف لتوفير الطعام والمأوى والعمل لكل من يلجأ إليها. وهذا ما ينص عليه قانون تأسيسها. بالإضافة إلى أنها كانت مسؤولة أيضًا عن توفير المأكل والمسكن والعناية الطبية لغير القادرين على العمل ممن يطلبون معونتها.

وكان على هؤلاء غير القادرين أن يحرروا فى مقابل ذلك "سندات دين العمل" التى يجب عليهم سدادها بمجرد شفائهم. وكانوا يوقعون على "سندات دين العمل" هذه بإبهام اليد التى كانت تلتقط لها الصور وتفهرس بشكل يمكن شركة العمل - التى تمتد فروعها إلى جميع أرجاء العالم - من أن تتحقق من أصل وطبيعة

وصفات أى من عملائها الذين يبلغون مائتى مليون أو ثلاثمائة مليون شخص، فيما لا يتعدى ساعة واحدة.

وكان يمكن توضيح عمل اليوم بأنه مثل قضاء فترتين زمنيتين على آلة ميكانيكية تتحرك بالأقدام، وتستخدم فى توليد الطاقة الكهربائية، أو ما يشابهها، وأن أداءها المطلوب يمكن أن يفرضه القانون. وقد وجدت شركة العمل ـ من الناحية العملية ـ أنه من المستحسن أن تدفع عدة بنسات فى اليوم كحافز للعمل، وتنفيذًا لالتزاماتها القانونية والاجتماعية بتقديم الطعام وتوفير المأوى. ولم يقم هذا المشروع فقط بالقضاء التام على التسول والفقر بل تمكن بالفعل من إمداد المنشآت فى جميع أنحاء العالم بحاجتها من العمال بكل فئاتهم ما عدا هؤلاء الذين يتميزون بكفاءات أعلى كثيرًا من المستوى العادى. ووفق هذا المشروع فإن حوالى ثلث سكان العالم، أصبحوا أرقاء ومدينين لشركة العمل من المهد إلى اللحد.

وبهذه الطريقة العملية ـ التى لا تأخذ فى اعتبارها أى شفقة أو رحمة ـ أمكن حل مشكلة البطالة والتغلب عليها على أفضل وجه. ولم يعد هناك من يتضور جوعًا فى الطرق العامة ولا أشخاص يرتدون الملابس الرثة. وأصبحت أثواب شركة العمل، المصنوعة من قماش الكنفا الأزرق، والتى تعد ملائمة للصحة وتفى بالغرض، يمكن مشاهدتها فى كل أرجاء العالم.

وكان من الموضوعات الثابتة التى ترددها الصحف الحاكية، القول بمدى تقدم العالم منذ القرن التاسع عشر، الذى كان يشهد

وجود جثث ضحايا حوادث وسائل النقل والموتى بسبب المجاعات – على حد زعمهم ـ فى كل شوارع المدينة المكتظة.

وجلس (دنتون) و(إليزابيث) على مقعدين منفصلين فى قاعة الانتظار حتى يأتى دورهما. وبدا أن معظم الذين يتجمعون هنا من المصابين بالعرج قليلى الكلام. غير أنه قد ظهر بينهم ثلاثة أو أربعة شبان تميزوا بلباسهم الذى لا ينم عن ذوق، وقد عوض هؤلاء هدوء رفقائهم. وقد كانوا من عملاء شركة العمل طوال حياتهم، إذ ولدوا فى دور الحضانة التابعة للشركة. ومقدر لهم أن يموتوا فى مستشفياتها، وقد سمح لهم بعطلة قصيرة يمرحون فيها وبضعة شلنات كأجر إضافى. وكان هؤلاء يتحدثون بصوت صاخب، وبلهجة تمثل آخر تطورات لغة أبناء الحى الشرقى الأقصى لمدينة (لندن)، كما كان جليًا مدى اعتزازهم بأنفسهم.

وجالت (إليزابيث) ببصرها بين هؤلاء وبين الآخرين الأقل صخبا. وكان من بينهم واحدة جديرة بالشفقة بشكل غير عادى. كانت هذه سيدة فى نحو الخامسة والأربعين من عمرها، صبغت شعرها بلون الذهب، وجملت بالمساحيق وجهها الذى انحدرت فوقه دموع غزيرة، كان لها أنف معقوف وعينان معبرتان عن الجوع ويدان وكتفان هزيلان، كما أن حليها وملابسها المترية البالية كانت تروى قصة حياتها. كما أثار عطفها شخص أشيب ذو لحية يرتدى زى أسقف إحدى الطوائف الكهنوتية الكبيرة، إذ إن الدين أصبح من الأعمال التى تلقى رواجًا وكسادًا ,كما كان يجلس إلى جواره غلام

يبدو عليه التوعك والانغماس فى الملذات، ربما كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا.

ثم جاء دور (إليزابيث) ثم (دنتون) فى لقاء السيدة المديرة - وقد كانت إدارة الشركة تفضل تعيين النساء فى مثل هذه الوظيفة - فوجدا وجهها ينم عن نشاط وسلوك محتقر وصوت كريه للغاية. وقدمت المديرة لهما عدة نماذج ليملآها، من بينها إقرار بأنهما غير مطالبين بقص شعر رأسيهما على نحو قصير، وعندما أخذت بصمتى إبهامى يديهما أبلغتهما بالرقمين المخصصين لهما، ثم استبدلا ملابسهما المتواضعة التى تنتمى إلى أبناء الطبقة الوسطى بأردية من الكنفا الأزرق الخشن تحمل أرقامًا، واقتيدا بعد ذلك إلى قاعة الطعام الكبرى غير المزينة ليتناولا أولى وجباتهما تحت هذه الظروف الجديدة. وكان عليهما فور الانتهاء من تناول طعامها أن يعودا إلى المديرة لتلقى التعليمات التى تتعلق بعملهما.

ولم تجرؤ (إليزابيث) - بعد استبدالها لملابسها - على التطلع إلى (دنتون) أول الأمر ولكنه نظر إليها، ولشدة ما كانت دهشته أن بدت له أنها مازالت تتمع بالجمال فى ردائها الأزرق. وعندئذ راحت أطباق الحساء والخبز تنزلق فوق قضبان صغيرة دوارة على طول مائدة الطعام الطويلة وعندما بلغتهما توقفت فجأة مصدرة صوتًا. ولم يفكرا فى أى شىء حولهما، ذلك أنهما لم يتناولا وجبة مناسبة منذ ثلاثة أيام.

وبعد الانتهاء من تناول وجبتيهما سرعان ما استراحا لبعض

الوقت، وفضل كل منهما الصمت فلم يكن لديهما ما يقولانه. ثم نهضا عائدين إلى المديرة لتلقى تعليماتها عن عملهما.

وأومأت المديرة إلى لوحة معلقة قائلة:

"لن تقيما هنا، بل فى منطقة (هايبرى وارد) التى تقع فى الطريق السابع والتسعين رقم ٢٠١٧، يفضل أن تدونا هذه المعلومات فى بطاقتيكما. أما أنت يا فتاة، صفر صفر صفر، فئة ٧ ـ ٤٦ ـ (بى سى دى) ـ جاما ٤١: أنثى، فعليك بالتوجه إلى شركة (تشكيل المعادن)، وأن تجربى العمل هناك لمدة يوم واحد، ستمنحين مكافأة قدرها أربعة بنسات إذا حزت القبول. أما أنت فصفر سبعة واحد، فئة ٤ ـ ٧٠٩ جى . إف. بى، باى ٩٥ ذكر، فعليك التوجه إلى (شركة التصوير) فى الطريق الواحد والثمانين، وهناك ستتعلم حرفة معينة ـ لست أدرى ما هى ـ ومكافأتك ثلاثة بنسات. هاتان هما بطاقتاكما. هذا هو كل ما فى الأمر. الذى بعدهما، ماذا؟ لم تفهما كل ما قلته؟ يا إلهى، لا أعتقد أننى سأعيد عليكما ذلك من جديد. لماذا لم تنصتا؟ يا لكما من مهملين غير مبالين... ثم يقولون إن مهمتى يسيرة".

كان طريقاهما إلى العمل واحدًا حتى مسافة قصيرة ووجدا للمرة الأولى أنه من الممكن أن يتبادلا الحديث. والغريب فى الأمر أن شعور الكآبة الذى اكتنفهما فى بداية الأمر، ما لبث أن زايلهما بمجرد أن ارتديا تلك الملابس الزرقاء، بل إن (دنتون) كان يتحدث بتشوق واهتمام حتى عن الأعمال التى سيقوم بها. وقال:

"ومهما تكن طبيعة هذه الأعمال، فلن تكون كريهة بنفس درجة ما كنت أقوم به فى متجر القبعات. ثم إنه سيتبقى لدينا ـ بعد سداد نفقات (دنجز) ـ بنس كامل فى اليوم يمكننا أن نتقاسمه، وفى المستقبل ربما تتحسن أحوالنا ويمكننا أن نحصل فيما بعد على المال أكثر".

كانت (إليزابيث) أقل منه رغبة فى الحديث، ولكنها ـ فى نهاية الأمر ـ قالت:

"إننى مندهشة من أن العمل يبدو كريهًا إلى هذا الحد".

قال (دنتون):

"وأى دهشة! أعتقد أن هذا الشعور ينشأ من إحساس الشخص بأنه يتلقى أوامر من غيره... أرجو أن يكون رؤساؤنا لطفاء ومهذبين".

ولم تجبه (إليزابيث). فلم يكن يشغل تفكيرها هذا الأمر، بل أخذت تتابع بعض الأفكار الخاصة التى راودتها.

ثم ما لبثت أن قالت:

"بالطبع كنا نترفع عن أداء العمل طوال حياتنا الماضية. ومن الناحية المنطقية...".

وتوقفت عن الحديث. إذ كان الموضوع بالغ التعقيد والصعوبة.

قال (دنتون) الذى لم يزعج نفسه بالتفكير فى مثل هذه الأمور المعقدة حتى هذا الوقت:

"لقد تحملنا معاناة شديدة من أجل هذا".

ثم استطرد قائلاً:

"لم نفعل شيئًا يذكر. ومع هذا فإننا نعانى بسببه".

وسرعان ما ردت (إليزابيث) وكأنها تردد بعض معتقداتها الدينية العتيقة:

"ربما ما زلنا ندفع ثمن أخطائنا".

وما لبث أن جاء الوقت الذى يجب أن يفترقا فيه ومن ثم ذهب كل منهما إلى عمله المحدد له. وكلف (دنتون) بالإشراف على مكبس معقد يدار بواسطة الماء، كان يبدو وكأنه ينبض بالحياة!

فقد كان هذا المكبس يدار بوساطة مياه البحر التى كانت تتدفق بقوة ـ فى مراحلها الأخيرة ـ لتنظيف مجارى المدينة، لأنه قد مضى وقت طويل لم يعد فيه العالم يمارس حماقة سكب المياه الصالحة للشرب فى أنابيب الصرف الصحى. كانت مياه البحر تنقل بالقرب من الطرف الشرقى للمدينة عن طريق قناة ضخمة ثم ترفع بوساطة شبكة هائلة من المضخات المترابطة إلى خزانات قائمة على ارتفاع أربعمائة قدم فوق مستوى سطح البحر، ومن هذه الخزانات تخرج بلايين الأفرع ـ التى تشبه الشرايين ـ تنتشر فى جميع أنحاء المدينة. ومن ذلك المصدر ينحدر تيار الماء الذى ينظف ويغمر بماء متدفق ويقوم بتشغيل آلات من كل الأنواع عن طريق عدد لا يحصى من قنوات متباينة ذات أقطار داخلية صغيرة للغاية. ثم تصب فى البالوعات الكبرى، وبذلك يتم نقل مياه المجارى إلى الأراضى الزراعية التى تحيط بمدينة لندن من كل الجهات.

كانت الآلة التى يشرف عليها (دنتون) تؤدى عملية مهمة فى صناعة التصوير، ولكن لم يكن مهتمًا بالتعرف على طريقة عملها. بيد أن أهم شىء - فى نظر (دنتون) - هو وجوب مراقبة عملها على ضوء ياقوتى اللون، ومن ثم فإن الحجرة التى كان يعمل بها قد زودت بمصباح زجاجى كروى ملون يصدر عنه ضوء شاحب موجع للعينين ينتشر فى كل أرجاء الحجرة. وفى أشد أركان هذه الحجرة ظلمة، كان يقوم ذلك المكبس الذى أصبح (دنتون) خادمًا له، على هيئة شىء هائل معتم ولكن يصدر عنه بريق ويبرز منه بين فترة وأخرى عرف يشبه إلى حد ما رأسًا مقوسًا، ويبدو وكأنه تمثال معدنى للحكيم (بوذا) وسط هذا الضوء الغريب الذى كان يرعى احتياجاتها. وكان يخيل لـ (دنتون)، عندما تنتابه حالات نفسية معينة، أن هذه الاحتياجات الضرورية لا بد أن تكون ذلك الوثن القائم الذى رأت الإنسانية - عن قصر نظر وضلال منها - أن تضحى بحياة (دنتون) كقربان له. كانت واجبات (دنتون) صورًا متباينة للعمل الذى يفتقر إلى التنوع وفيما يلى ما يصور بالكلمات ما يجرى عليه العمل فى الإشراف على هذا المكبس. إذ كان يصدر عن هذه الآلة دقات منتظمة مليئة بالحركة إذ كانت الأمور تسير وفق الخطة. ولكن إذا ما طرأ تغيير على كمية الصلصال[٣٢] الذى يتدفق من خط تغذية قائم بحجرة أخرى ويمر باستمرار على الآلة التى تكبسه كألواح رقيقة، فإنه يُسمع لإيقاع طرقاتها صوت مختلف ومن ثم يسارع (دنتون) إلى إجراء بعض التعديلات للإصلاح. وأى

(٣٢) طين رطب يستخدم فى صناعة الفخار والخزف (المترجم).

تأخير ضئيل من جانبه ينتج عنه فقدان جزء من الصلصال يؤدى إلى اقتطاع بنس أو أكثر من أجره اليومى. وكانت تدخل فى إعداد هذا الصلصال بعض العمليات اليدوية ذات الطبيعة الخاصة، ولما كان العمال يتعرضون أحيانًا للإصابة بانقباضات عضلية تؤثر على إنتاجهم، فقد كان على (دنتون) أن يقوم على الفور بإيقاف تروس مكبسه كلما شعر بأن كمية الصلصال الواردة بدأت فى الانخفاض وهكذا كان يتحتم على (دنتون) أن يقضى ثلث أيامه فى انتباه شديد مؤلم يتطلبه ذلك الخضم من الاهتمامات التافهة، أما مرجع هذا الألم فهو الجهد المتلاحق دون انقطاع الذى يستلزمه عمل غير مثير لأى اهتمام طبيعى. وكان (دنتون) يعمل فى عزلة تامة إلا من بعض الزيارات التى كان يقوم بها مديره من وقت لآخر، وعلى الرغم من طبيعته المتعاطفة إلا أنه كان سليط اللسان على نحو استثنائى.

كان عمل (إليزابيث) له صلة أقوى بالمجتمع. فقد كان من موضات ذلك الزمن أن تكسى جدران الحجرات الخاصة بكبار الأثرياء بألواح معدنية رقيقة مزخرفة بالنقوش والرسومات المتكررة.

إن ذوق ذلك العصر كان يطالب بألا يكون تكرار الوحدات الزخرفية آليًا تمامًا بل "طبيعيًا". واتضح أن الأسلوب الذى يؤدى إلى إحداث أروع تنسيق محبب للنفس لهذه الوحدات اللاقياسية هو استخدام نساء ماهرات يتمتعن بالذوق الفنى لحفر النماذج الزخرفية بآلات دقيقة. وكان الحد الأدنى للألواح، التى تقاس بالأقدام المربعة، التى ينبغى على (إليزابيث) تنفيذها كبيرًا، إلا أنها

كانت تمنح مقابل كل قدم مربع يزيد على ذلك مكافأة بسيطة. وكانت الغرفة التى تعمل بها (إليزابيث) شأنها شأن الغرف الأخرى للعاملات، تقوم بإدارتها سيدة، إذ اتضح لشركة العمل أن الرجال لا يصلون إلى مستوى النساء من حيث الدقة وتنفيذ القوانين بحذافيرها، بل يميلون إلى التسامح مع بعض السيدات ذوات المظهر الحسن، بإعفائهن من بعض الواجبات المهمة المفروضة عليهن. ولم تكن هذه المديرة قاسية أو فظة، إلا أنها كانت قليلة الكلام، كما تكشف قسمات وجهها الجامدة عن بقايا جمال لسيدة سمراء، وكانت العاملات الأخريات، يضمرن لها كراهية بالغة بطبيعة الحال، ويربطن فى الذهن اسمها همسًا باسم أحد المديرين العموميين لمصانع المعادن، موعزات بأن علاقتهما الفاضحة هى سبب تبوئها هذا المنصب المهم.

ولم يكن من بين زميلات (إليزابيث) إلا اثنتان أو ثلاث من العاملات اللائى ولدن أرقاء لشركة العمل. وكان أكثر ما يميزهن أنهن مفتقرات إلى الجمال ومكتئبات ,غير أن بقية العاملات كن يندرجن تحت تلك الفئة التى اعتاد أبناء القرن التاسع عشر أن يطلقوا عليها عبارة: "سيدات تعرضن لظروف قاسية" . كما تغيرت أيضًا الفضائل المثلى التى يجب أن تتوفر قديمًا فى السيدات نبيلات الأصل، إذ إن المواقف السلبية الخجولة الباهتة والاستخدام المتناغم للصوت وجمود الإيماءات، قد تلاشت كلها من العالم. وكان أكثر زميلاتها يظهرن بشعور غير مصبوغة، وبشرات جافة وكانت أحاديثهن تنطوى على استعادة للذكريات، الشباب الذى انقضى بكل

أمجاده. وكان كل هؤلاء العاملات الفنيات الماهرات يكبرن (إليزابيث) فى العمر، حتى إن اثنتين منهن عبرتا بصراحة عن دهشتهن عن فتاة مثل (إليزابيث) مفعمة بالشباب والجمال تقبل مشاركتهن أعباء عملهن الشاق. غير أن (إليزابيث) لم تشأ أن تزيد من معاناتهن فتسرد على مسامعهن معتقداتها الخلقية التى تنتمى إلى العالم القديم.

وقد سمحت لهن إدارة الشركة بتبادل أطراف الحديث أثناء العمل بل شجعتهن على هذا، لأنه قد اتضح للمسئولين أن أى تبديل فى الحالة النفسية للعاملات ينتج عنه إحداث تغيير محبب ومرغوب فى تتابع الزخارف، ومن ثم اضطرت (إليزابيث) إلى الإنصات إلى سير هؤلاء اللائى أصبحن جزءًا من حياتها العملية، ولقد كانت هذه الأقاصيص بسيطة وإن عمدن إلى تزيينها وتنميقها. وما لبثت أن اعتادت (إليزابيث) على الضغائن والتآمرات والنزاعات البسيطة التى كانت تنشب بينهن، فهذه امرأة ثرثارة بإفراط لا تكف عن الحديث عن ابنها الرائع الذى لا مثيل له، وتلك تجهر بصوتها الأجش الغليظ معتقدة أنها بهذا تبلغ أقصى درجات التعبير عن الأصالة والحداثة التى يمكن تصورها، وامرأة أخرى تتحدث دائمًا عن آخر خطوط الموضة والأزياء، وتحرص على أن تهمس إلى (إليزابيث) أنها تدخر أجرها يومًا بعد يوم حتى اليوم العظيم القريب الذى سوف تنعم فيه بالحرية وتشترى ثيابًا أنيقة، وعندئذ تمضى ساعات فى وصف تفاصيل هذه الثياب، وكانت هناك فتاتان لا تفترقان أبدًا، وكانتا تتبادلان

أسماء التدليل، ثم نشب بينهما ذات يوم خلاف بسيط، فافترقا في مجلسهما، وأصبحتا كمن أصيبتا بالعمى والصمم بالنسبة لبعضهما. كل هذا في خضم النقرات المتواصلة التي كانت تنصت لها مديرتهن حتى تتأكد أن كل واحدة منهن تعمل بجد ونشاط...

ومثل هذه النقرات المتتالية، هكذا أيضًا كانت تتواصل أيامهن، وعلى هذا النمط كان عليهن أن يقضين بقية حياتهن. كانت (إليزابيث) تجلس بينهن متعاطفة وهادئة ومنكسرة الفؤاد ومتعجبة من ذلك القدر الذي يمضي نقرة تلو نقرة.

وعلى هذا النسق قضى (دنتون) و(إليزابيث) أيامًا طويلة متتابعة من العمل المضني الذي أصاب أكفهما بخشونة. ونسج خيوطًا غريبة من مادة جديدة وقاسية في حياتهما الناعمة الفاتنة، كما ألقى خطوطًا وظلالاً فوق قسمات وجهيهما. وتراجع عن حياتهما بعيدا - ومتعذرًا بلوغه - كل بريق وراحة نعما بها في أيامهما السابقة، وأخذا يستوعبان شيئًا فشيئًا درس العالم السفلي في كآبته ووحشته وشقائه وإرهاقه وفساحته وامتلائه بالشر. وتوالت عليهما أحداث صغيرة كثيرة، مجرد ذكرها مضجر ويبعث في النفس البؤس والتعاسة، أشياء مرة ومؤلمة ولا يمكن تحملها، وإهانات واستبدادات وكأنها قوت الفقراء الذي لابد أن يتناولوه رغمًا عنهم في المدينة. بيد أنه وقع لهما ما لم يكن على الإطلاق بسيطًا بل ما سود حياتهما بظلام دامس مروع، فقد وجدا على حين فجأة أن طفلتهما التي منحاها الحياة تمرض ثم تسلم الروح. وتوالت وقائع

القصة المألوفة القديمة، والتى رويت مرات عديدة وبأشكال مبدعة، حتى إننا لا نجد حاجة إلى تكرارها. كان هناك الخوف المؤلم والقلق الطويل، والضربة المؤجلة التى لا يمكن اجتنابها، ثم الصمت الكئيب. هذا هو نفس ما حدث بالأمس دائمًا، ونفس ما سيكون عليه الأمر فى الغد وإلى الأبد، وفق قدر لا يحيد.

كانت (إليزابيث) هى التى بدأت الحديث، بعد أيام كئيبة وموجعة وحزينة، لكن لم يكن حديثها عن ذلك المخلوق الصغير الحبيب الذى غادرهما إلى الحياة الآخرة، بل عن الظلمة التى جثمت فوق روحهما. لقد شقا معًا طريقهما وسط طرق المدينة الصارخة المضطربة، ولكن لغط المبادلات التجارية وصياح ممثلى الديانات المتنافسة ومناشدات الدعايات السياسية لم تجد منهما إلا آذانًا متصامة[٣٣]، أما تألق الأضواء المركزة والحروف المتراقصة والإعلانات نارية اللون[٣٤] فلم تقع إلا على وجهين تعيسين بائسين لا يكترثان. ثم تناولا طعام الغداء فى قاعة الطعام وهما جالسان بمعزل. وقالت (إليزابيث) بصوت أجش:

"أود الذهاب إلى منصات الطيران... إلى حيث ذلك المقعد الصغير... فلا يمكن لأحد أن يقول شيئًا هنا".

تطلع إليها (دنتون) وقال:

"سوف يكون الوقت ليلاً".

---

(٣٣) غير راغبة فى الإصغاء (المترجم).

(٣٤) لون أحمر ملتهب (المترجم).

"هذه هى رغبتى.. إنها ليلة صافية".

وتوقفت عن الحديث.

وأدرك (دنتون) أنها لا تجد من الكلمات ما تعبر به عن مكنون نفسها. واتضح له فجأة أنها تتمنى مشاهدة النجوم من جديد، تلك الأجرام الفضائية التى كانا يرقبانها من السهول المنبسطة المكشوفة أثناء شهر العسل المتهور الذى قضياه منذ خمس سنوات مضت. وعند ذلك أحس بغصة فى حلقه، فأشاح بوجهه بعيدًا عنها وقال بلهجة واقعية:

"ثمة متسع من الوقت للذهاب إلى هناك".

وبلغا فى النهاية مقعدهما الصغير عند منصة الطيران، وهناك جلسا طويلاً دون أن يتفوها بكلمة واحدة، وعلى الرغم من أن مقعدهما كان فى الظل إلا أن "السمت"(٣٥) كان يبدو لهما أزرق باهتًا بفعل تألق منصة الطيران من أعلى، وكانا يشرفان على المدينة برمتها ممثلة فى مربعات ودوائر وبقع متألقة ومتشابكة يغمرها الضوء. وبدت لهما النجوم خافتة وضئيلة للغاية. فبعد أن كانت تظهر للمراقب فى العصر القديم وكأنها قريبة، بدت لأبناء العصر المتأخر بعيدة بعدًا لا يسبر غوره. إلا أن المرء يمكنه رؤية هذه النجوم واضحة فى المواقع المعتمة فى خضم الوميض الباهر، وبخاصة فى الجزء الشمالى من السماء، حيث تدور كوكبات النجوم القديمة حول القطب بثبات، وصمود.

---

(٣٥) النقطة فى القبة السماوية التى تكون فوق المراقب تمامًا (المترجم).

ومضى وقت طويل و(دنتون) و(إليزابيث) جالسين فى صمت إلا أن (إليزابيث) قطعت هذا الصمت فى النهاية بأن تنهدت ثم قالت:

"لو كنت أعرف.. لو كنت أعرف، لماذا تبدو المدينة عندما يهبط المرء إليها هناك بعجلتها وضوضائها وأصواتها وكأن بها كل ما فى الدنيا، أنت هناك مقضى عليك بالنضال والكفاح باهتياج لتحصل على أى شىء، أما من هنا فالأمر يختلف، فالمدينة تبدو لا شىء، بل مجرد صورة سرعان ما تتلاشى ومن هذا المكان يمكن للشخص أن يفكر فى سلام".

قال (دنتون):

"أجل لم تبد هذه كلها واهية وضعيفة وغير مقنعة! أكثر من نصفها - كما يرى من هنا - وقد ابتلعته دياجير الليل. ولسوف تنقضى".

قالت (إليزابيث):

"وسوف ننقضى نحن أولاً ...".

قال (دنتون):

"أعرف هذا! ولو لم تكن الحياة لحظة لبدا التاريخ كله وقائع يوم واحد.. أجل كلنا إلى انقضاء والمدنية إلى انقضاء، وكذلك كل الأشياء التى سوف تأتى الإنسان والإنسان الفائق والعجائب التى لا توصف. ومع ذلك...".

وتوقف هنيهة ثم استطرد قائلاً:

"إنى أعرف ما تشعرين به، أو أن هذا هو ما أظنه.. فالإنسان هناك فى أسفل حيث المدنية، عليه أن يفكر فى عمله، فى أحزانه الصغيرة، أفراحه، فى طعامه وشرابه وطمأنينته وأحزانه، إذ إن قدره أن يحيا ثم يموت.. وهناك فى أسفل يشعر الإنسان كل يوم بأن الأسى هو نهاية الحياة..".

"أما هنا فى أعلى فالأمر مختلف. وعلى سبيل المثال كادت أن تتعذر الحياة هناك على المشوه أو العاجز أو من يلحق به خزى أو عار، أما هنا وتحت هذه النجوم المتألقة لا شىء يهم من كل هذه الأمور، لا شىء يهم منها على الإطلاق. إنها جزء من شىء آخر. وإن الإنسان ليكاد يلمس هذا الشىء هنا تحت هذه النجوم..".

وتوقف عن الحديث بغتة. فإن تلك الأشياء الغامضة غير المحسوسة التى تعتمل فى ذهنه، وتلك العواطف المضطربة التى لم تكتمل بعد فى صورة أفكار محددة قد تلاشت هاربة من القبضة الخشنة للكلمات. ثم أردف فى يأس:

"من الصعب أن أعبر عما أحس به".

ثم خيم عليهما صمت طويل فجلسا ساكتين.

وقال (دنتون) فى نهاية الأمر:

"حسن أن نأتى إلى هنا. إن عقولنا محدودة للغاية. ولكننا على أية حال مجرد حيوانات هزيلة خرجت توًا من الحياة الوحشية

بالغاب، لكل منها عقل ولكنه لا يزال يشرع يأخذ الخطوة الأولى فى أداء عمله، كم نحن فى غاية الغباء. كل ذلك مؤلم مع ذلك..".

"أعرف. أعرف... وذات يوم سوف نرى".

هذه الضغوط المروعة وكل تلك النزاعات سوف تنهى الألفة والتناسق وسوف نعرف بهذا الأمر فلا شىء لا يؤدى إليه. لا شىء. إن كل ما نعانيه من إخفاقات، بل كل شىء صغير يمهد الطريق لهذا التناسق. ولسوف يتضح لنا أن كل شىء كان ضروريًا من أجل تحقيق هذا الهدف. كل شىء. وليس هناك من شىء ـ الأمور جميعًا ـ لا يمكن أن نسقطه من حسابنا. وأتفه الأشياء أيضًا يجب أن تؤخذ فى الحسبان، كل نقرة من مطرقتك فوق النحاس الأصفر، كل لحظة عمل، بل وتعطلى عن العمل هذا أيضًا.

يا حبيبتى! كل حركة من حركات صغيرتنا المسكينة.. كل هذه الأمور سوف تسير هكذا إلى الأبد. ثم تلك الأمور البسيطة صعبة الاستيعاب التى لا ندركها بحواسنا. جلوسنا هنا معًا، كل شىء...

العاطفة القوية التى ربطت بيننا، وما تعرضنا له من أحداث منذ ذلك الحين. الآن لم تعد هذه بالعاطفة القوية بل هى أقرب إلى اللوعة.

عزيزتى!

ولم يزد. إذ لم يعد قادرًا على متابعة أفكاره أكثر من هذا ولم تجبه (إليزابيث) ـ كانت ساكنة للغاية ـ ولكن يدها سرعان ما تحركت تبحث عن يده.. ووجدتها.

٤ - الطوابق السفلية

قد يتمكن الإنسان تحت نجوم الكون أن ينطلق عاليًا ويبلغ حالة من الإذعان والتسليم بشىء لا مفر منه، ولكنه سرعان ما يرتد من جديد تحت ضغط الحياة اليومية، ويصاب بالاشمئزاز والتقزز والنفور والغضب ثم أشكال أخرى من الحالات النفسية التى لا تحتمل. أما عن الشهامة والنبل ورحابة الصدر والسماحة فهى لا تحتل فى نفوسنا إلا مكانة متواضعة، إنها حادث عارض، أو مرحلة عابرة حتى إن القديسين ذاتهم الذين ظهروا فى العصور القديمة كانوا أول من عمد إلى الفرار من هذا العالم، أما (دنتون) و(إليزابيث) فلم يكونا بقادرين على الهروب من عالمهما، إذ لم تعد ثمة دروب مفتوحة تؤدى إلى أراض مشاع لا يمتلكها أحد، حيث يمكن أن يعيش الإنسان حياة حرة، وإن انطوت على صعوبة ومشقة، حيث يتوفر لروحه السلام والطمأنينة إذ يبدو أن المدينة قد التهمت البشر.

ومضت فترة من الزمن احتفظ فيها هذان الرقيقان من أرقاء شركة العمل بوظائفهما الأصلية، فظلت (إليزابيث) تدق وتنقر ألواح النحاس. واستمر (دنتون) يمارس عمله على المكبس. ثم نقل إلى وظيفة أخرى حيث تعرض لصنوف جديدة أكثر مرارة من خبرات الحياة فى الطوابق السفلى للمدينة الهائلة. وكلف بالإشراف على مكبس آخر أشد تعقيدًا فى المصنع المركزى لاتحاد لندن للقرميد.

وكان عليه أن يؤدى عمله الجديد داخل حجرة طويلة ذات سقف مقوس بمشاركة عدد من العمال الذين كانوا فى الغالب مولودين كأرقاء لشركة العمل. وقد تقبل العلاقات التبادلية معهم على

مضض. فقد نشأ فى كنف عائلة كريمة ومن ثم اكتسب دماثة الخلق حتى أدى به سوء طالعه إلى ارتداء هذا الزى الأزرق المقيت، بل لم يحدث له طوال حياته ـ إلا إذا أُمر أن يفعل هذا أو دعت إليه الضرورة القصوى ـ أن تحدث إلى واحد من أبناء الجنس ذوى الوجوه البيضاء الشاحبة المرتدين الكنفا الأزرق، أما الآن فقد توثقت الصلة فى النهاية بينه وبينهم وصار يعمل بجانبهم ويشاركهم أدواتهم ويتناول الطعام معهم. ورأى (دنتون) و(إليزابيث) أن العمل الذى يؤديانه يمثل لهما إهانة وإذلالاً وتحقيرًا وانحطاطًا وربما كانت آراؤه هذه تبدو ـ لأبناء القرن التاسع عشر ـ تحمل الكثير من التطرف والمبالغة. ومع مرور السنين نشأت ثغرة واسعة ببطء وبطريقة يصعب اجتنابها بين مرتدى الزى الأزرق وأبناء الطبقات الأعلى. ولم يكن التباين فى ظروف المعيشة وأساليب الحياة فحسب، بل وأيضًا أساليب التفكير وحتى فى اللغة. إذ اتخذت الطبقات الدنيا لغة محلية خاصة بها، بينما طورت الطبقات العليا لغة اصطلاحية عبارة عن منهج فكرى، ولغة عن "الثقافة"، وقد قامت ببحث مثابر عن كل ما يؤدى إلى تمايزها، ويوسع باستمرار تلك الهوة التى تباعد بينها وبين "السوقية" ، وعلاوة عن ذلك، فإن رابط العقيدة المشتركة لم يعد يقوم بدوره فى التقريب بين البشر. وإن كانت بوادر هذا التقارب قد ظهرت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حين انتشرت بسرعة البدع الدينية بين فئة الأثرياء التافهين، فابتدعت الشروح والتفسيرات الخادعة والخاطئة التى حصرت التعاليم الشاملة لنجار "الناصرة"[٣٦]، فى نطاق

(٣٦) يقصد به السيد المسيح (المترجم).

حياتهم المحدودة. وعلى الرغم من انجذاب كل من (دنتون) و(إليزابيث) إلى أسلوب الحياة القديمة، فإن أيًا منهما لم يكن يمتلك ذلك القدر من الأصالة الكافية التى تمكنه من أن يتخلص من تلك الصورة الذهنية التى توحى بها ظروفهما الخارجية المؤثرة والمحيطة بهما. وكانا لا يزالان يتبعان ـ فى سلوك حياتهما اليومية ـ نفس أساليب الطبقة التى ينتميان إليها، حتى لقد تصورا عندما اضطرتهما الحياة ـ فى نهاية الأمر ـ إلى الانحدار إلى مستوى مجموعة الأرقاء العاملين بشركة العمل، أنهما قد قذف بهما فى خضم حيوانات دنيا كريهة، وأحسا بما قد يشعر به دوق ودوقة من القرن التاسع عشر عندما يرغمان على المبيت فى حجرات داخل كوخ حقير. وكان لديهما دافع قوى طبيعى للبقاء منعزلين عن الآخرين. بيد أن فكرة (دنتون) الأولى عن تحقيق قدر معقول من الانعزال فى هذه الظروف الجديدة التى تحيط بهما، ما لبثت أن تلاشت بطريقة فظة وغير متحضرة، إذ اعتقد (دنتون) أن انحداره فى العمل كأحد أرقاء الشركة يمثل ختامًا لدرس قاس لقنته له الحياة، بعد أن كشف حقيقتها وسبر غورها بوفاة طفلته الحبيبة، إلا أن هذه الحوادث لم تكن غير بداية فقط فالحياة تطلب منا أكثر من مجرد الإذعان لها. وقدر عليه ـ فى غرفة مكتظة بمصلحى الآلات ـ أن يتعلم درسًا آخر أكثر شمولاً، ليتعرف على عنصر آخر من عناصر الحياة الجوهرية لا يختلف عن الشعور بالحزن الذى ينتابنا لفقد الأشياء التى نعتز بها، بل إنه أساسيًا أكثر من الشقاء والمعاناة.

وقد جاءت عدم رغبته فى الحديث معهم فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى إثارة حقد المحيطين به. وقد فسر هؤلاء هذا التصرف من جانبه - بحق - بأنه تحقير لهم وترفع. وما لبث جهله باللهجة الدارجة العامية - الأمر الذى كان يعتبره حتى الوقت الحاضر من دواعى زهوه - أن اتخذ فجأة مظهرًا جديدًا، فقد فشل فى أن يدرك لحظيًا أن ردوده على تلك العبارات الفظة الحمقاء، وإن كان المقصود بها - بالرغم من هذا - للترحيب بمقدمه، كانت بالنسبة للذين صدرت عنهم مثل الصفعات المؤلمة. فقد أخذ يردد بشىء من البرود: "لست أفهم"، أو يقول عرضًا: "لا، شكرًا لك".

ولم يسع الرجل الذى بادر بالترحيب به إلا أن يحدقه بنظراته الغاضبة ثم يقطب جبينه، ثم يستدير ويذهب بعيدًا.

وقام عامل آخر - بعد أن أدرك أنه قد فشل بدوره فى إيصال كلماته إلى سمع (دنتون) غير المعتاد على هذه اللهجة العامية - بأن كرر عبارته فاكتشف (دنتون) بعد جهد أن هذا الرجل يريده أن يستخدم علبة زيت. فأعرب عن شكره المهذب وعندئذ شرع هذا الرجل للثانى فى حديث بعيد النظر، لاحظ بأن (دنتون) لابد أنه من عائلة عريقة، وكان يريد أن يعرف تلك الأسباب التى أدت به إلى ارتداء الزى الأزرق وكان يتوقع - بطبيعة الحال - أنه موشك على سماع قصة طريفة تزخر بالعديد من الرذائل والتهورات. فهل حظى (دنتون) بالحياة فى إحدى مدن المتعة؟ وسرعان ما أدرك (دنتون) كيف أن وجود هذه المؤسسات المثيرة للإعجاب والبهجة

يفسد فكر هؤلاء العمال الكارهين لحياتهم واليائسين من أبناء هذا العالم السفلى ويدمر كرامتهم.

ولكن مزاجه الأرستقراطى جعله يستاء من مثل هذه الأسئلة. فراح يجيب بالنفى على نحو مقتضب، وأخذ الرجل يسأل بإلحاح عن أمور شخصية كثيرة وفى هذه المرة، غضب (دنتون) وغادر المكان. ولم يسع محدثه بعدما اعترته دهشة بالغة إلا أن يقول: "نفخة كدابة"

وسرعان ما أدرك (دنتون) ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن هذا الحوار اللافت للنظر الذى جرى بينه وبين هذا الرجل ـ عندما يتم تكراره بأسلوب ساخط مستاء ـ لمجموعة من المستمعين الناقمين، لابد أنه سوف يدفعهم للدهشة بل وقد يجعلهم يضحكون فى سخرية وأخذ هؤلاء يتطلعون بشكل ساخر إلى (دنتون) بفضول متنام، حتى لقد انتابه إدراك غريب بالانعزال، فحاول أن يركز تفكيره فى مكبسه وخصائصه الفريدة.

وقد انشغل العمال إلى حد كبير بآلاتهم خلال نوبة العمل الأولى، وتلت ذلك فترة راحة. ولم تكن هذه المدة الزمنية الوجيزة للغاية تكفى للذهاب إلى قاعة الطعام بشركة العمل بل خصصت فقط لتناول المرطبات والوجبات الخفيفة.

ومن ثم تبع (دنتون) رفقاءه من العمال متجهين إلى رواق قصير يضم بعض صناديق خزن الأشياء والنفايات المتخلفة عن المكابس.

ثم أخذ كل منهم يفض لفافة الطعام التى أحضرها معه، عدا (دنتون) الذى لم يكن معه لفافة طعام. ولم يكترث مديره - وهو شاب مستهتر احتل منصبه، بتوصية من شخص ذى نفوذ - أن يبلغه بضرورة أن يتقدم بطلب لكى يحصل على مخصصاته من الطعام. فوقف (دنتون) منفردًا وهو يشعر بالجوع. أما باقى العمال فقد جلسوا معًا وراحوا يتحادثون همسًا وهم يتطلعون إليه بين حين وآخر. فشعر بالقلق وعدم الاطمئنان، وبذل جهدًا مضنيًا، لكى يبدو وكأنه غير مكترث، ثم قرر أن يحاول تركيز فكره فى روافع مكبسه الجديدة.

وما لبث أن تقدم منه رجل أقصر منه قامة وإن كان أعرض منكبين وأقوى بنية، فاستدار إليه (دنتون) مظهرًا ـ بقدر إمكانه ـ عدم اهتمام ولا مبالاة. وإن أدرك على الفور أن هذا الرجل القصير قد أتى إليه مفوضًا من جماعته. مد الرجل يده التى لم تكن نظيفة تمامًا، وقد أمسكت بمكعب من الخبز وقال "خذ!". وكان وجهه داكنًا وأنفه عريضًا وفمه يتدلى إلى جانب.

تريث (دنتون) بضع لحظات ينتابه الشك وهو لا يدرى حقيقة هذا التصرف، وهل يعنى لطفًا وكياسة أم إهانة وتحقيرًا. وشعر بدافع قوى يدعوه إلى الرفض. فقال للرجل القصير:

"لا، شكرًا".

وعندما أحس بتغير فى تعبيرات وجهه استطرد قائلاً:

"لست جائعًا".

وإذا به يسمع ضحكات صادرة عن جماعة العمال من خلفه. وارتفع صوت العامل الذى عرض على (دنتون) اقتراض علبة الزيت قائلاً:

"ألم أقل لكم؟ رجل متكبر، إنك لست كفئًا له!".

وازداد تجهم وجه ذلك الرجل القصير الأسمر. وقال ويده لا تزال ممتدة بقطعة الخبز:

"خذ".

واستطرد فى صوت هامس:

"لابد أن تأكل هذا الخبز. أتفهم؟".

وحدق (دنتون) فى الوجه المعبر عن التهديد لذلك الرجل القصير الذى يقف أمامه، وشعر بدفعات - لا عهد له بها - من الطاقة تسرى فى أطرافه وجسمه كله.

قال (دنتون) وهو يحاول أن يفتر ثغره عن ابتسامة لطيفة ولكن هذه ظهرت فجأة ثم خفتت:

"لا أريد خبزًا".

فمد الرجل القصير غليظ البنية وجهه إلى الأمام، وقد استحال الخبز فى يده إلى أداة تهديد مادية. وأعمل (دنتون) تفكيره لكى يحاول سبر غور ذلك اللغز الذى يكمن فى عينى خصمه واستطرد الرجل القصير الأسمر قائلاً:

"لا بد أن تأكل الخبز".

ومرت فترة تريث، بعدها تحرك كلاهما بسرعة ونشاط. واتبع مكعب الخبز مسارًا منحنيًا معقدًا كاد أن ينتهى بالارتطام بوجه (دنتون) الذى ضرب بقبضته معصم اليد الممسكة بالخبز، فأطاح به إلى أعلى وخرج من النزاع بعد أن أدى دوره.

وتراجع (دنتون) فى سرعة إلى الخلف، مطبقًا أصابعه بإحكام مشدود الذراعين. وتقلصت ملامح الوجه الأسمر المهتاج، وأظهرت عداء متحفزًا وفى انتظار الفرصة المواتية وأحس (دنتون) لحظيًا بشىء من الثقة، وشعور ـ تعجب له ـ بالابتهاج والاطمئنان. كان قلبه يدق بعنف وأحس بدفقة من الحيوية تسرى فى جسمه وحتى أطراف أوصاله.

وارتفع صوت أحدهم:

"تلاكما أيها الشابان".

وإذا بالرجل القصير الأسمر يقفز بغتة إلى الأمام ثم يتقهقر إلى الوراء منحنيًا ويميل من جانب إلى آخر ثم يتقدم من جديد. ويعالجه (دنتون) بلكمة، فيرد عليها.

وشعر (دنتون) وكأن إحدى عينيه قد فقئت تمامًا، وأن الدم ينزف من إحدى شفتيه، وذلك قبل أن يوجه إليه خصمه اللكمة الثانية ـ هذه المرة ـ فى موضع أسفل الذقن. وكأنما ارتطمت به مروحة هائلة مفتوحة ذات إبر نارية. واقتنع لحظيًا بأن رأسه قد تهشم وأصبح متناثرًا، ثم ارتطم به شىء ما من خلفه فأصاب رأسه وظهره، ولم يلبث العراك أن أصبح متكافئًا من الطرفين غير مثير للاهتمام.

وأدرك أن الزمن سواء كان مكونًا من ثوان أو دقائق، قد مر به كزمن تجريدى[٣٧] خال من الأحداث المهمة.

ووجد نفسه طريح الأرضية ورأسه فى كومة من الأنقاض، وأحس بسائل دافئ يتدفق بسرعة فى داخل عنقه، ثم تحولت الصدمة الأولى إلى أحاسيس غير مترابطة؛ فرأسه ينبض بألم مبرح، غير أن نبض عينيه وذقنه كان يوجع بإفراط، وكان هناك مذاق الدم فى فمه.

عندئذ سمع صوتًا يقول: "إنه بخير فقد بدأ يفتح عينيه". وقال صوت ثان: "أخذ درسًا لن ينساه".

وكان زملاؤه يقفون حوله. وبذل (دنتون) جهدًا ليستطيع الجلوس. ومسح بيده مؤخرة رأسه فوجد شعره مبتلاً وممتلئًا بالخبث[٣٨]. وأدت هذه الحركة إلى إثارة ضحك زملائه. وكانت عيناه مغمضتين جزئيًا. وأدرك ما حدث له، وتلاشى توقعه اللحظى فى تحقيق نصر نهائى.

قال شخص ما:

"يبدو مندهشًا".

وأردف آخر بخفة دم:

"أتريد شيئًا آخر؟"، ثم أضاف مقلدًا نبرات (دنتون) المهذبة: "لا شكرًا".

---

(٣٧) بعيد عن الواقع (المترجم).

(٣٨) ما يتخلف عند صهر المعدن الخام (المترجم).

ولمح (دنتون) الرجل القصير الأسمر وهو يمسح وجهه بمنديل ملطخ بالدم، واقفًا ـ إلى حد ما ـ فى الخلفية.

وصاح مخلوق آخر يحمل وجه حيوان ابن مقرض أسود القدمين قائلاً:

"أين قطعة الخبز التى يجب أن يأكلها؟".

وراح ينقب بقدمه فى الأنقاض الموجودة داخل الصندوق القريب منه.

وداخلت (دنتون) لحظات من التفكير والتأمل الداخلى. لقد كان يدرك أن ميثاق الشرف يوجب على المرء أن يواصل القتال الذى بدأه حتى النهاية أيًا كانت مرارته، ولكن كانت هذه هى الجرعة الأولى من المرارة. وعزم على النهوض من جديد لم يجد من نفسه دافعًا قويًا لذلك. وخطر فى باله ـ ولو أن هذا الخاطر لم يكن بدافع قوى له ـ أنه ربما كان ـ برغم كل شىء ـ جبانًا. وشعر بإرادته تجمد لحظيًا وكأنها كتلة من الرصاص.

قال الرجل صغير الحجم الذى يشبه وجه ابن مقرض وهو ينحنى لالتقاط مكعب الخبز وقد غطاه الخبث:

"ها هى ذى".

وتطلع إلى (دنتون) ثم أجال بصره فى الآخرين.

واستطاع (دنتون) النهوض بتؤدة رغمًا عن إرادته.

ومد رجل أمهق[٣٩] قذر الوجه يده إلى الرجل الذى يشبه وجه ابن مقرض قائلاً:

---

(٣٩) شخص حليبى البشرة أبيض الشعر قرنفلى العينين (المترجم).

"أعطنى قطعة الخبز".

وتقدم من (دنتون) وكسرة الخبز فى يده متوعدًا:

"أراك لم تملأ معدتك بعد، أليس كذلك؟".

وأدرك أنه سوف يبدأ شجارًا. قال (دنتون):

"بلى". وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة محدثًا نفسه بأن يفاجىء هذا الهمجى بلكمة خلف أذنه قبل أن يفقده صوابه، وإن عاد فخشى أن يهزم بضربة أخرى. ودهش كيف أنه قد أخطأ الحكم على نفسه مسبقًا أن بضع ضربات بسيطة بإمكانها أن تلقيه أرضًا من جديد. وراح يلاحظ بانتباه عينى الرجل الأمهق الذى كان يبتسم ابتسامة عريضة توحى بالثقة بالنفس كمن يخطط لخدعة ممتعة! وأدرك (دنتون) بغتة أنه يوشك أن يلاقى المزيد من المهانة والخزى والعار.

حينئذ قال الرجل القصير الأسمر فجأة، من فوق قطعة القماش الملطخة بالدماء:

"(جيم)! دعه وشأنه".

واستطرد قائلاً:

"فلم يسبب لك أى أذى".

وتلاشت الابتسامة التى كانت ترتسم على شفتى الرجل الأمهق وتوقف الرجل القصير الأسمر عن الحديث، وأخذ يقلب النظر بين (دنتون) والرجل الأمهق.

وبدا لـ (دنتون) وكأن الرجل القصير يريد أن يحظى بالقصاص منه منفردًا!

وكان ذلك الأمهق أخف وطأة على (دنتون) من زميله الرجل القصير الأسمر.

قال الرجل الأسمر:

"دعه وشأنه. ألا ترى أنه وعى الدرس تمامًا؟".

وفى هذه الأثناء دوى رنين جرس عالٍ محدثًا قرقعة وضجة فكان فيه حل للموقف. وتردد الرجل الأمهق قليلاً ثم قال لـ (دنتون):

"إنك لسعيد الحظ". وأتبع ذلك بعبارة بذيئة. ثم استدار مع الآخرين فى اتجاه حجرة المكابس من جديد، غير أنه توقف إذ واتته فكرة مستدركة فى ذهنه، والتفت إلى (دنتون) قائلاً:

"لتنتظر حتى آخر نوبة العمل يا صديقى". ثم تريث الرجل القصير الأسمر حتى تقدمه الرجل الأمهق فى الصف. وعندئذ أيقن (دنتون) أنه قد تم إرجاء عقابه.

وسار الرجال جميعًا فى اتجاه باب مفتوح. وتذكر (دنتون) مهام وظيفته فأسرع ليلحق بمؤخرة الصف. وكان يقف بباب البهو ذى الأعمدة والأقواس حيث المكابس أحد رجال شرطة العمال يرتدى زيًا أصفر وهو يعلم على بطاقة. وقد تجاهل هذا الشرطى الرجل القصير الأسمر على الرغم من نزيف دمه، ولكنه وجه حديثه إلى (دنتون) قائلاً:

"أسرع إلى هنا". وعندما شاهد وجه (دنتون) المليء بالرضوض صاح فى دهشة:

"من ذا الذى ضربك؟".

قال (دنتون):

"هذا أمر يخصنى وحدى".

فقال صاحب الزى الأصفر:

"كيف يخصك وحدك وهو أمر سوف يوقفك عن العمل؟ ألا يهمك هذا؟".

ولم يجبه (دنتون). لقد كان شخصًا فظًا، مجرد عامل.

من يرتدى الكنفا الأزرق. وليس لمن كان على شاكلته شرعت القوانين - التى نعرفها - عن الضرب والجرح. واتجه على الفور إلى مكبسه.

لقد شعر بأن جبهته وذقنه ورأسه تتورم فى شكل كدمات، وكان بذلك النبض والألم اللذين يرافقان ظهور كل كدمة. وأصاب جهازه العصبى الخمول والكسل حتى خيل له أنه مع كل حركة كان يؤديها لضبط وتعديل مكبسه أنه يرفع ثقلاً. أما عن كرامته فقد اهتزت وكأنما أصابتها عصفة ريح قصيرة ومفاجئة. أى موقف هذا الذى تعرض له؟ ما الذى ألم به - بشكل دقيق ومحدد - خلال عشر الدقائق الماضية؟ ترى ما الذى سوف يتعرض له بعد ذلك؟ كل ما يعرفه هو أنه يواجه مشقة تتطلب منه تفكيرًا عميقًا، إلا أنه لم يكن قادرًا على التفكير إلا بشكل فوضوى ومضطرب.

كانت حالته النفسية نوعًا من الدهشة الفاترة. وقد انهارت كل مفاهيمه ومبادئه . إذ إن مبدأ حمايته من كل عنف جسمانى، كان يراه جوهريًا، وواحدًا من مقومات الحياة. وقد كان هذا هو الواقع عندما ارتدى زى أبناء الطبقة المتوسطة التى ينتمى إليها، وكان لديه من الممتلكات ما يعمل من أجل حمايته. ولكن من يستطيع التدخل بين عمال أفظاظ ومشاكسين يتقاتلون معًا؟ لم يكن هناك - فى واقع الأمر - من إنسان يمكنه ذلك فى تلك الأيام. ففى العالم السفلى لم يكن هناك قانون ينظم العلاقة بين إنسان وآخر، بل إن أهل هذا العالم السفلى قد رأوا فى القانون وأجهزة الدولة عاملين على تثبيط همتهم ومنعهم من أكثر ما يرغبون فيه من حق التملك والمتعة.

وهذا كل ما فى الأمر. إن العنف، ذلك المحيط المتلاطم الذى يعيش فى خضمه هؤلاء الأوغاد إلى الأبد، والذى حصلنا منه على حياتنا المتحضرة المحفوفة بالمخاطر، بفضل الآلاف من السدود والحواجز والخنادق والابتكارات، قد فاض من جديد وغطى الطوابق السفلى وغمرها فى الماء. وكانت هذه هى أول ممارسة للسلطة وأدرك (دنتون) فى نهاية الأمر عناصر الحياة الأساسية الأولى: قوة بدنية غاشمة وخداع شائن ونفوس عنيدة ومشاكسة وألفة ومودة. هكذا كانت البداية.

وتغير إيقاع آلة فتوقف عن الاسترسال فى أفكاره.

ولكن سرعان ما عاود التفكير من جديد. وتعجب من سرعة تلاحق الأحداث!. إنه لا يحمل لهؤلاء الذين ضربوه بوحشية أى

ضغينة دفينة أو عداء شديد. حقًا لقد أصيب بكدمات مؤلمة، ولكن أحس بنور يضيء روحه. عندئذ رأى بوضوح كامل مدى منطقية أن يكون مكروهًا من الآخرين. لقد تصرف معهم كأبله وأحمق. إن الترفع والعزلة ميزة للأقوياء أما الأرستقراطى الذى هوى نجمه، ولكنه لا يزال يتشبث بمكانته المتميزة التى أصبحت لا معنى لها، لهو أكثر مخلوقات هذا الكون الصخّاب جدارة بالشفقة والتعاطف. يا إلهى! ما الذى وجده فى هؤلاء الرجال وكان مدعاة لاحتقارهم والزراية بهم؟

يا له من أمر يثير الشفقة والرثاء والأسى. إذ لم يدرك تمامًا هذا على نحو أفضل خلال الساعات الخمس الماضية.

ترى ما الذى سوف يحدث فى نهاية نوبة العمل؟ ذلك ما لا يمكن تبينه ولا تخيله. فليس فى استطاعته أن يتصور ما يدور بمخيلة هؤلاء العمال. وكل ما يدركه منهم هو أعمالهم العدائية وافتقادهم التام لكل تعاطف وشفقة تجاه الآخرين. وتلاحقت عبر عقله صور ذهنية متتابعة تتضمن احتمالات غامضة عما يمكن أن يلقاه من صنوف الخزى والعار والعنف. هل بمقدوره أن يحصل على سلاح؟ واستدعى إلى ذهنه حادثة اعتدائه على المنوم المغنطيسى، ولكن أين هى تلك المصابيح المنفصلة التى اتخذها كسلاح للهجوم. ولم يجد حوله ما يمكن أن يصلح كسلاح.

وخطر له لحظيًا أن يستخدم - بمجرد انتهاء نوبة العمل - المزلاج الطويل الذى يستعمل فى استتباب الأمن بالطرقات العامة. ولكن هذه الفكرة سرعان ما تلاشت من ذهنه. وأدرك أنه عدا ذلك

الاعتبار قليل الأهمية المتعلق باحترام الشخص لذاته، فلن يؤدى ذلك إلا إلى تأجيل أحمق لمشاكله مما يزيدها تأزمًا. واستطاع أن يلمح شبح الرجل ذى وجه ابن مقرض والرجل الأمهق وهما يتهامسان ويتطلعان إليه بنظرهما. وما لبثا أن اتجها إلى الرجل القصير الأسمر الذى كان موليًا منكبيه العريضين لـ (دنتون)، متعمدًا.

وأخيرًا انتهت نوبة العمل الثانية، فأوقف موزع علب الزيت مكبسه بشكل مفاجىء واستدار ومسح فاه بظهر يده وكان يلوح فى عينيه ذلك الترقب الهادئ الذى يظهر على من يجلس فى مسرح. ولاحت الأزمة فى الأفق وبدا كما لو أن كل خلية عصبية فى جسم (دنتون) تقفز وتهتاج من فرط الانفعال. وكان قد صمم على أن يظهر استعداده للقتال، إذا ما تعرض من جديد لأية معاملة مهينة أو مذلة. فأوقف مكبسه ثم استدار وأخذ يقطع الغرفة ذات السقف المقوس وهو يبذل أقصى جهده للتظاهر بالهدوء، واتجه إلى الممر الذى تناثرت فيه حفر الرماد، عندئذ تذكر أنه ترك سترته التى اضطر إلى خلعها بسبب اشتداد الحرارة داخل الغرفة ذات السقف المقوس بجانب مكبسه ومن ثم عاد مرة أخرى. وإذا به يلتقى بالرجل الأمهق وجهًا لوجه.

وتنامى إليه حينئذ صوت الرجل ذى وجه ابن مقرض وهو يقول بقمة انفعاله:

"كان يجب عليه أن يأكلها".

فرد عليه الرجل القصير الأسمر قائلاً:

"كلا... دعه وشأنه".

وبدا واضحًا لـ (دنتون) أنه لن يحدث له شىء فى ذلك اليوم. فاتجه ناحية الممر والدرج المفضى إلى أرصفة المدينة المتحركة.

وخرج دنتون إلى الأضواء المتألقة النابضة بالحياة والتيار المستمر للحركة التى تميز الطرق العامة. وشعر بإحساس حاد مؤلم بوجهه المشوه الملىء بالرضوض والكدمات. وأخذ يتحسس كدماته المتورمة بدقة بيد متفحصة وضعيفة واستقل أسرع رصيف متحرك وجلس فوق أحد المقاعد المخصصة لشركة العمل.

واستغرق فى حالة من التفكير المتأمل، وتبدت له - بغاية الوضوح - الأخطار والضغوط الوشيكة. ماذا سوف يفعلون فى الغد؟ لم يكن يدرى. وماذا سيكون رأى (إليزابيث) فيما تعرض له من معاداة وحشية؟ لم يكن يدرى فقد كان منهكًا للغاية. ولم يمض إلا وقت قصير حتى أوقظ من أفكاره على إثر يد توضع فوق ذراعه.

ورفع بصره ليجد الرجل القصير الأسمر جالسًا إلى جواره، ففزع. إنه بالتأكيد آمن من العنف وهو بالطريق العام!

غير أن وجه الرجل القصير الأسمر لم يكن يظهر أى آثار تدل على مشاركته فى العراك، كما لم ينم عن أى عداء بل كشف عن الكثير من الاحترام لرغبات الآخرين. وقال الرجل فى لهجة تخلو تمامًا من الضراوة:

"أرجو المعذرة".

فأدرك (دنتون) أن محدثه لا يعتزم الاعتداء عليه. فتفرس فيه منتظرًا الخطوة التالية.

وبدا واضحًا أن الرجل كان قد فكر مسبقًا فى الجملة التى سوف يقولها:

"ما كنت.. أود.. أن.. أقوله.. هو..".. ثم أطرق فى صمت باحثًا عن كلمات إضافية.

وكرر قوله: "ما كنت.. أود.. أن.. أقوله.. هو..". وقرر الرجل فى نهاية الأمر أن يتخلى عن هذا المدخل لاستهلال المحادثة، فصاح وهو يضع يده المكسوة بالسخام على كم (دنتون) القذر:

"إنك بخير.. إنك بخير.. أنت رجل نبيل الأصل ومهذب.. آسف.. إننى غاية فى الأسف.. هذا ما وددت أن أقوله لك.. ".

وأدرك (دنتون) أنه لا بد من وجود دوافع وراء مجرد رغبة الرجل فى الاعتذار عما حدث. فأطرق مفكرًا ومتأملاً وقرر أن يكظم اعتداده بنفسه.

فقال للرجل:

"لم أقصد إهانتك عندما رفضت تناول قطعة الخبز التى قدمتها لى".

فقال الرجل وهو يتذكر أحداث ذلك العراك:

"صحيح أنك كنت ودودًا. ولكن هذا الوضيع (وايتى) وضحكته نصف المكبوتة دفعانى إلى توجيه اللكمات لك".

فقال (دنتون) بحماسة مفاجئة:

"نعم. لقد كنت أحمق".

رد عليه الرجل القصير الأسمر شاعرًا برضا كبير:

"أجل، هذا صحيح ولنتصافح!".

وصافح (دنتون) الرجل القصير.

عندئذ كان الرصيف المتحرك يندفع أمام مؤسسة لتجميل الوجوه، غطيت واجهتها السفلى بعدد هائل من المرايا التى صممت بحيث تحفز التوق الشديد الدفين لدى الإنسان لملامح وجه تتسم بالتناسق.

وهنا نظر (دنتون) إلى انعكاس صورته وصورة صديقه الجديد فى المرايا، وقد التوى وتضخم جسماهما بشكل هائل.

كان وجهه متورمًا منتفخًا ملطخًا بالدماء تشوه من ملامحه ابتسامة عريضة كاملة تعبر عن بلاهة وغباء. وكانت خصلة من شعره تخفى إحدى عينيه. أما الرجل القصير الأسمر فقد بدا من خلال هذه المرايا، بأوضاعها المتعمدة، وكأنه تضخم ممتد لشفته ومنخره[٤٠]. غير أن الرابطة بين الرجلين كانت متصلة بواسطة يديهما المتصافحتين.

وعلى حين بغتة، مر هذا المشهد، ليعودا إلى ذكرى إصلاح ذات البين بينهما، بينما الفجر يبزغ، كان الرجل القصير الأسمر يرتعد من فرط الانفعال، وقال بارتباك إنه كان على ثقة أنه يمكنه التعامل

---

(٤٠) واحدة من فتحتى الأنف (المترجم).

مع أى من السادة نبلاء الأصل لو أنه صادف واحدًا منهم. وأطال المصافحة باليد حتى إن (دنتون) لم يجد مفرًا - تحت تأثير انعكاس الصورة فى المرآة - من سحب يده. واستغرق الرجل القصير فى تفكير متأمل، وبعد أن بصق بصقًا متواصلاً لافتًا للانتباه فوق الرصيف، استطرد فى موضوع المناقشة قائلاً:

"كنت أود القول بأن.."، ولكنه توقف بعد أن شعر بالارتباك، وأطرق برأسه من جديد.

وثار فضول (دنتون) فقال وهو مصغ تمامًا له:

"أكمل حديثك".

حينئذ اندفع الرجل القصير الأسمر فى حديثه فقال وهو يمسك بإحكام بذراع (دنتون) حتى تصبح علاقتهما أكثر حميمية بهذا الوضع الجسمانى:

"أرجو المعذرة! الواقع أنك لا تعرف أصول الملاكمة ولا حتى كيف تبدأ.. إن لم تكن حريصًا فقد تقتل. يداك ينبغى أن تكونا بهذا الوضع!".

وكان الرجل القصير يعزز عباراته بالتوبيخ والتعنيف القاسى كما كان حريصًا على مراقبة وقع كل كلمة وتأثيرها فى نفس (دنتون)، بعين حذرة.

"مثلاً. أنت طويل القامة.. وذراعاك طويلتان. وبذلك يمكن أن تصيب بلكماتك أى شخص فى تلك الغرفة اللعينة ذات السقف المقوس. يا إله السماوات! لقد كنت أظن أننى سأجد رجلاً قويًا

مشاكسًا. وبدلاً من ذلك.. أرجو المعذرة. لم أكن لألاكمك لو أننى كنت أعرف حقيقة أمرك. كأننى كنت أقاتل أكياسًا ممتلئة. هذا أمر لا يليق. كانت ذراعاك وكأنهما معلقتان بخطافين. تمامًا كما لو كانتا معلقتين بخطافين!".

حدق فيه (دنتون) ثم تعجب من حديث الرجل، وفجأة انفجر ضاحكًا، مما أحدث ألمًا بذقنه المصاب، واغرورقت عيناه بدموع مريرة.

وقال:

"أكمل حديثك".

وأردف الرجل القصير الأسمر قائلاً إنه يشعر بإعجاب نحو (دنتون)، ولا ينكر أنه كان شجاعًا فى مواجهة الظروف، بيد أن الشجاعة لا تكفى وحدها بغير تدريب، وما أود قوله هو إن هناك شخصًا يدعى (ليم) - ولا يوجد غيره - بإمكانه تدريبه على فنون الملاكمة.

ولكن (دنتون) تردد وقال:

"ولكننى لا أملك مالاً أعطيه لك".

رد الرجل القصير الأسمر قائلاً:

"ها قد عدنا إلى الاعتداد بالنفس من جديد. ومن ذا الذى طلب منك مالاً؟".

"ولكن هل تضيع وقتك فيما لا يفيدك؟".

"سوف تلقى حتفك إذا لم تتقن فن الملاكمة، ألا تدرك ذلك؟".

وأطرق (دنتون) مفكرًا ومتأملاً للحظات ثم قال:

"لا أدرى..".

وأخذ (دنتون) يتأمل وجه رفيقه - الجالس بجانبه - خفية. وأحس بأن كل فظاظته ووضاعته الفطرية تنبثق من وجهه. واعتراه تقزز مفاجئ من هذه الصداقة الزائلة. وبدا له أنه أمر لا يصدق أن يكون مضطرًا إلى أن يدين بالفضل لمثل هذا المخلوق.

قال الرجل القصير الأسمر:

"هؤلاء العمال يتلاكمون دائمًا، وبالطبع عندما يكون هناك واحد ضعيف.. مثلك أنت..".

فصاح (دنتون) على الفور :

"يا إلهى! أتمنى أن أحدهم جرؤ على القيام بذلك".

"بالطبع.. إذا كنت تشعر بذلك".

"إنك لا تفهم".

"ربما كنت لا أفهم".

ثم خيم عليهما صمت مطبق.

وعندما تكلم مرة أخرى، لم يكن صوته ودودًا، ولكز (دنتون) كوسيلة لجذب انتباهه ثم قال:

"اسمع.. هل تسمح لى بأن أعلمك الملاكمة؟".

قال (دنتون):

"هذه لفتة كريمة للغاية منك".

ومضت فترة صمت قصيرة نهض بعدها الرجل القصير ثم انحنى على (دنتون) وقال:

"هذا لطف شديد منك.. لقد أحرجتنى.. يا إلهى! إنك.. إنك فى الواقع أبله غبى".

ثم استدار وأدرك (دنتون) لحظيًا مغزى كلماته.

وهبط الرجل القصير بوقار إلى مفترق طرق. ومكث (دنتون) فى مكانه على الرصيف وإن انتابته رغبة مفاجئة فى اللحاق به. ولكن رأسه كان مليئًا بالأحداث التى مرت به. ففى خلال يوم واحد دمر منهجه فى التسليم بشىء لا مفر منه، دون أى أمل فى الإصلاح. لقد تمكنت القوة الغريزية الوحشية البدائية، من أن تقحم وجهها القبيح عبر كل تفسيراته وتصوراته ومواساته، أخذت تبتسم ابتسامة عريضة غامضة.

وعلى الرغم مما كان يشعر به من جوع وإرهاق فإنه لم يشأ أن يتوجه على الفور إلى فندق شركة العمل حيث كان عليه أن يقابل (إليزابيث). وغرق فى خضم سحابة مروعة من الأفكار والتأملات. بينما كان يدور فى جولة حول المدينة فوق الأرصفة المتحركة مرتين. ويمكنك أن تتصوره وهو يخترق وسط المدينة ذات الأضواء المتألقة والأصوات الصاخبة بسرعة تبلغ خمسين ميلاً فى الساعة، وهى المدينة التى تقع فوق كوكب يدور بسرعة هائلة فى طريقه اللانهائى

عبر الفضاء بسرعة عشرات الألوف من الأميال فى الساعة. شعر (دنتون) بذعر مروع وهو يحاول أن يفهم كيف أن قلبه نابض وإرادته مفعمة بالحياة على الرغم من كل ما يقاسيه من عذاب.

وعندما التقى آخر الأمر بـ (إليزابيث)، كانت شاحبة الوجه ويبدو عليها القلق الشديد. وكانت فى حالة بالغة السوء، ولكنه لم يلحظ ذلك بسبب انشغال فكره واستغراق ذهنه. وكان أكثر ما يخشاه أن ترغب فى معرفة أدق تفاصيل ما أصابه من صنوف المهانة والذل فتشعر بالشفقة أو ربما بالحنق، إلا أنه لم يلحظ غير أنها رفعت حاجبيها لتعبر عن دهشتها، بمجرد أن رأته وهو يتنفس بصعوبة.

"تعرضت لبعض المتاعب، ولا تزال جروحى تنزف، ولا أنوى أن أسرد ما حدث لى".

جلس وهو يحس بكآبة لا مرد لها.

وحدقت فيه بدهشة بالغة، وابيضت شفتاها حين استطاعت أن تتبين وجهه المكدوم. وتقلصت يدها بتشنج والتى بدت أكثر نحافة عما كانت عليه أيام الرفاهية، كما تغير شكل إصبع سبابتها بعض الشىء نتيجة استخدامها لمثقب المعادن. قالت:

"تبًا لهذا العالم!".

ولم تضف كلمة واحدة.

واللافت أن هذين الزوجين قد آثرا الصمت المطبق فى هذه الأيام الأخيرة.

وفى تلك الليلة بالتحديد لم يتحادثا إلا بكلمات قليلة، إذ كان كل منهما يتابع أفكاره المتلاحقة فى مسار خاص. وبينما كانت (إليزابيث) تعانى من الأرق فى ساعات الصبح الأولى، نهض (دنتون) فجأة من جوارها بعد أن كان يرقد كجثة هامدة، وصاح عاليًا:

"لم أعد قادرًا على التحمل! ولن أستطيع تحمل المزيد".

وأبصرت (إليزابيث) ملامح جسمه فى العتمة وهو يستوى جالسًا، ثم شاهدت ذراعيه تندفعان إلى الأمام فى حركة مفاجئة كما لو كان يوجه ضربات مهتاجة لطيات الظلام. وبعد برهة انتابته حالة من السكون، ثم قال:

"هذا كثير للغاية أكثر ما يمكن لأى شخص أن يتحمله".

ولم تتفوه (إليزابيث) بكلمة واحدة، فقد استقر فى وجدانها أيضًا أن هذا أقصى ما يمكن أن يتعرضا له. وخيمت عليهما فترة صمت طويلة، تراءت خلالها لـ (إليزابيث) هيئة (دنتون) وهو يحيط ركبتيه بذراعيه وذقنه تكاد تلامسهم.

ثم سمعته يضحك.

وقال فى نهاية الأمر:

"لا.. سوف أتحمل كل ما يحدث لى، سوف أقاوم. إن الأمر العجيب حقًا أننا لا نحمل فى أعماقنا ذرة من رغبة فى الانتحار... مجرد ذرة واحدة. وأعتقد أن كل من كانوا يسيرون على هذا الدرب، قد ذهبوا وانقضى عددهم. أما نحن فسوف نتخذ طريقنا - برغم كل شىء - حتى النهاية".

وانتابت (إليزابيث) أفكار كئيبة ومتشائمة إذ أدركت هى أيضًا صدق ما يقول.

"سوف نكافح لنستمر فى ممارسة حياتنا. ولنأخذ عبرة للذين عاشوا من قبلنا خلال مثل هذه المحن، فى كل الأجيال.. لا متناهية.. لا متناهية، تلك المخلوقات الصغيرة التى لا تفتأ تتجمع وتتفرق وتلتقى وتتشتت جيلاً بعد آخر".

وتوقف (دنتون) عن هذا الاطراد الرتيب على وتيرة واحدة، ومضت فترة صمت طويلة، قبل أن يستطرد حديثه قائلاً:

"لقد استمر العصر الحجرى تسعين ألف سنة. ولا بد أن شخصًا قريب الشبه من (دنتون) قد ظهر خلال كل هذه السنين. هذا هو التعاقب الرسولى[٤١]. وهذه هى النعمة الإلهية لمواصلة الحياة. دعينى أقوم ببعض الحسابات عن هذه الحياة تسعون - تسعمائة - ثلاث تسعات وسبعة وعشرون - ثلاثة آلاف جيل من البشر! - كانوا بشرًا إلى حد ما. كل منهم حارب وجرح وشعر بالخزى والعار ولكنه صمد فى كل مواجهاته وشق طريقه خلالها وتجاوزها وسلم قيادتها إلى آخرين... وربما جاءت آلاف أخرى... آلاف!".

وسوف يتسلمون قيادتها. إنى أتساءل: هل سيعترفون بفضلنا عليهم؟ ثم أصبح صوته جدلى النزعة. آه لو كان بمقدور الإنسان أن يجد ركيزة يستند إليها، ... آه لو استطاع أن يقول مؤكدًا:

---

(٤١) الحواريون الإثنا عشر للسيد المسيح (المترجم).

"هذا هو السبب، الذى يدفع الحياة للاستمرار".

ثم جلس فى سكون. وتمكنت عينا (إليزابيث) فى بطء شديد أن تمايز شكله وسط طيات الظلام، وفى النهاية، استطاعت أن ترى كيف أنه يجلس ورأسه مستندة على يده. فاستبد بها شعور مروع بالعزلة بين عقليهما وتعجبت من عدم توافق أخطارهما كما كان يحدث فى الماضى. ما الذى يفكر فيه الآن؟. وما الذى سوف يخفيه عنها فى المستقبل؟ ومضى زمن طويل وكأنه دهر بأكمله قبل أن يتنهد ويهمس قائلاً:

"كلا... إننى لا أفهم هذا.. على الإطلاق!".

ومضت فترة زمنية طويلة قبل أن يكرر ما قاله، ولو أن نبرة صوته فى هذه المرة الثانية كانت وكأنما اهتدى إلى الحل.

واتضح لـ (إليزابيث) أنه يتهيأ فعلاً للنوم، فأخذت تنصت إلى حركاته، ودهشت عندما رأته يعدل من وضع وسادته ابتغاء للراحة، وصدرت عنه أثناء رقاده آهة تكاد أن تعبر عن قناعة ورضا، فقد تبدد حنقه، إذ كان يرقد ساكنًا وما لبث أن انتظم تنفسه واستغرق فى نوم عميق.

ولكن (إليزابيث) لم يغمض لها جفن بل ظلت تحملق فى الظلمة حتى أبلغها ضجيج رنين الجرس وتألق الضوء الكهربائى المفاجئ أن شركة العمل تطلبهما للعمل ليوم جديد.

وفى هذا اليوم، تشاجر (دنتون) مع (وايتى) الأمهق والرجل الضئيل ذى وجه ابن مقرض. ولم ينقذه منهما سوى تدخل (بلنت)

مدرب الملاكمة الأسمر الذى رأى أن يعطى الفرصة أولاً لـ (دنتون) لكى يلم بالمبادئ الأولى مظهرًا شيئًا من الحماية والرعاية وأطلق بصوته الفظ غير المهذب سيلاً من الإهانات ثم قال:

"ألا ترى أنه لا يحسن الملاكمة". وأدرك (دنتون) وهو لا يزال طريح الأرض على التراب بصورة مخزية أن عليه أن أن يطيع تعليمات (بلنت) إذا أراد تعلم فن الملاكمة.

ورأى أن يقوم من فوره بالاعتذار له بنزاهة وإنصاف، فنهض ببطء وذهب إلى (بلنت) قائلاً:

"كان ذلك جهلاً منى وكنت أنت محقًا. فإذا لم يكن قد سبق السيف العذل...".

وعندما أقبل الليل بعد انتهاء نوبة العمل الثانية اتجه (دنتون) برفقة (بلنت) إلى بعض السراديب المقوسة والملوثة بالمواد اللزجة الخربة الموجودة تحت مرفأ لندن، ليتلقى أول درس له فى مبادىء فن الملاكمة الراقى، الذى بلغ الكمال فى العالم السفلى الشاسع. كيف يمكنك أن تسدد ضربات وركلات مؤلمة للغاية لشخص ما، أو أن تصيبه بحالة من الإعياء الشديد وأن يكون ضربك وركلك موجهًا إلى أكثر النقط الحساسة فى جسمه، أو أن تستخدم قطع الزجاج التى تزين ملابسك كهراوات حادة تهاجم بها خصمك أو أن تستخدم أدوات عادية مألوفة متباينة كالتى تستخدم فى منزلك لإراقة الدماء، أو كيف تتوقع وتواجه كل خطط خصمك وتتغلب عليها. وعليك أن تتعلم استخدام تلك الأدوات المفيدة التى نشأت بين المحرومين من الحقوق الطبيعية والإنسانية فى المدن العظمى

خلال القرنين العشرين والواحد والعشرين، وانتشرت فى الوقت الحاضر على يد ذلك المدرب الفريد (بلنت). وكان هذا المدرب يشعر بشىء من الحياء بخصوص (دنتون) إلا أنه سرعان ما تخلص تمامًا من هذا الشعور كلما تتابعت الدروس بل وأحس برفعة الخبير وتقدير المربى، وكان (بلنت) يعامل (دنتون) باحترام وتوقير بالغين، وإن لم يمنعه ذلك من القسوة عليه بين الحين والآخر، حتى يبقى حماسه متقدًا، بل لقد كان يقهقه بصوت عال معبرًا عن سروره، عندما تتاح الفرصة لـ (دنتون) لكى يسدد إليه ضربة موفقة تغطى فمه بالدماء المتدفقة.

وكان (بلنت) يعترف بنقطة ضعفه ويقول:

"إننى دائمًا أهمل فى حماية فمى. ولا يهمنى أن أضرب فى فمى. طالما أن فكى يظل غير مصاب. إن تذوقى للدم يزيد حماسى دائمًا. ولنكتفِ بهذا القدر من التدريب الآن".

وعاد (دنتون) إلى فندق شركة العمل واستغرق فى النوم من فوره، وهو يشعر بإرهاق مضنٍ، غير أنه هب من نومه فى ساعات الصبح الأولى وقد شعر بآلام مبرحة فى كل أطرافه ووخز موجع فى مواضع الكدمات من جسمه، وحدث نفسه قائلاً: "هل هناك ما يدعو لأن يستمر فى الحياة؟". وأخذ ينصت إلى أنفاس (إليزابيث) وهى مستغرقة فى النوم، وتذكر أنه قد أيقظها فى الليلة السابقة فنام فى سكون تام. لقد كان يشعر باشمئزاز غير محدود إزاء تلك الظروف الجديدة التى أصبحت تواجهه فى حياته. كان يمقتها كلها، بل كان كارهًا لذلك البدائى اللطيف الذى وفر له الحماية، ووضح

له مدى بشاعة هذه الحضارة التى يحياها وخداعها المروع الذى يتبدى أمام عينيه صريحًا وأدرك أنها فى ازدياد جنونى هائل، منتجة فى أسفلها تيارًا عميقًا جارفًا من الهمجية وفى أعلاه غشاوة ضعيفة من مظاهر الرقة الزائفة والضياع المدمر. ولم يكن يرى سببًا جوهريًا، ولا لمسة من كرامة، لا فى الحياة التى عاشها من قبل، أو تلك التى تدنى فيها. وتمثلت له الحضارة كنتيجة تخلفت عن كارثة طبيعية ذات تأثير بسيط على الإنسان إلا باعتباره أحد ضحاياها، وهى لا تختلف فى ذلك عن إعصار حلزونى مدمر أو اصطدام كوكبى. وأدرك أن حياته، ومن ثم حياة البشر جميعًا لا جدوى منها.

وأخذ يفكر فى مخرج ملائم، إن لم يكن من أجله، فمن أجل (إليزابيث) بيد أنه - فى واقع الأمر - لم يكن يهتم إلا بخلاص نفسه. ماذا لو فتش عن (موارس) والد (إليزابيث) وذهب إليه وأبلغه بقصة المحنة التى ألمت به ؟ وانتابته الدهشة أن يكون (موارس) و(بندون) قد خرجا تمامًا من دائرة حياته بهذا الشكل. أين هما الآن؟ وماذا يفعلان؟ وانتقل بعد ذلك إلى أفكار تنطوى على الكثير من الخزى والذل والعار. وفى النهاية، وإن لم يستطع التخلص تمامًا من الاضطراب العقلى الذى أحدثته أفكاره، فقد أنهاه كما ينهى بزوغ الفجر الليل الطويل، إذ أقر النتيجة الواضحة التى توصل إليها فى الليلة السابقة، وهى الاقتناع بأن عليه أن يشق طريقه فى دروب الحياة حتى النهاية، وأن عليه أن يصمد ويقاتل بين رفقائه ويبدو بينهم رجلاً مثلهم.

وبدا له الدرس الثانى الذى كان موعده فى الليلة التالية أقل رهبة من الدرس الأول، أما الدرس الثالث فكان محتملاً إلى حد بعيد، حتى إن (بلنت) أثنى على أداء (دنتون). وفى الليلة الرابعة تأكد (دنتون) أن ذلك الرجل ذا وجه ابن مقرض كان جبانًا وقضى على هذا النحو أسبوعين وهو فى حالة من الكبت والكتمان فى النهار ويتلقى التدريب الشاق فى الليل. وأكد له (بلنت) ـ بعد سلسلة من الشتائم واللعنات ـ بأنه لم يصادف فى حياته متدربًا أشد ذكاء وكفاءة مثل (دنتون). وكان (دنتون) يقضى لياليه يحلم بضربات وركلات يوجهها ويتلقاها ولكمات فى العيون وحيل وخدع، ذلك لأنه طوال هذه المدة، لم يحاول أحد الاعتداء عليه خوفًا من بطش (بلنت). ثم جاءت الأزمة الثانية من رفقائه إذ انقطع (بلنت) عن العمل متعمدًا ذات يوم، كما اعترف بذلك فيما بعد. وظل (وايتى) ينتظر موعد الراحة بين نوبتى العمل بصبر نافد، وكانت ساعات النهار تمر عليه شديدة البطء. ولم يكن يعلم بتدريبات الملاكمة التى كان يتلقاها (دنتون)، وراح يسرد ـ إجمالاً ـ على مسامع (دنتون) وعمال الغرفة المقوسة الوقائع البغيضة التى يخطط لها.

ولم يكن (وايتى) محبوبًا من قبل الجميع وساء باقى العمال عدم رغبته الجادة فى الصدام مع (دنتون) . غير أن نظرتهم إلى الموقف تبدلت تمامًا عندما حاول (وايتى) أن يبدأ العراك بركلة فى وجه (دنتون) الذى تجنبها بانحناءة بارعة ورائعة ثم أمسك بساق (وايتى) وقذف بها فى الهواء وهكذا قدمه أتمت حركة فى مسارها الدائرى.

وألقت برأس (وايتى) فى كومة الرماد التى استقرت فيها من قبل رأس (دنتون)، نهض (وايتى) شاحب الوجه إلى حد ما، وأخذ يسب ويلعن. وقد أصيب بكدمات مؤلمة. وحاول من جديد أن يكيل الضربات الخادعة لـ (دنتون) إلا أن محاولاته باءت بالفشل، مما زاد من تنامى حيرته وارتباكه وأخيرًا أطبق (دنتون) على عنق (وايتى) وضغط بركبته على صدره، فأخذ (وايتى) وهو دامع العينين وممتقع الوجه ولسانه متدلٍ وإصبعه مكسور، يصيح بصوت أجش ليفسر سوء التفاهم بينهما.

وكان واضحًا بين جمهور المشاهدين، أنه لم يحدث من قبل أن حظى شخص بكل هذه الشعبية مثل (دنتون).

أما (دنتون) فقد أطلق سراح خصمه ووقف بعدما أخذ حذره. وبدا له وكأن دماءه تحولت إلى نوع من النيران السائلة، وشعر بأطرافه خفيفة وأنها قوية بشكل غير طبيعى، وما لبثت أن تلاشت من ذهنه الفكرة بأنه مجرد ضحية فى آلة المدنية، فقد أصبح رجلاً فى عالم الرجال.

وكان الرجل الضئيل ذو وجه ابن مقرض أول من بادر من العمال لتهنئته بأن ربت على ظهره. وتهلل وجه الرجل الذى يقرض علب الزيت وقدم لـ (دنتون) تهنئة رقيقة، ودهش (دنتون) من أنه كان يائسًا يومًا ما. وأصبح (دنتون) مقتنعًا أنه لم يعد من واجبه أن ينساب مع تيار الحياة بل إنه لقادر على أن يشق طريقه خلالها أيضًا. ومن ثم راح يشرح لـ (إليزابيث) وهو جالس فوق فراشه ـ

الضيق القاسى المصنوع من الكنفا - تصوراته الجديدة هذه، بينما كانت الكدمات تغطى جانب وجهه. أما (إليزابيث) فلم تكن هى التى دخلت معركة حديثة، ولم يريت أحد على ظهرها لإظهار التهنئة، كما لم تكن ثمة كدمات حمراء على وجهها، بل كان وجهها شاحبًا بشكل غير طبيعى مع وجود بعض التجاعيد حول فمها. لقد كانت تقوم بدور المرأة فقط. وظلت تحدق بثبات فى وجه (دنتون) بينما كان يعبر عن تفكيره الاستنتاجى بخصوص تنبؤاته المستقبلية.

قال: "أشعر كما لو أن شيئًا ما ينساب إلى الأمام، امتدادًا لجوهر الحياة التى نعيشها ونتحرك خلالها وفيها كينونتنا، شيئًا بدأ منذ خمسين أو مائة مليون سنة مضت، ولا يزال ينمو وينتشر إلى أشياء وراء نطاقنا، أشياء جديرة بأن تبرر وجودنا برمته. سوف تفسر قتالى وتبرره، إن فى هذه الكدمات وذاك الألم المبرح الذى أشعر به، إنها من فعل أزميل الخالق جل شأنه. كم كان بودى أن أجعلك تشعرين بذلك الإحساس الذى أحس به، آه لو كان فى استطاعتى هذا! ولكنك سوف تدركين الأمر يا عزيزتى، أجل أعرف أنك ستدركين".

فقالت (إليزابيث) بصوت هامس:

"لا.. لن أدرك هذا الأمر أبدًا".

"لقد تصورت أن يكون هذا شعورك...".

فهزت رأسها قائلة:

"لقد أمعنت التفكير فى هذا الأمر كما فكرت فيه أنت أيضًا. إن ما تقوله لم يقنعنى".

ثم حدجت وجهه بنظرة موطدة العزم واستطردت تقول بقمة انفعالها:

"إننى لأمقت هذه الحياة.. إنك لا تفهم ما أعنيه إذ لم تفكر على هذا النحو .. مضى زمن كنت تقول لى أشياء وكنت أصدقها. ولكنى قد أصبحت على قدر أكبر من التبصر والحكمة. أنت رجل.. فى مقدورك أن تقاتل وتكافح وتشق طريقك فى الحياة بالقوة.. غير عابئ بالكدمات والرضوض. ويمكنك أن تصبح قاسيًا وفظًا ، ولكنك مازلت رجلاً، بل إن ذلك هو عنوان رجولتك وقوتك. أنت محق فى هذا. ولكن المرأة ليست كذلك، فقد سمحنا لأنفسنا أن نكون متمدنين خلال وقت قصير للغاية. فهذا العالم السفلى لا يلائمنا أبدًا".

وتوقفت (إليزابيث) عن حديثها لهنيهة ثم أردفت تقول:

"إننى أكره رداء الكنفا الخشن البغيض الذى أرغم على ارتدائه! أكرهه أكثر من كراهيتى لأية مصيبة يمكن أن تحدث لى. إنه يؤذى أصابعى عندما ألمسه ويضر ببشرتى وناهيك عن النساء اللائى أشاركهن العمل، يومًا بعد يوم، لشد ما يؤرقنى فى كل الليالى أن أفكر فيما لو أصبحت مثل واحدة منهن!".

وصمتت برهة ثم صاحت بانفعال:

"سوف أصبح مثلهن دون شك".

وأخذ (دنتون) يحدق فيها متعجبًا لما بدا عليها من معاناة. قال:

"ولكن..".

ثم توقف ولم يضف كلمة واحدة.

قالت:

"أنت لا تفهم.. من الذى يمكنه أن يخلصنى من هذه المحنة؟ فى مقدورك أنت أن تجاهد وتكافح فهذا من بين أعمال الرجال.. ولكن النساء مختلفات. لقد فكرت فى ذلك طويلاً، وما كنت أملك غير إعمال الفكر ليل نهار دون أن أفعل أى شىء آخر. انظر إلى لون بشرة وجهى، لم أعد أستطيع الاستمرار فى هذه الحياة.. لم أعد قادرة على تحمل هذه الحياة".

وتوقفت وقد ظهرت عليها علامات التردد ثم قالت فجأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة مريرة:

"لقد طلب إلى أن أتركك".

"تتركيننى؟".

ولم تجبه ولكنها حركت رأسها بالإيجاب.

فانتصب (دنتون) واقفًا على نحو مفاجئ. وراحا يحدجان بعضهما بعيونهما وقد خيم عليهما صمت طويل واستدارت بغتة واستلقت فوق فراشها الخشن، ووجهها إلى أسفل ولم تذرف الدموع بل ظلت هادئة، وبعد فترة صمت طويلة مؤلمة، اهتز كتفاها وأخذت تجهش بالبكاء فى صمت.

وهمس (دنتون):

"(إليزابيث)!.. (إليزابيث)!".

ثم جلس إلى جانبها على الفراش فى هدوء بالغ، وانحنى وطوقها بذراعه وربت على كتفيها فى ملاطفة تحببية مترددة، ومحاولاً - دون جدوى - أن يجد دليلاً لحل هذا الموقف الذى لا يحتمل وهمس فى أذنها:

"(إليزابيث)".

فدفعته بعيدًا عنها بيديها قائلة:

"لا يمكننى أن أحمل منك طفلاً ليصبح عبدًا".

ثم انفجرت باكية بمرارة وبصوت عال.

وتغيرت ملامح وجه (دنتون) على نحو مفاجئ، مظهرًا شعورًا ممضًا بالجزع والانزعاج وسرعان ما تحرك خلسة من الفراش ووقف على قدميه، وقد تلاشت من وجهه كل دلائل الشعور بالرضا الذاتى، واستبدلت بنوبة غضب عارمة. ثم أخذ يهذى ويهدر بلعن تلك القوى المروعة التى تطبق عليه وتعاديه، وتلك الأحداث والرغبات المثيرة وصنوف التهور التى تخيب الآمال فى حياة الإنسان. وارتفع صوته فى أرجاء الغرفة الصغيرة، وأخذ يلوح بقبضة يده المرتعدة، ذلك الكائن الحى الدقيق من مخلوقات الأرض، أخذ يلعن كل شىء يحيط به، وكل تلك الملايين من البشر الذين يطوقونه من جميع الجهات، وماضيه ومستقبله وكل ذلك الاتساع المروع لمدينته الساحقة.

٥ - (بندون) يتدخل

كان (بندون) - فى شبابه - قد ضارب فى سوق الأوراق المالية، واستطاع أن يحقق أرباحًا فى ثلاث صفقات. وخلال الفترة التالية من حياته، رأى أنه من الحكمة أن يتخلى عن مثل هذه المخاطرات بالمال، وأن يتوقف عن اعتقاده فى نفسه، بأنه رجل حاد الذكاء للغاية. وانتابته رغبة فى أن يحقق شيئًا من النفوذ والاحترام والتقدير، ومن ثم لجأ إلى ممارسة الأعمال التجارية التى تحظى بالاهتمام، فى هذه المدينة الهائلة، حيث تمكن من تحقيق أرباح فى ثلاث صفقات. وأصبح فى نهاية الأمر، أحد أكبر المساهمين نفوذًا فى الشركة التى تمتلك منصات الطيران فى (لندن)، حيث تهبط الطائرات القادمة من كل أنحاء العالم. هذا عن نشاطات (بندون) العامة. أما عن حياته الشخصية فقد كان رجلاً منغمسًا فى المتع والملذات، وهذه هى قصة حبه.

ولكن قبل أن نغوص إلى هذا الحد فى أعماق حياته، دعنا نكرس بعض الوقت لنصف المظهر الخارجى لهذا الشخص، فقد كان نحيف الجسم، قصير القامة، أسمر البشرة، وكانت ملامح وجهه الدقيقة مزينة بالمساحيق الملونة، ترتسم عليها أحاسيس مختلفة ما بين عدم الاطمئنان، والشعور بالرضا الذاتى، شعور بالتوتر الذى يتضمن شيئًا من الذكاء. وقد أزيل كل الشعر الموجود فى رأسه ووجهه، وذلك وفقًا للعادة السائدة فى ذلك الوقت، تحقيقًا لمقتضيات النظافة والصحة، ومن ثم كان يحرص

أن تتناغم صبغة شعره المستعار وشكله، مع الملابس التى يرتديها. وكانت هذه الملابس دائمة التغير.

وأحيانًا كان يود أن يبدو فى هيئة ضخمة، ومن ثم كان يرتدى ملابس يمكنه نفخها بالهواء، ذات ألوان مبهرجة ومزينة بالعروق. وكان يؤثر أحدث تطورات الموجة العارمة للموضة، تحت غطاء للرأس نصف شفاف ومزخرف، وكانت عيناه تبحثان عن مظاهر الاحترام التى يسبغها عليه هؤلاء الذين لم يواكبوا أحدث خطوط الموضة.

وفى أوقات أخرى كان يحرص أن يؤكد رشاقة قوامه وأناقته، ومن ثم كان يرتدى حللاً تنطبق على جسمه من "الساتان"(٤٢) الأسود. وحينما يرغب فى إضفاء وجاهة على نفسه، فإنه يرتدى رداء له أكتاف عريضة منفوخة، ويعلق بها ثوبًا يتميز بطيات مرتبة بعناية من الحرير الصينى، ولم يكن ظهور (بندون) بأردية وردية اللون رفيعة المستوى تلتصق بجسمه، إلا أمرًا عارضًا وليس مألوفًا.

وفى الأيام التى كان يأمل فيها أن يتزوج (إليزابيث)، كان يسعى إلى إثارة إعجابها وأسر فؤادها، وفى نفس الوقت، يزيح عن كاهله بعضًا من سنى عمره الأربعين التى تثقل عليه، وذلك بارتداء أحدث إبداعات ومبتكرات مصممى الأزياء، وهو رداء من مادة مرنة، بها نتوءات بارزة وقرون مجوفة قابلة للنفخ، وتتغير ألوانها كلما تحرك، وذلك بفعل ترتيب بارع لخلايا لونية تبدل ألوانها.

---

(٤٢) نسيج ناعم كالحرير بوجه لامع وظهر باهت (المترجم).

ولا ريب أن مثل تلك الأناقة المفرطة التى تطابق الموضة الحديثة، كانت سوف تخلب لب (إليزابيث) وتبهرها، لو لم تكن قد ارتبطت بالفعل بـ (دنتون) ذلك الشخص الذى لا قيمة له، أو لم يكن ذوقها ينتمى إلى العصور القديمة المتخلفة.

وكان (بندون) قد استشار والد (إليزابيث)، قبل أن يتقدم إليها مرتديًا تلك الحلة - إذ كان من بين هؤلاء الناس الذين يؤثرون أخذ نصيحة الآخرين فيما يرتدون - وعبر (موارس) عن رأيه بوضوح، بأن (بندون) كان مثالاً للرجل الأنيق الذى تتمناه أى امرأة، بيد أن تجربة المنوم المغنطيسى، أثبتت له أن معرفته بقلب المرأة، غير كاملة.

وكانت فكرة الزواج قد تشكلت فى ذهن (بندون) قبل وقت قصير من الزج بـ (إليزابيث) - التى كانت تنمو إلى مرحلة الأنوثة - فى طريقه. ولقد كان من أكثر أسرار (بندون) الدفينة، هو أن لديه قدرة بالغة على الحياة فى نقاء وبساطة تتخللها أعمق مشاعر الحنان والعاطفة.

ومن ثم فإن هذه الفكرة التى راودته، أضافت شيئًا من الجدية، على تلك التجاوزات غير المتوافقة مع الحس أو الوعى الأخلاقى والمؤذية للشعور، والتى كان يمارسها اعتقادًا منه بأنها مجرد هفوات لآثام عابرة.

والأمر الغريب، أن بعض الناس الصالحين كانوا على هذا الرأى. وكان من نتيجة تلك التجاوزات الأخلاقية - وربما لأسباب وراثية أيضًا - أن أصيب كبده بمرض خطير، وأصبح يعانى من آلام مبرحة

أثناء سفره بالطائرة. وخطر بباله أثناء فترة نقاهته من أزمة صحية، أنه على الرغم مما فى الرذيلة من سحر لا يقاوم فإنه وجد فتاة جميلة ورقيقة وصالحة، ليست مفرطة فى الثقافة، بيد أنها على استعداد لأن تهبه حياتها. ولعل هذا هو سبيله إلى حياة الصلاح وأن يكون فى كنف أسرة فاضلة تكون مصدر سلوان وعزاء فى سنوات شيخوخته. ولكنه ـ مثل العديد من الرجال ذوى الخبرة فى الحياة ـ كان يرتاب فى وجود المرأة الفاضلة. فما سمعه من الآخرين، أن المرأة الصالحة، تثير الشك فى مظهرها الخارجى والخشية فى نفوس الآخرين.

وتصور عندما قدمه (موارس) الطموح إلى ابنته (إليزابيث)، أن سعادته قد اكتملت. وقد وقع فى حبها على الفور، وبالطبع، أن (بندون) كان دِائمًا يقع فى الحب، منذ أن كان فى السادسة عشرة من عمره، طبقًا للأساليب والطرق بالغة التباين، التى زخرت بها صنوف الأدب عبر قرون عديدة. بيد أن حبه لـ (إليزابيث) أمر يختلف، إذ شعر بأنه حب حقيقى، كفيل بأن يستدعى كل جوانب الصلاح والفضيلة، التى تعتمل فى نفسه، وأحس بأنه من أجلها، سوف يهجر ذلك الأسلوب من الحياة الذى سبب له بالفعل هذه التغيرات المرضية فى أنسجة كبده وجهازه العصبى.

وتراءت فى مخيلته صور ذهنية، لحياة تائب عرف طريق الصلاح. وقرر ألا يكون مفرطًا فى عاطفته ولا أحمق معها، بل عليه أن يصير ـ إلى حد ما ـ شاكًا فى طيبة الدوافع البشرية وقاسيًا، كما كان فى الماضى.

ومع هذا فقد كان على يقين بأنها سرعان ما تكتشف ـ بديهيًا ـ مدى عظمته الحقيقية وصلاحه. وعندما يأتى الوقت المناسب، فإنه سوف يعترف لها بكل ماضيه الآثم، ويصب فى أذنيها المذهولتين الجميلتين للغاية، واللتين سوف تصغيان إليه بكل تعاطف واهتمام، ما يتصوره شرورًا وآثامًا اقترفها، وأنه خليط من العباقرة مثل جوته وبنفينوتو سلليني وشيللى وغيرهم. ولكنه لن يبدأ فى هذا كله، إلا بعد أن يكون قد تودد إليها وغازلها، بكل رقة ولطف واحترام.

أما عن ذلك التحفظ الذى عاملته به (إليزابيث)، فإنه لا يعدو أن يكون تواضعًا محببًا للنفس يتلامس معه ويعززه، افتقارًا إلى الأفكار والتأملات الناضجة.

ولم يكن (بندون) يعرف شيئًا عن عواطفها الضالة التى تحيد عن السبيل السوى، ولا عن محاولة (موارس) والدها، للانتفاع من التنويم المغنطيسى، فى تقويم الانحراف فى قلبها. وكان (بندون) مقتنعًا بأنه على علاقة وثيقة للغاية مع (إليزابيث)، خاصة عندما قبلت منه عدة هدايا من مختلف المجوهرات ومستحضرات التجميل الثمينة، ولكن هروبها مع (دنتون) بقصد الزواج، جعل الدنيا تميد تحت قدميه. وكان أول انطباع لديه، هو أن يثأر لكرامته الجريحة، ولأن (موارس) كان أكثر الأشخاص ملاءمة، ليصب عليه جام غضبه. فقد ذهب إلى الوالد الحزين فى الحال، ووجه إليه العديد من السباب والإهانات، ثم قضى يومه وهو يطوف فى كل أرجاء المدينة بنشاط وحماس، يقابل أشخاصًا عديدين، ويبلغهم بما حدث من (موارس) ذلك الرجل الذى يريد أن يجعل من زواج ابنته سلعة

تباع وتشترى، وقد حققت هذه الحملة - التى كان الهدف منها تشويه سمعة (موارس) - بعض النجاح.

وكان من أثر تلك الأنشطة الفعالة، أن شعر (بندون) بابتهاج مؤقت، فذهب إلى المطعم، الذى كان يتخلف إليه أيام تهوره وطيشه، وتناول الطعام - فى مرح وحبور - مع شابين آخرين رائعين فى أوائل العقد الرابع من عمرهما، وقرر أن يضرب عرض الحائط بكل ما خطط له من قبل، إذ ليس ثمة امرأة تستحق أن يخلص لها الإنسان، وأخذ يتحدث بأسلوب ساخر مرح، مما أدهش صديقيه بل وتعجب منه هو أيضًا.

وألمح أحد الشابين - وقد لعبت الخمر برأسه - مازحًا إلى فشل (بندون) فى حبه، لكن فى هذا الوقت لم يبدُ الأمر بغيضًا. وفى صباح اليوم التالى، شعر بأن كبده وأعصابه فى حالة سيئة. فركل جهازه الحاكى بقدمه فتحطم إلى قطع متناثرة، وتشاجر مع خادمه الخاص وطرده، وصمم على أن ينتقم من (إليزابيث) أو (دنتون) انتقامًا رهيبًا أو أى شخص آخر. ولكن - على أية حال - فإنه ينبغى أن يكون هذا الانتقام مروعًا، وذلك الصديق الذى سخر منه، يجب ألا يراه فى صورة الضحية لفتاة حمقاء.

وكان (بندون) يعلم بعض الشىء عن تلك الثروة الصغيرة المستحقة لـ (إليزابيث) وأنها ستكون مصدر الرزق الوحيد للزوجين الشابين، إلى أن يصبح (موارس) أكثر رقة وتعاطفًا وتسامحًا، أما إذا لم يحدث هذا، أو تظهر بعض الأمور التى لا تبشر بالخير - فى هذه العلاقة الاجتماعية التى تتوقع (إليزابيث) نجاحها - فإنهما سوف

يواجهان أيامًا عصيبة، تكفى لتعرضهما لغوايات شريرة ومنذرة بالسوء. وأطلق (بندون) لخياله العنان فى رسم تلك الصور الذهنية عن الغوايات المتوقعة، بعد أن تخلى عن خيالاته المثالية المثيرة للإحساس العاطفى والفكرى. وتصور نفسه كشخص ثرى، قوى، عنيد، لا يعرف الصفح، مشوش الفكر، مرتبك، يلاحق فتاته التى احتقرته. وبغتة، جاءت صورتها فى ذهنه، مفعمة بالحيوية ونابضة بالحياة، ومسيطرة على أفكاره، ولأول مرة فى حياته، أدرك (بندون) طرفًا من تلك القوة الحقيقية، لعاطفة الحب الرائعة. وتنحى خياله جانبًا، كما يفعل الساعى الجدير بالاحترام، بعد أن أدى واجبه فى مرافقة العاطفة وخلجات الوجدان، إلى مكانهما اللائق.

صاح (بندون): "يا إلهى! سوف تكون لى! حتى لو قتلت نفسى من أجل ذلك! أما عن هذا الشخص الآخر...!".

وبعد مقابلة مع طبيبه الخاص، أعطاه بعض العقاقير ذات الطعم اللاذع والكريه، وكأنها تكفير لما اقترفه بالأمس من تجاوزات وآثام. وعندما أصبح هادئ الروع ولطيفًا ـ ولكنه ما زال عاقد العزم ـ ذهب إلى منزل (موارس). وهناك وجده فى حالة نفسية بالغة السوء، مسلوب القوة والنشاط الطبيعى، خانعًا، محبطًا من الحياة كلها، ولم تبق له سوى غريزة البقاء الذاتى، مستعدًا أن يبيع نفسه جسدًا وروحًا، وكل ما يتعلق بابنته العاصية المتمردة، من أجل استعادة هيبته المفقودة فى هذا العالم.

وجرت مناقشة منطقية عقلانية، اتفق فيها (بندون) و(موارس) على ترك هذين الشابين الضالين، إلى أن يغرقا فى غياهب المحنة،

وربما يمكن لـ (بندون) ـ بما له من سلطة ونفوذ ومال ـ المساعدة فى تأديبهما وتلقينهما درسًا لن ينسياه أبدًا.

قال (موارس): "وما الذى يحدث بعد هذا؟".

رد (بندون) قائلاً: "سوف يلجآن إلى شركة العمل، ويرتديان زى الكنفا الأزرق".

"وبعد ذلك؟".

قال (بندون): "سوف تطلب الطلاق منه".

وجلس لفترة قصيرة مستغرقًا فى التفكير والتأمل وموطدًا العزم على تحقيق هذا الهدف. إذ إنه فى ذلك العصر، خفت إلى حد كبير حدة قيود الطلاق الصارمة، التى سادت فى العصر الفكتورى، وأصبح بإمكان الأزواج الانفصال لعدد كبير من الأسباب المتباينة.

وفجأة انتصب (بندون) واقفًا، مما أثار دهشة (موارس) بل ودهشته هو شخصيًا، ثم صاح: "يجب أن تطلقه! هذه هى رغبتى!.

وسأبذل قصارى جهدى ليتم هذا الأمر. أقسم بالله! أن الطلاق سيقع. سيلحق به الخزى والعار، ولهذا سوف تطلب منه الطلاق، ثم سوف يسحق ويدمر تدميرًا".

وعند ذكر السحق والتدمير، التهب خيال (بندون) وتأجج. وبدأ يذرع حجرة المكتب الصغيرة بخطوات واسعة، رائحًا غاديًا. وهو يصيح قائلاً: "سوف تكون لى! يجب أن تكون من نصيبى! ولن تنقذها منى قوى الخير والنور ولا قوى الظلام والشر!".

وتبدد انفعاله بعد أن عبر عنه، وتركه فى نهاية الأمر كمن يؤدى دورًا دراماتيكيًا بشكل مفرط، وأدى به أسلوبه فى التعبير عن المشاعر والأفكار إلى أن يتجاهل - بتصميم بطولى - وخزة حادة مؤلمة شعر بها حول الحجاب الحاجز. وكان (موارس) جالسًا وقد غلبه التأثر الشديد الذى بدا واضحًا للغاية على قسمات وجهه.

وهكذا، عقد (بندون) العزم بشىء من الإصرار، على أن يلحق الأذى بـ (إليزابيث) مستخدمًا ما لديه من براعة عقلية حاذقة، فى الاستفادة من كل أداة تتيحها ميزة الثروة، التى كانت تعطى - فى تلك الأيام - لصاحبها أفضلية على غيره من بنى البشر. ولم يكن اللجوء إلى سلوان الدين، رادعًا لـ (بندون) لكى يتوقف عن المضى فى هذه العمليات الشريرة.

وكان قد اعتاد - بين فترة وأخرى - أن يطلب مشورة كاهن ذى خبرة، وحكمة وتعاطف، من طائفة "الهوسامنية" الذين يتبعون عقيدة "إيزيس"، واعترف (بندون) بين يدى الكاهن، بكل تلك الأحداث التافهة غير العقلانية والشريرة التى اقترفها وتغضب السماء. وأخذ هذا الكاهن ذو الخبرة والحكمة والتعاطف، يصور له غضب السماء كشىء رهيب مفزع، واقترح - لتفادى هذا المصير - بعض الوسائل البسيطة والسهلة للتعبير عن الندم على الخطايا، وأوصى بأن يلتحق بمؤسسة رهبانية(٤٢)، تتميز بهوائها البارد باعتدال، وبأنها صحية وذات مستوى راقٍ، والتى كانت مخصصة

---

(٤٢) مجتمع الرهبان الذى يتميز بالانعزال والتأملية والصرامة والحياة الدينية (المترجم).

لذوى الاضطرابات المعوية من الخَطَأة التائبين، من الطبقة الثرية المهذبة.

وكان (بندون) بعد كل إقامة فى إحدى هذه المؤسسات الرهبانية، يعود إلى (لندن)، نشيطًا إلى حد بعيد ومتقد العاطفة من جديد. ومن ثم كان يدبر المكائد والمؤامرات باذلاً طاقة ضخمة، وكان يذهب أحيانًا إلى شرفة ضيقة لها درابزين، تشرف على شارع الأرصفة المتحركة، ومنها يمكنه رؤية مدخل مبنى شركة العمل، والجناح الذى يعمل به (دنتون) و(إليزابيث). وأخيرًا شاهد (إليزابيث) تدلف إليه، ومن ثم تجددت عاطفته تجاهها. وبعد مرور بعض الوقت، أثمرت أساليب (بندون) المعقدة الشريرة، ومن ثم توجه إلى (موارس) وأبلغه بأن الشابين قاب قوسين أو أدنى من اليأس.

وقال: "لقد حان الوقت لكى تتدخل. دع مشاعرك الأبوية تلعب دورها. لقد قضت (إليزابيث) بضعة أشهر فى زيها من الكنفا الأزرق، وهما محبوسان معًا فى أحد جحور شركة العمل، وقد ماتت طفلتهما الصغيرة. إن (إليزابيث) تدرك الآن أن رجولة (دنتون) لا تتمكن من حمايتها أو أن تكفل لها الرعاية. يا لها من فتاة مسكينة، إنها سوف ترى الأمور الآن بجلاء أكثر. اذهب إليها - فأنا لا أريد أن أظهر على مسرح الأحداث بعد - وعليك أن توضح لها، أنها يجب أن تحصل على الطلاق منه...".

فقال (موارس) بصوت ينم عن الريبة:

"إنها عنيدة".

قال (بندون):

"والروح القدس! إنها فتاة رائعة.. نعم فتاة رائعة".

"سوف ترفض".

"أنا واثق من هذا. ولكن لا تغلق باب المناقشة دونها، بل اتركه مفتوحًا..

وذات يوم، داخل هذا الجحر الخانق، وفى تلك الظروف الشاقة التعيسة، سوف لن يتمكنا من مواصلة الحياة بهذا الشكل. ومن ثم سوف ينشب بينهما شجار. وعندئذ.....".

وأخذ (موارس) يقدح ذهنه مفكرًا فى هذا الأمر، وما لبث أن فعل ما أمر به. أما (بندون) فقد اتفق مع مستشاره الروحى من عقيدة (إيزيس)، على الذهاب إلى ملتجأ. وكان ملتجأ طائفة (الهوسامنية)، يحتل موقعًا خلابًا، حيث يتمتع المقيم فيه بأنقى وأرق هواء فى (لندن)، كما يغمر المكان ضوء الشمس الطبيعى. ويضم الملتجأ أيضًا أحواضًا مستطيلة رائعة الشكل، ينمو فيها عشب فى الهواء الطلق تحت قبة السماء. حيث يستمتع التائب ـ عن ملذاته الماضية ـ بمتعة التسكع والبطالة، بالإضافة إلى حياة الزهد والتقشف. وفيما عدا المشاركة فى طعام الحمية الصحى وإنشاد بعض الترانيم الرائعة، فإن (بندون) كان يقضى معظم وقته فى الاستغراق فى التفكير والتأمل فى موضوع (إليزابيث)، وذلك التطهر الكامل فى روحه، منذ أن شاهدها لأول مرة، وعما إذا كان بمقدوره أن يحصل على ترخيص بزواجها من ذلك الكاهن ذى الخبرة والتعاطف، على الرغم من "خطيئة" طلاقها القريب، وفى ذلك الوقت...

عندئذ كان (بندون) يتكئ على أحد الأعمدة القائمة بجانب أحواض العشب، ويسترسل فى أحلام اليقظة التى شكلت فى عقله صورة ذهنية، بأن الحب الطاهر هو أعظم الفضائل قاطبة. أما ذلك الشعور الغريب الذى كان يحس به فى ظهره وصدره، ويحاول أن يلفت نظره إلى وجوده، ثم تلك النزعة إلى ارتفاع درجة حرارته، وما يصاحبها من رعشة، والإحساس العام بتدهور صحته والتهاب بشرته، فقد بذل قصارى جهده لتجاهلها. ولا ريب أن كل هذه الأحاسيس تنتمى إلى حياته الماضية، التى يحاول أن ينفضها عنه.

وعندما خرج من الملتجأ، ذهب مباشرة إلى (موارس) ليطلب أخبارًا عن (إليزابيث). وبدا واضحًا أن (موارس) يتصور أنه أب يقتدى به، ينفطر قلبه حزنًا على ما تقاسى منه ابنته.

قال بلهجة تنم عن الأسى: "كان وجهها ممتقعًا. وعندما طلبت منها أن تأتى معى وتهجره، لتنال شيئًا من السعادة فوضعت رأسها على المنضدة...".

وشهق ثم استطرد قائلاً : ".. وبكت".

وبلغ من تأثره واضطرابه أنه لم يستطع أن يضيف كلمة واحدة.

أراد (بندون) أن يجل هذا الشجن الأبوى، ثم صاح فجأة وهو يضع يده على جانبه متألمًا: "آه! آه!".

حدق فيه (موارس) بحدة وهو ينتشل نفسه من هوة أحزانه وتساءل: "ماذا بك؟" وكان واضحًا أن الأمر يعنيه.

"ألم مبرح للغاية. أرجو المعذرة! لقد كنت تحدثنى عن (إليزابيث)".

وبعد أن أبدى قلقه على ما ألم بـ (بندون)، استطرد فى تقديم تقريره:

"لقد كانت المقابلة ـ على غير ما كان متوقعًا ـ موحية بالأمل. إذ إن (إليزابيث) عندما اكتشفت للوهلة الأولى أن والدها لم يتخل عنها تمامًا، كانت صريحة معه عن أحزانها واشمئزازها ونفورها".

فقال (بندون) بلهجة مهيبة:

"أجل. سوف أنالها وشيكًا". ثم عاوده ذلك الوخز المؤلم، غير المألوف، من جديد. كان الكاهن عديم الجدوى نسبيًا، فيما يتعلق بهذه الآلام الدنيا. وكان يميل إلى الاعتقاد بأنه من الأفضل أن ننظر إلى الجسد وآلامه، كأوهام فكرية، تخضع لتحكم التأمل فى الأمور الروحية. ومن ثم لجأ (بندون) إلى أحد أفراد طائفة من الناس يكرههم، طبيب فظ ولكنه ذائع الصيت.

قال الطبيب بصراحة تثير الاشمئزاز: "يجب أن أفحص كل أعضاء جسمك".

وأعقب هذا بتوجيه سلسلة من الأسئلة الوقحة من بينها:

"هل سبق لك أن جئت لهذه الدنيا بأى أطفال؟".

قال (بندون) وهو متعجب أشد العجب من محاولة الطبيب النيل من كرامته ووقاره: "كلا، لم يحدث هذا حسب علمى".

قال الطبيب: "آه" واستمر فى فحصه لجسمه بالنقر والضغط والاستماع. وكان الطب فى تلك الأيام، قد بدأ يتحسس خطواته الأولى نحو الوصول إلى بداية الدقة والإتقان، قال الطبيب: "الأفضل لك أن تذهب على الفور وتقوم بعملية "القتل الرحيم"،(٤٤) والأحسن أن يتم هذا دون إبطاء".

انحبس نفس (بندون) من الصدمة. وحاول ألا يفهم تلك التفسيرات والتوقعات العلمية، التى أطلق الطبيب لها العنان.

قال (بندون): "هل.. تعنى أن.. علمك...".

رد الطبيب قائلاً: "لا شىء. مجرد عدة مسكنات قوية. إن هذا الأمر خاضع لمشيئتك إلى حد ما، كما تعلم".

"تعرضت لإغراءات عديدة فى شبابى".

"لم يُحدث هذا كل الضرر، ولكنك انحدرت من سلالة سيئة، وحتى لو كنت قد اتخذت الاحتياطات اللازمة، فإن مصيرك لم يكن يتغير. الخطأ كان فى كونك قد ولدت. إنها حماقات ارتكبها والداك. لقد أهملت ممارسة الرياضة وهكذا دواليك".

"لم أجد أحدًا ينصحنى".

"الأطباء دائمًا على استعداد لتقديم النصيحة والمشورة".

"كنت شابًا نشيطًا مفعمًا بالحيوية".

---

(٤٤) قتل من يشكو مرضًا لا أمل فى الشفاء منه بطريقة خالية من الألم (المترجم).

"لن يجدى الجدل والنقاش، إذ حدث الضرر والأذى بالفعل، وقد بقيت على قيد الحياة، ولا يمكننا أن نبدأ معك من جديد. كان يجب ألا تجىء إلى هذه الحياة على الإطلاق. دعنى أصدقك القول. لا حل سوى بالقتل الرحيم".

أخذ (بندون) يبغضه فى صمت لبعض الوقت. وكان كل ما يلفظه هذا الإخصائى متحجر الفؤاد يصدم مشاعر (بندون) المهذبة النبيلة، إذ كان جافًا وفظًا جامد الحس تجاه كل ما فى هذا الوجود من معانٍ رقيقة وسامية. بيد أنه لا فائدة من الشجار مع طبيب.

قال (بندون): "إن عقيدتى الدينية تمنعنى من الانتحار".

"هذا هو ما كنت تقوم به بالفعل، كل حياتك".

"حسن، على كل حال، لقد بدأت منذ الآن فى أخذ الحياة على محمل الجد".

"الأجدر بك أن تفعل ذلك، إذا أردت الاستمرار فى الحياة سوف تسبب الأذى والألم. ولكن من الناحية العملية، فإنه قد فات الأوان. ومع هذا إذا أردت أن تفعل هذا، فإننى قد أحضر لك شيئًا من الدواء. سوف تعانى كثيرًا، فهذه الوخزات البسيطة...".

"وخزات!".

"لا تعدو أن تكون إشارات تمهيدية".

"إلى متى سأظل على قيد الحياة؟ أعنى قبل أن تنتابنى الآلام المبرحة الفعلية".

"سوف تشعر بها فى القريب العاجل، ربما بعد ثلاثة أيام".

وحاول (بندون) أن يناقش الطبيب لإطالة ذلك الوقت المحدد، إلا أنه فى وسط مناشداته والتماساته، شهق من شدة الألم ووضع يده على جانبه، فجأة اتضحت له شجون حياته غير العادية، مفعمة بالحيوية.

قال: "إن الأمر شاق ولعين. لقد كنت عدوًا لنفسى، وعاملت كل الناس دائمًا بنزاهة وبطريقة عادلة".

تطلع إليه الطبيب لعدة ثوان، دون أن تبدو عليه أى مظاهر للشفقة. لقد كان يفكر فى أنه شىء رائع ألا تكون فى هذه الحياة أى ذرية لأشخاص مثل (بندون)، لحمل كل هذه الشجون، وأحس بشىء من التفاؤل، واتجه إلى هاتفه وطلب وصفة طبية من الصيدلية المركزية.

وتوقف عندما سمع صياح (بندون) من خلفه: "أقسم بالله! أننى سأنالها وشيكًا".

استدار الطبيب وشاهد التعبير الذى ارتسم على وجه (بندون)، ومن ثم عدّل الوصفة الطبية.

وبمجرد أن انتهت تلك المقابلة، استشاط (بندون) غضبًا، وأيقن بأن هذا الطبيب ليس فقط وحشًا لا يتعاطف مع معاناة الآخرين، بل إنه يفتقد لأبسط القواعد التى يجب أن تتوفر فى الشخص المهذب، كما تنقصه الخبرة تمامًا ومن ثم ذهب (بندون) إلى أربعة أطباء آخرين بالتتابع، حتى يتأكد من إحساسه

الداخلى هذا. بيد أنه احتفظ بالوصفة الطبية الصغيرة فى جيبه، تحسبًا لأية مفاجآت. وكان يبدأ حديثه مع كل طبيب، بالتعبير عن شكوكه القوية بذكاء الطبيب السابق وإخلاصه ومعرفته المهنية، ثم يعقب هذا بالإفصاح عن الأعراض المرضية التى تنتابه، مغفلاً بعض الحقائق المادية مع كل طبيب، وما كان أسهل على كل هؤلاء الأطباء من استنباط هذا الجزء الذى بقى فى طى الكتمان.

ولكنه على الرغم من قبول الأربعة الأطباء، بالانتقاص من قدرات طبيب آخر، فإن أيًا من هؤلاء الأطباء المشهورين، لم يتمكن من إعطاء (بندون) أى أمل ليتملص من العذاب واليأس والآلام المبرحة، التى تلوح فى الأفق مهددة إياه. ولم يتمالك (بندون) نفسه - عند آخر طبيب - من أن يفصح عن اشمئزازه المتراكم من علم الطب، وهو ما كان يثقل كاهله.

فقال بقمة انفعاله: "بعد قرون وقرون من التطور، لا تتمكنون من فعل أى شىء إلا الاعتراف بعجزكم. لقد ناشدتكم أن تنقذونى، فماذا فعلتم؟".

قال الطبيب: "لا ريب أن الأمر صعب عليك، ولكن كان يجب أن تتخذ تدابير وقائية".

"كيف كان لى أن أعرف؟".

فقال الطبيب وهو يلتقط خيطًا من القطن من كم سترته أرجوانية اللون:

"ليس من وظيفتنا أن نركض وراءك، ثم لماذا علينا أن ننقذك أنت بالذات؟ كما ترى - فمن وجهة نظر معينة - فإن الذين على شاكلتك من الخياليين والعاطفيين، يجب أن يقضى عليهم. أجل يجب التخلص منهم".

"يجب التخلص منهم!".

"يزالون من الوجود، إنهم يعوقون التقدم".

وكان هذا الطبيب شابًا له وجه هادئ مطمئن. وقد ابتسم لـ (بندون) قائلاً:

"ما زلنا نواصل البحث العلمى، كما تعلم. وإننا نقدم النصيحة للناس الحكماء الذين يطلبونها، والزمن كفيل بأن يحقق طموحاتنا. إننا فى معركة لكسب الوقت".

"كسب الوقت!".

"لا نملك من المعرفة العلمية ما يكفى لإدارة هذه الأزمة".

"إدارة الأزمة!".

"لا تقلق، فالعلم ما زال فى بداية مرحلة التطور، وعليه أن ينمو لعدة أجيال. كل ما نعرفه فى الوقت الحاضر، أن معرفتنا قاصرة، بيد أن وقت تحقيق المنجزات العلمية قادم لا ريب فى هذا. ربما لن تشهد أنت هذا الزمن المستقبلى، ولكنى أصدقك القول، بأنكم يا طائفة الأثرياء وزعماء الأحزاب السياسية، كنتم دائمًا تلعبون بالعواطف الطبيعية للناس، متخفين خلف ستار من الوطنية والأمور

الدينية وهلم جرا، ومن ثم فقد أحدثتم فوضى واضطرابًا لكل الأشياء، أليس كذلك؟ انظر إلى ذلك العالم السفلى! والأشياء الأخرى من حولك. إن البعض منا لديه تصور بأننا فى وقت ما، سوف تتوفر لنا المعرفة العلمية الكافية، التى تجعلنا نتولى أمورًا أكثر أهمية من أمور التهوية وبالوعات الصرف الصحى. إن المعرفة تتراكم يومًا بعد يوم، وهى ما زالت تنمو باطراد. ومن ثم فلا داعى أن نتعجل الأمور إذا تأخرت جيلاً أو نحوه. وسيأتى الوقت الذى يعيش فيه البشر بطريقة مختلفة".

وتطلع إلى (بندون) مفكرًا ومتأملاً ثم قال: "بيد أن الكثيرين سوف يموتون قبل أن يأتى هذا اليوم".

وحاول (بندون) أن يوضح لهذا الطبيب الشاب أن حديثه عبث وغير مرتبط بالموضوع، ولا طائل من ورائه عندما يوجه إلى شخص مريض مثله، إذ إنه متعد حدود الأدب والسلوك الحسن بالإضافة إلى أنه فظ وغير مهذب، خاصة بالنسبة لرجل يحتل منصبًا رسميًا له مكانته وقدرًا كبيرًا من السلطة والنفوذ. وأصر (بندون) على القول بأن الطبيب يتناول أجره لكى يشفى الناس، وشدد على لفظة "أجره". وليس من وظيفته أن يتجاوز ذلك إلى مناقشة أى من "تلك الأمور الأخرى". ورد عليه الطبيب الشاب قائلاً: "ولكننا نقوم بهذا" مؤكدًا على أنه يجب أن يكشف الحقائق كلها. عندئذ فقد (بندون) أعصابه، وحمله سخطه ونقمته إلى منزله. وتساءل فى نفسه: "أيمكن لهذه الطائفة من الأدعياء غير الأكفاء، الذين لم يتمكنوا من إنقاذ حياته ـ وهو الرجل ذو النفوذ والسلطة ـ أن يطمحوا فى يوم

ما، أن يسلبوا أصحاب الأملاك الشرعيين من الحق فى السيطرة على المجتمع. إن هذا سوف يجلب الحكم الاستبدادى إلى العالم. اللعنة على العلم! وأخذ يدخن غليونه مفكرًا ومتأملاً ثم عاد إليه الألم، فتذكر الوصفة الطبية المجهزة التى أعطاها له أول طبيب، ما زالت ـ لحسن الحظ ـ فى جيبه. فتناول جرعة منها على الفور.

خففت تلك الجرعة كثيرًا من آلامه وساهمت فى إعادة الهدوء إليه، وأصبح فى مقدوره أن يجلس فى مقعده المريح بجانب مكتبته من التسجيلات الحاكية، واستغرق فى التفكير فيما صارت إليه الأمور. لقد ذهب حنقه ونقمته بفضل تلك الوصفة الطبية الناجعة التى تغلبت على آلامه وانفعالاته، ولم يبق إلا الشجن مسيطرًا على مشاعره.

وأخذ يجيل نظره فى شفقة حيث الأثاث الفاخر والثمين، وتماثيله المتقنة وصوره الرائعة المغطاة بالستائر، وفى كل هذه الشواهد التى تدل على براعة راقية. ولمس زرًا فانسابت فى الغرفة الأنغام الحزينة لمزمار الراعى فى وادى (ترستان). وعادت عيناه تتحولان من شىء لآخر. لقد كانت كلها باهظة الثمن وفاخرة ومزخرفة ومزينة، وهو مالكها الوحيد. إنها تجسد أفكاره وتخيلاته عن الجمال والرغبة، وهى أعز ما فى الحياة. والآن عليه أن يتركها كلها ويرحل، كأى إنسان من العامة، وشعر بأنه مثل لهب واهن سرعان ما ينطفئ. وفكر فى أن الحياة كلها يجب أن تشتعل وتتحول إلى رماد. وملأت الدموع عينيه.

ثم فكر فى أنه ما زال يعيش وحيدًا، دون أن يكون هناك من يرعاه أو يحتاج إليه! وفى أى لحظة قد تعاوده الآلام المبرحة. وربما يصل الأمر إلى أن يقضى نحبه! ولن يهتم به أحد. ووفقًا لما أفتى به كل الأطباء، فإنه سوف يقضى نحبه بعد يوم أو نحو ذلك. وتذكر ما قاله الكاهن، مستشاره الروحى، من الانحطاط على الإيمان والإخلاص، الذى أصبح يميز هذا العصر. واعتبر نفسه نموذجًا يرثى له عن هذا التدهور، وهو الرقيق والقادر وذو الأهمية والمنغمس فى الملذات الحسية والشهوانية والمزدرى لدوافع وفضائل الآخرين والمعقد، هل يمكن أن ينتحب استدرارًا لشفقة الآخرين دون جدوى. أليست هناك روح مخلصة تلبى نداءه، ألا يوجد راع يعزف له على مزماره ليسعده! هل تلاشت كل تلك المخلوقات البسيطة المخلصة من هذا العالم القاسى غير المتعاطف؟ وراح يتساءل فى نفسه عما إذا كانت هذه المجموعات الفظة من الناس، التى تذرع المدينة فى كل وقت، تعرف رأيه فيها. ولو علمت، فإنه كان متأكدًا بأن البعض منهم سوف يحاول أن يكون رأيًا أفضل عن الحياة. ولا ريب أن أحوال العالم تتجه من السيئ إلى الأسوأ، ومن ثم يكون من المستحيل على أشخاص مثل (بندون) أن يعيشوا فيه. وربما فى يوم ما... وكان على ثقة تامة بأن الشئ الوحيد الذى يحتاجه فى هذه الحياة، هو التعاطف، وكم كان نادمًا أنه لن يترك خلفه أى سونيتات ولا صورًا غامضة محيرة أو أى شئ من هذا القبيل، لتحمل كينونته وتبقى كذكرى إلى أن يعمر هذه الأرض أناس متعاطفون حكماء.

وبدا له أمر لا يصدق، أن ما سوف يحدث له يعد انقراضًا لشخصه. ومع هذا فإن مستشاره الروحى المتعاطف، كان بالنسبة لهذا الموضوع بالذات مزعجًا ومنمقًا وغامضًا، تبًا للعلم! لقد بدد كل إيمان وأمل فى هذا العالم. أن يرحل إلى الأبد، ويختفى من مسرح الحياة، ومن الطريق ومن المكتب ومن قاعة الطعام، ومن العيون الرائعة للجنس اللطيف، ولا يفتقده أى إنسان على الإطلاق! بل يشعر بأن العالم سوف يسعد برحيله!

وفكر فى أنه هل كان - برغم كل شىء - لا يتعاطف مع معاناة الآخرين ولا يتفهم شعورهم؟ ولم يدرك إلا قليل من الناس أنه خلف تظاهره بالاستهتار وازدرائه لدوافع وفضائل الآخرين، فإنه فى حقيقة الأمر رقيق ولطيف إلى أقصى حد. إنهم لا يدركون مدى الخسارة التى سوف تحل بهم عندما يفقدونه. و(إليزابيث) على سبيل المثال ما كانت لتنتابها الريبة..

ورأى أن يبقى هذا سرًا فى قرارة نفسه. وما إن حملته تأملاته إلى (إليزابيث)، حتى أخذ يمعن التفكير فيها لبعض الوقت. إنها لم تفهمه إلا قليلاً! وأصبحت هذه الفكرة لا تحتمل. وقبل كل شىء عليه أن يوضح هذا الأمر تمامًا. وأدرك أنه لا يزال هناك بعض الأعمال التى يجب القيام بها فى الحياة، فعلى سبيل المثال، إن صراعه مع (إليزابيث) لم ينته بعد. فليس بمقدوره - الآن - أن يغلبها على أمرها، بالطريقة التى تمناها وصلى من أجل تحقيقها، ولكن ما زال يمكنه أن يؤثر فيها!

ومع هذا الخاطر، تلاحقت الأفكار فى ذهنه، إذ يمكنه أن يؤثر فيها بعمق، حتى يستدر عطفها وتندم إلى الأبد، على معاملتها القاسية له. وأن تدرك ـ قبل أى شىء آخر ـ مدى شهامته ورقيه ورحابة صدره! أجل! لقد أحبها حبًا عظيمًا ملك عليه فؤاده. ولم تتضح له حقيقة هذا الحب إلا الآن، ومن ثم يجب أن يورثها كل ما يملك. وجاءت إليه هذه الفكرة المباغتة، كشىء أكيد لا مرد له. آنذاك سوف تعرف (إليزابيث) كم كان طيب القلب وكريمًا سخيًا إلى أقصى حد، وعندما تصبح ثرية ـ بفضله ـ فإنها سوف تندم أشد الندم على احتقارها له وفتورها من ناحيته. وعندما ترغب فى الصفح يكون قد فات الأوان. ولن تجد إلا بابًا موصدًا فى وجهها، وسكونًا تامًا ووجهًا ميتًا بالغ الشحوب. أغلق (بندون) عينيه، وتصور نفسه جثة هامدة ووجهه أبيض شاحب.

وجرفته الأفكار، إلى جوانب أخرى لهذا الأمر، بيد أنه كان قد قرر وعقد العزم. وقد كان يعتنى بكل التفاصيل قبل أن يقدم على أى شىء، وكانت تلك الوصفة الطبية التى تناولها، قد أدت به إلى حالة من الكآبة وتبلد الحس. ثم رأى أن يعدل من بعض التفاصيل المعنية. فإذا ورث كل ثروته لـ (إليزابيث)، فمعنى ذلك أنه سوف يترك لها أيضًا غرفته الفاخرة التى يشغلها، ومن ثم ولأسباب عديدة، لم يهتم بأن يترك هذه الغرفة لها. ومن ناحية أخرى، عليه أن يهبها لشخص آخر. وبسبب حالته المتردية التى كان يعانى منها، فقد أقلقه هذا الأمر إلى أبعد حد، وفى النهاية قرر أن يوصى بالغرفة إلى ذلك الكاهن المفسر لذلك الدين الجديد، فقد كان

لمناقشاته فى الماضى، أثرها النفسى الحسن عليه وخففت من بعض آلامه. وقال (بندون) وهو يتنهد فى حسرة: "سوف يفهم. إنه يدرك معنى الشر، ويعرف شيئًا عن الفتنة الجبارة والسحر المروع لغموض الخطيئة. بالتأكيد سوف يفهم".

بمثل هذه العبارات كان يسعد (بندون) أن يبرر بعض انحرافاته عن السلوك الأخلاقى القويم التى قاده إليها غروره المضلل وفضوله الشارد. جلس لبعض الوقت مفكرًا كيف أنه كان يتصرف فى مجونه وانغماسه فى الملذات، كالإغريق والإيطاليين القدماء وخاصة الذين عاشوا فى عصر الامبراطور (نيرون) وغيره من الحكام. وحتى الآن، لماذا لا يجرب نظم قصيدة من السوناتة الشعرية؟ صوت يخترق الزمن ويتردد صداه عبر الأجيال ليمتع الحواس ويشجى النفوس، ومتضمنًا كل الأسى والحزن على رحيله عن هذا العالم. ولفترة من الوقت، نسى كل ما كان من أمر (إليزابيث).

وخلال نحو نصف ساعة، أفسد ملفات ثلاثة حواكى، وأصيب بالصداع، وتناول جرعة ثانية من الوصفة الطبية ليهدئ من روعه. وسرعان ما عاد لتفكيره السابق عن شهامته ونبله وخططه التى رسمها من قبل.

وفى نهاية الأمر وجد أنه يواجه بوعى تام تلك المشكلة البغيضة عن (دنتون). وشعر بأنه يحتاج إلى كل ما فى نفسه من روح السماحة، قبل أن يتوقف عن التفكير فى (دنتون)، ولكن بعد الاستغراق فى التأمل فى هذا الأمر، تمكن هذا الرجل ـ الذى أسيء فهمه إلى حد كبير ـ بمساعدة الدواء المهدئ وإحساسه بدنو أجله،

أن يحل هذه المشكلة الكأداء. فإذا أهمل كل ما يتعلق بـ (دنتون) وأظهر أى بوادر للريبة، أو حاول أن يقصى هذا الشاب بعيدًا، فقد تسىء (إليزابيث) فهم نواياه. ولا شك أنها ـ وكنتيجة لهذا ـ فإنها سوف تظل تحتفظ بـ (دنتون). يجب إذن أن تصل شهامته وسماحته ورحابة صدره إلى هذا المدى، إن (إليزابيث) هى الوحيدة التى تهمه فى هذا الأمر.

انتصب واقفًا وهو يتنهد، وتحرك بتؤدة إلى حيث جهاز الهاتف، الذى كان يمكن أن يوصله بمحاميه. ولم تمر عشر دقائق حتى تم التصديق والتوقيع على كل المستندات القانونية المتعلقة بوصية (بندون)، والتى حفظت فى مكتب محاميه الذى يبعد عن مسكنه بنحو ثلاثة أميال. وما إن انتهى (بندون) من هذا الأمر، حتى جلس هادئًا للغاية لبعض الوقت.

وفجأة استيقظ من حلم يقظة غامض، وضغط بيده على جنبه، متفحصًا بدقة مكان الألم المبرح الذى شعر به، ثم نهض متحاملاً على نفسه، واندفع إلى مكان الهاتف، والواقع أن شركة "القتل الرحيم"، لم تصادف عملاء ـ إلا فيما ندر ـ ممن يكونون فى عجلة من أمرهم إلى هذا الحد.

وهكذا أمكن ـ فى النهاية ـ لـ (دنتون) وحبيبته (إليزابيث) بعد أن فقدا الأمل فى العودة معًا دون أن يفترقا، التحرر من عبودية العمل التى سقطا فى هوتها.

وخرجت (إليزابيث) من جحرها القائم تحت الأرض والذى كان يقيد حركتها، مع الناقرات على المعادن ومحاطة بكل الظروف

الكريهة ومرتدية الكنفا الأزرق البشع، وكأنها تستيقظ من كابوس مروع.

وعادا إلى التمتع بضوء الشمس بفضل الثروة التى آلت إليهما، عن طريق وصية (بندون). وكان مجرد التفكير فى نقر المعادن أو الإشراف على المكبس فى العالم السفلى، أمرًا لا يحتمل.

وارتقيا مصاعد ضخمة وسلالم طويلة، إلى مستويات عالية لم يشاهداها منذ أن وقعت لهما الكارثة. فى البداية، طغى على (إليزابيث) ذلك الشعور بالتحرر والهروب، إلى الحد الذى أصبح فيه التفكير فى الحياة بالطوابق السفلى، أمرًا لا يطاق. ومرت أشهر عديدة، قبل أن تتذكر - بإشفاق - تلك النساء الضعيفات اللائى ما زلن يعملن هناك بالأسفل، وهن يتهامسن بأخبار الفضائح، ويستغرقن فى تذكر الأحداث الماضية، ويأتين من الحماقات ما يعبر عن جهلهن، ويقضين حياتهن فى نقر المعادن.

وعبر اختيارهما للحجرات التى شغلاها على الفور، عن مدى شعورهما العميق بالتحرر من ربقة العمل المضنى. كانت هذه الحجرات تقع عند حافة المدينة تمامًا، ولها سقف وشرفة تطل على جدار المدينة، ويستمتعان فيها بأشعة الشمس والهواء النقى والريح، ومنظر الريف وروعة السماء.

وعلى هذه الشرفة بالتحديد، جرت أحداث آخر المشاهد فى قصتنا هذه.

كان الوقت صيفًا وقت غروب الشمس، وتلال (سورى) تبدو شديدة الزرقة وبالغة الصفاء واستند (دنتون) على سور الشرفة يتطلع إلى تلك التلال. كانت (إليزابيث) تجلس إلى جواره. وكان المشهد أمامهما يمتد رحبًا فسيح المدى، إذ كانت شرفتهما ترتفع نحو خمسمائة قدم، عن المستوى القديم لسطح الأرض.

وظهرت المساحات المستطيلة للأراضى الزراعية، التابعة لشركة الأغذية، تقطعها هنا وهناك بالأطلال الباقية - فى شكل حفر صغيرة وحظائر متناثرة - من الضواحى القديمة، وتتقاطع معها المجارى المتألقة لمياه الصرف الصحى، التى تنتهى عند أسفل التلال البعيدة. وهناك كان يجلس فى عصور موغلة فى القدم، أطفال (يويا)[٤٥].

وعلى هذه السفوح البعيدة، تربض آلات لا يدرى أحد ما تؤديه، وهى تعمل بتؤدة، بعد أن اقتربت من نهاية فترة عملها، أما على قمم التلال فهناك دوارات رياح، ولكنها ساكنة وعلى طول الطريق الجنوبى العظيم، يمكن رؤية العمال الزراعيين التابعين لشركة العمل، يركبون مركبات آلية هائلة ذات عجلات، فى طريقهم إلى حيث يتناولون طعامهم، بعد انتهاء نوبة عملهم الأخيرة. وكانت ثمة طائرات صغيرة خاصة، تهبط من الفضاء فى اتجاه المدينة. وكان هذا المشهد - المألوف بالنسبة لـ (دنتون) و(إليزابيث) - من الممكن أن يثير الدهشة والعجب فى نفوس أسلافهم.

---

(٤٥) ارجع إلى "قصة العصر الحجرى" فى نفس هذا الكتاب (المترجم).

وحاول (دنتون) أن يطلق خياله إلى المستقبل، فى محاولة لم يكتب لها النجاح، ليتصور تطورات هذا المشهد الذى يتراءى أمامه، بعد مائتى سنة، ولكن ما لبث أن ارتد بتفكيره إلى الماضى. وكان (دنتون) قد حظى ببعض الثقافة المتنامية فى هذا العصر، ومن ثم استطاع أن يتصور مدينة العصر الفكتورى الكئيبة التى يغلفها الدخان، بطرقها الضيقة غير الممهدة الصغيرة، وأراضيها المنهكة، وأرضها المشاع العريضة، وضواحيها سيئة التنظيم ذات المبانى العشوائية المتهالكة، وما يحيط بها من أسيجة غير منتظمة، والريف الذى ينتمى إلى عصر أسرة (ستيوارت)[٤٦]، بقراه الصغيرة، ومدينته (لندن) الحقيرة. إنجلترا التى تزخر بالأديرة، وكانت منذ عهود قديمة تحت سيطرة الرومان، وقبل ذلك كانت مجرد بلد غير متحضر، تتناثر فيها هنا وهناك، أكواخ بعض القبائل البدائية التى تتقاتل دائمًا فيما بينها.

ولا بد أن هذه الأكواخ شيدت وتهدمت ثم شيدت من جديد، عبر سنوات طويلة، مما جعل المعسكر والقصر الريفى الرومانى، يبدوان وكأنهما قد أقيما فقط بالأمس. وحتى فى الأزمان الموغلة فى القدم، كان هناك بشر فى الوادى. وتعد هذه الأزمان "حديثة"، بمقاييس العصور الجيولوجية القديمة، التى كان الوادى قابعًا فيها أيضًا، وكذلك هذه التلال التى كانت قائمة فى نفس مكانها الحالى، ولكنها ربما كانت أكثر ارتفاعًا، ومغطاة بالثلوج عند قممها، وكان

(٤٦) أسرة حكمت فى اسكتلندا ثم بريطانيا منذ ١٣٧١ وحتى ١٧١٤ ميلادية (المترجم).

نهر (التايمز) يتدفق من (كوسوولز) ويصب فى البحر. ولكن البشر فى ذلك الوقت، لم يكونوا بشرًا حقيقيين، بل مجرد أشكال بشر، مخلوقات من الظلمة والجهل، ضحايا للوحوش الضارية والفيضانات والعواصف والأمراض الوبائية والمجاعات المتواصلة، وقد كانوا مفتقدين للطمأنينة والحياة الآمنة وسط الدببة والأسود وكل ذلك العنف الوحشى للماضى. وعبر السنين استطاع الإنسان أن يتغلب على هؤلاء الأعداء..

ومر وقت و (دنتون) ما زال يتابع بأفكاره وتأملاته، تلك الرؤية فسيحة المدى، محاولاً بدافع من غريزته، أن يجد مكانه ويحدد دوره فى كل هذه المنظومة.

كان يقول: "إن الأمر كان مجرد مصادفة. وحسن طالع أن استطعنا التغلب على هذه المحنة. لقد حدث أن اجتزناها. ولا يرجع هذا إلى أى قوة لدينا...".

قالت (إليزابيث): "ومع هذا.. كلا.. إننى لا أدرى..".

صمت لفترة طويلة قبل أن يتحدث من جديد:

"ومع ذلك، فما زال أمامنا وقت طويل. إن الإنسان لم يكد يظهر على وجه الأرض، لمدة عشرين ألف سنة، أما الحياة فكانت موجودة منذ عشرين مليون سنة مضت. ماذا تعنى الأجيال؟ ما هى الأجيال؟ إنها عملاقة عظيمة ونحن غاية فى الضآلة، ومع هذا فإننا ندرك ونشعر، فلسنا مجرد ذرات عجماء، بل إننا جزء من الكون والزمن، جزء منهما.. إلى حدود قوتنا وإرادتنا. حتى لو متنا فنحن جزء

من هذا الوجود، وسواء كنا على قيد الحياة أو وافتنا المنية، فنحن ما زلنا فى مرحلة التكوين".

"ربما مع مرور الزمن، سوف يصبح البشر أكثر حكمة وذكاء..".

"ولكن هل سيفهمون؟".

وخيم عليه الصمت من جديد، ولم تنبس (إليزابيث) ببنت شفة على ما قاله. بل ظلت تتطلع إلى وجهه الحالم بمحبة لا حدود لها. لم يكن ذهنها بالغ النشاط فى هذه الأمسية. كان يغمرها شعور جارف بالقناعة والرضا. وبعد قليل وضعت يدها الناعمة على يد (دنتون) الجالس بجوارها، فلاطفها برفق، وهو لا يزال يتطلع إلى ذلك المنظر فسيح الأرجاء، المغمور بالأشعة الذهبية للشمس الغاربة، وهكذا جلسا متشابكى اليدين، وقرص الشمس يغيب وراء الأفق، حتى شعرت (إليزابيث) بقشعريرة، فسرعان ما أيقظ نفسه من خيالاته الممتعة الشاملة، وذهب إلى الداخل ليجلب شالاً تتدثر به (إليزابيث) اتقاءً للبرد.

المؤلف فى سطور :

هـ. ج ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٩)

- ولد (ويلز) فى (بروملى) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا.
- عمل بالتدريس والصحافة.
- يعد من الرواد الحقيقيين لأدب الخيال العلمى، كما أنه كاتب ذو مواهب متعددة، تكاد تتنافس بعضها مع بعض، فهو مؤلف لقصص الخيال العلمى، وروائى اجتماعى، وإنسان مجادل قوى الحجة، وشخص يجيد التنبؤ بالمستقبل والتحذير من العوائق المحتملة، كما أنه مؤرخ للبشرية.
- من أشهر رواياته (آلة الزمن) عام ١٨٩٥، و(جزيرة د، مورو) عام ١٨٩٦ و(الرجل الخفى) عام ١٨٩٧ و(حرب العوالم) عام ١٨٩٨ و(أول بشر على القمر) عام ١٩٠١. وكان تأثير الكاتب فوريا، إذ سرعان ما حصل على التهنئة والثناء بوصفه مفكرًا عبقريًا وتعكس معظم هذه الروايات آراء (ويلز) فى الثورة العلمية والتصدى للنفاق الاجتماعى والبحث عن العدالة الاجتماعية.

- تحولت أفكار (ويلز) إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية فى الحياة، واتضح ذلك فى سلسلة كتبه الطويلة، التى بدأت بكتاب (توقعات) عام ١٩٠١ و(اكتشاف المستقبل) عام ١٩٣٢ و(مدينة فاضلة حديثة)، ونجده فى هذه الكتب ـ إلى جانب تصويره المبدع للمستقبل ـ يضمنها بعض النبوءات الاجتماعية ووجهة نظره الشاملة المريدة للمجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت.
- وبعد عام ١٩٠١، كانت وسيلة (ويلز) الرئيسية هى رواية الأفكار، وهى خلاصة من رواية شبه سيرة ذاتية والظروف المتغيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة وتعد (مكيافللى الجديد) أول رواية له والأفضل فى هذا المجال، تليها فى الشهرة (السيد بريتلنج ثاقب البصر) التى نشرت فى ذروة الحرب العالمية الأولى، وابتكر (ويلز) شعار «الحرب التى سوف تنهى الحرب». وأصبح مهتمًا للغاية بصنع السلام، وإنشاء سلطة عالمية لتجنب الصراعات المستقبلية بين الدول. وعندئذ عاد ببساطة إلى دور المعلم والمربى، وكتب سلسلة من الكتب التعليمية الموسوعية، حيث بدأها بكتاب (ملخص تاريخ العالم) الذى يعد من أشهر كتبه. وبصدور هذا الكتاب وصل (ويلز) إلى قمة شهرته ومجده.

المترجم فى سطور :

رؤوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة.
- عمل بالتدريس بجامعات مصر والعراق والكويت.
- نال جائزة تبسيط العلوم - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا. وجائزة الثقافة العلمية - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو لجنة الثقافة العلمية - المجلس الأعلى للثقافة.
- ترجم العديد من الكتب العلمية، وفى مجال الخيال العلمى منها: «الروبوت» و«الحاسب الآلى» و«كوكب الأرض» و«مذنب هالى» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام - الكويت). وقام بترجمة «ثلاث رؤى للمستقبل»، و«حرب العوالم» و«الرجل الخفى» للمركز القومى للترجمة، كذلك ترجمة مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية.

- شارك فى العديد من الندوات منها «ندوة الخيال العلمى» وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى «سؤال وجواب» وتقديمه بتليفزيون الكويت و«الخيال العلمى» (إذاعة الكويت).
- نشرت مقالات وقصصه فى عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة «التقدم العلمى» مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة «دبى الثقافية» الإمارات،
- أحد رواد أدب الخيال العلمى والثقافة العلمية بالوطن العربى،
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمى العرب.
- حاصل على شهادة تقدير من نقابة العلميين.

التصحيح اللغوى : **أحمد حمودة**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إن الرؤى والمفاجآت التى تكشف عنها قصص (ويلز) القصيرة، تترك للقارئ مدى واسعا فى تفسيرها؛ إذ يستطيع أن يفسرها بشكل أسطورى أو نفسى أو اجتماعى أو غير ذلك، ولكننا نلاحظ أن (ويلز)، فى أواخر مسيرته الأدبية، يترك لنا لهذا التفسير مساحة أقل، والحقيقة أن ويلز رغم كل ذلك، يستخدم - بوضوح - رموزا وإشارات تختلف تمامًا عن تلك التى شاعت فى الأدب الغربى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث يخلق معانى غير عقلانية بالمرة للعالم الآلى الذى تفرضه النظريات العلمية، وبينما يبدو لنا فى البداية أن (ويلز) يعرض تضاربا بين الواقع والرمز، فإن الخيالات والتصورات الغريبة، التى يفاجئنا بها ليس المقصود أن تكون بديلاً للواقع، وإنما امتداد خيالى له، ولعله يُفهم ضمنياً من ذلك، أنه فى آخر الأمر سوف يتمكن العلم من استيعاب الأشياء الخيالية الحالية، داخل نسيج عالمه المبنى من الحقائق.

وقصص (ويلز) قوية فى كشفها عن العجائب والغرائب، ولا تطرح علينا سوى إحساس رمزى وغامض بالأمور الغيبية أو التى فوق طاقة البشر.

التصميم الأساسى للغلاف: عبد الحكيم صالح
تصميم الغلاف: إيناس الهندى